عام التنين

محمد ربيع

رواية

مكتبة عابث
@3abeth

عـــام التنـين

روايـــة

محمد ربيع

@3abeth

"فاستخف قومه فأطاعوه إنهم كانوا قوماً فاسقين"

(سورة الزخرف آية ٥٤)

"واستخفاف الطغاة للجماهير أمر لا غرابة فيه؛ فهم يعزلون الجماهير أولاً عن كل سبل المعرفة، ويحجبون عنهم الحقائق حتى ينسوها، ولا يعودوا يبحثون عنها؛ ويلقون في روعهم ما يشاؤون من المؤثرات حتى تنطبع نفوسهم بهذه المؤثرات المصطنعة، ومن ثم يسهل استخفافهم بعد ذلك، ويلين قيادهم، فيذهبون بهم ذات اليمين وذات الشمال مطمئنين!"

(في ظلال القرآن -سيد قطب)

@3abeth

عـام التنـين

سيدي الرئيس؛ محمد حسني مبارك...

أؤيدك بكل ما أملك، طاقاتي وملكاتي وعلمي وحواسي، لا أدخر منها شيئاً، أنا معك، وبك، ومن خلالك، نبني بلادنا معاً، عارٌ عليَّ إن خنتُ أو فرطتُ في ثقتك، أنا لك، فلتتحول حياتي إلى تراب إذا فكرت في خيانتك.

لن أدخر جهداً أو تفكيراً لمساندتك، سأقرأ وأتعلم، فقط لكي أساعدك، لا أريد منك أي مقابل، أرى منذ سنوات أنك الوحيد المناسب لقيادة مصر، والآن وقد أمسكت الزمام، فما عليَّ إلا إسداء النصح والإرشاد.

ونصائحي أنت بالتأكيد تعلمها تمام العلم، نصحتك بها غيري، أو تعلمتها بخبرتك الطويلة، لكني فقط أذكرك ببعض الأمور، ولا أخبرك.

استمع إلى نصائحي، وإذا رأيت أني تجاوزت الحدود فأمرني بالتوقف، إذا وجدتني أخطأت فتجاهل خطئي أو

@3abeth

عاقبني، أنا منك وبك، ولا سند لي إلا أنت. لكن، أرجوك، لا تطردني من جنة المخلصين.

هذه الرسالة ستصلك مباشرة، أما باقي رسائلي ونصائحي فستصلك من خلال وسيط، أحد المخلصين الشرفاء، العاملين في خدمتك، هؤلاء الذين اكتسبوا ثقتك ورضاك. أثق بثقتك فيهم، وأعرف أنك اخترتهم بعد الفحص الدقيق، لكن التغيير يصيب الناس لا محالة، فانظر في أحوالهم من حين لآخر.

سيدي الرئيس محمد حسني مبارك... لنبدأ عهداً جديداً.

@3abeth

نفـــق

يفتح نعيم الباب بنفسه، هو رجل البيت، ولا يفتح باب الشقة أحد غيره.

يدخل الرجل بثقة زائدة، يتبعه وليد ابن نعيم، ينظر وليد إلى الأرض، مفتعلاً الخجل والحزن، لكن هذا الافتعال يضيع تماماً بعد بضع ثوان، يحدق وليد في الأرض مفكراً في المجهول، يستبدل حزنه المفتعل بحيرة حقيقية. لكن العملية كلها لن تستغرق سوى دقائق، وعليه بعدها أن يفكر فيما عليه أن يفعل. يجلس الرجل بأريحية على كنبة الصالون، كأنه يحتل الكنبة وحده. يجلس نعيم بجانبه وهو يشير له مرحِّباً به، نعيم سعيد بقدومه، يردد عبارات الترحيب بالقادم، ألم تكن تلك فكرة نعيم في الأصل؟ بينما الرجل يجلس متململاً راغباً في إنهاء الأمر. يتساءل الضيف عن صاحب التصريح، يرفع نعيم يده في مواجهة الضيف، مشيراً إلى أنه صاحب الأمر كله. يخرج الضيف ورقة واحدة من جيبه، يبدأ في الكتابة. ينتهي في ثوان قليلة. يعيد القراءة ويراجع ما كتب. ثم يسأل نعيم عن اسمه. يرد وليد قائلاً اسم أبيه الرباعي؛ نعيم عبدالنعيم أحمد أبوسبعة، يمسك بطاقة أبيه الشخصية

@3abeth

ويناولها للضيف، يراجع الضيف الاسم، ثم يتركها على الطاولة. يكتب الضيف اسم نعيم بخط واضح في الورقة، ثم يوقع. يرفع الورقة ناحية نعيم ويسأله عن رأيه، يقول الطبيب إن كل شيء جاهز الآن، يمكنه أن يُتم العملية بثقة واطمئنان بالغين.

يقرأ نعيم ما في الورقة بهدوء، فهو يعرف المحتوى تماماً، مهما كانت العبارات المكتوبة غريبة، فإنها ستؤدي لنفس المعنى في النهاية. يجلس ولده بجانبه، وبناته يتابعن ما يحدث من فرجة باب غرفة النوم، زوجته في الداخل تجلس على السرير. أوصت الست بناتها بالإشارة إليها حينما يستلم الضيف المال من نعيم. هي باقية على السرير تخطط لما سيحدث بعد قليل، لم يكن لها رأي فيما يحدث، عطيات ملّت كل شيء، ولم يعد هناك ما يمنع نعيم من تنفيذ ما يريد، أخيراً ستستريح، ونعيم سيستريح أيضاً، والولد سيسكت أخيراً، والبنات، كلهن سيصبحن في خير حال، تنتظر هي إشارة من البنات، لا تزال تنتظر.

يقاوم نعيم في البداية، لكن الدموع تنساب الآن على وجنتيه. يحاول الضيف مواساته، لكن نعيم يطلق حشرجة غير مفهومة، يعتبرها الضيف حشرجة الحزن الأخيرة، يحاول الضيف إلهاء نعيم عن حزنه، فيخبره بأن عمله الآن أصبح يتلخص في هذا، استصدار تصاريح الدفن. الكثيرون يفعلون ذلك يومياً، حالما يبلغ أحدهم الستين- ستين الدنيا وليست ستين العمل- يقومون بنفس فعلة نعيم، يطلبون منه إصدار التصاريح بقلب مؤمن واثق، قليل منهم من يبكي في مثل هذا الموقف، يفعلون ذلك بإرادتهم، بلا ضغوط، ينشدون

@3abeth

الخلاص. نعيم لم يصمت، أخذ ينهنه كالأطفال، يربت الرجل على كتفه، يخبره أن شيئاً لن يتغير، التغيير الوحيد، أنه داخل على ثواب وعقاب، الملكان صارمان للغاية. لم يفهم نعيم الدعابة في البداية، بعد لحظة تفكير، يجد أن الدعابة تقترب من حد التجديف، ينظر ملياً للطبيب الساخر، ويصمت لأنه كره الطبيب في تلك اللحظة. يسأل الطبيب بصبر نافد عن المال، صوت الطبيب الجامد علامة الملل جعل نعيم يكرهه أكثر، يمد نعيم يده بالمبلغ المتفق عليه للطبيب، يأخذه ثم يقوم من فوره متجهاً إلى الباب. في نفس الوقت، وبعد إشارة صغيرة من البنات، تبدأ عطيات بالصراخ، وتبدأ البنات بالبكاء.

فوراً، بلا إبطاء، وكأنهن في انتظار الصراخ. تأتي جارات الست وهن لابسات السواد، تبكين بدموع حقيقية. وتدخلن تباعاً إلى الحجرة. سمعن صراخ الست وعلمن أن نعيم قد مات، رحمه الله. تدخلن من باب الشقة فتلقين على نعيم السلام ثم تدخلن إلى غرفتها، رحمه الله. يرد نعيم – رحمه الله – السلام على من دخلن في البداية، بإشارة من رأسه، لكنه ملّ الأمر بعد الثالثة أو الرابعة، فكف عن هز رأسه. منذ أن أعلنه الطبيب ميتاً بشكل رسمي وهو يفكر قبل كل حركة، هل يجب أن أفعل هذا أو ذاك؟. لم يغير نعيم جلسته منذ أن خرج الطبيب، يحاول ترتيب الأفعال في رأسه الآن، يحاول تخيل ما سيحدث اليوم.

يتبع الجارات الجيران. يبقى وليد في الصاله مع أبيه -رحمه الله- يستقبل الناس، يصافحونه ويضغطون على كفه، وهو يبادلهم الضغط

@3abeth

ليبدي لهم الصلابة والجلد، معلماً إياهم برجولته وسلطته الجديدة، الآن هو رجل البيت.

كل دقيقة يدخل أحدهم إلى الشقة، حتى امتلأت الصالة تماماً، ولما وجدوا فراغ الشقة قد امتلأ، بدأ الناس في دخول المطبخ، والوقوف فيه في انتظار الفرج، ثم تراكم الناس على سلم العمارة، أخذوا يدخنون، يصدرون ضوضاء عالية، كلهم ينتظر. يرفع أحدهم غطاء قدر في المطبخ، فضولا وجوعا، وعلى الرغم من الأصوات والهمهمات والصراخ تسمع عطيات صوت غطاء القدر، فتقوم بسرعة وتفتح باب الغرفة، ينظر الجميع إليها، ثم تواجه نعيم وتخاطبه، طالبة منه التحرك.

بحكم العادة، يتجه الى المطبخ وسط الزحام، ويملأ كأساً بالماء ليشرب، لم يستسغ طعم الماء وبصق ما شربه. عادات الخروج من البيت هذه لا معنى لها، لم يكن لها معنى ونعيم حيّ، وبالتأكيد لا معنى لها الآن. يبدو لنعيم أنه قد مات فعلاً، وأن طعم الماء قد تغير في حلقه بسبب الموت. يتحرك نعيم نحو الباب طالباً من الجميع النزول إلى الشارع، فرد ذراعيه على اتساعهما، ثم أخذ يحرك الهواء بذراعيه وينظر إلى الأرض، كأنه يهش بذراعه دجاجات على الأرض. يثير فعله حنق بعض الحضور؛ ـ رحمه الله ـ كان بخيلاً، لكنهم يتحركون في النهاية صامتين، يتأخر عنهم نعيم لدقائق، ثم ينزل متجهاً للشارع.

@3abeth

يمشي بتؤده الآن، يتقدم الجميع بصفته الميت، تظهر عطيات في الشرفة تصرخ بحرقة ولوعة، تنادي وتسلم على نعيم، لم تكن تنطق بكلمات مفهومة، بل بالجمل النمطية المعتادة، التي لا قيمة لها في هذا الموقف، يزداد توترها، ويعلو صراخها مع كل جملة، توشك على الانهيار، ثم تصل عطيات إلى مرحلة من عدم الوضوح غير معتادة، فتبدأ في تكرار الجملة الأخيرة بشكل هيستيري، تلك التي لم يفهمها واحد من الواقفين أول مرة، ولم يفهمها أحد حتى بعد تكرارها.

يمشي نعيم بهدوء وخلفه الموكب، لا يفهم المارة ما يحدث، لكنهم ينضمون للمسيرة بلا تفكير، يمشون لخطوات قليلة ثم يسألون جيرانهم عن سبب المسيرة، يتعجبون ويسألون عن الميت، عن النعش، تبدأ المسيرة في الإسراع، يهرولون وكأنهم ملوا أو تأخروا عن ميعاد جماعي، يتأخر نعيم، محافظاً على سرعة سير ثابتة، ليصبح في وسط السائرين. يقترب أحد الجيران منه ويطالبه بالإسراع، فينظر نعيم إليه في برود ولسان حاله يقول: جنازتي وأنا حر في سرعتها. فهم الجار فوراً معنى النظرة، فأخذ يوضح لنعيم أن الخشبة الطائرة دليل على تقوى الميت، وتلك البطيئة تحمل دلالات أخرى، لم يفهم نعيم المطلوب، وأخذ يفكر ويتساءل عن الخشبة، لا توجد خشبة في هذه المسيرة، طائرة أم زاحفة، يهمل نعيم جاره، ويظل سائراً بهدوء كما بدأ السير. هذا ما يراه صواباً، ما رآه صواباً طوال عمره، لن يهرول أبداً، يرى أن السائر في الجنازة يجب أن يكون هادئاً رزيناً، الجنازة هي التحية الأخيرة للميت، لم يتمكن نعيم طوال حياته من الربط بين فكرة طيران

@3abeth

النعش وبين تقوى صاحبه. فجأة، يرفعه اثنان بأيديهما إلى الأعلى، ثم يتلقفه اثنان آخران، ثم أخذ كل اثنان يناولانه لاثنين آخرين، يحاول الجميع نقل نعيم إلى مقدمة المسيرة، تتزايد سرعة المسيرة مع حملهم لنعيم، يشترك الجميع في حمله، يصاب نعيم برضوض وجروح بسبب الأكف الصلبة والأظافر الطويلة. يبعبصه أحدهم، يبعبصه آخر، ثم تنهال البعابيص عليه؛ هذا ما كان نعيم يخشاه، بعبصوه بعدما كتب كتابه على عطيات، بعبصوه وهو حي عدة مرات، بعبصوه بأشياء غير الأصابع، ويبعبصونه اليوم وهو ميت. بعد أن تحمل الألم والبعابيص والدوار الناتج عن الأرجحة في الهواء، يتململ ويرفس الجميع بقدميه، يجبرهم على إنزاله على الأرض مرة أخرى، يتوقف ريثما يستعيد أنفاسه، يشاهد المسيرة وهي تبتعد عنه، يشاهد الناس يتقدمون نحو الجامع، يسبقونه بمسافة طويلة.

يصل الجميع إلى الجامع، يسرعون بخلع الأحذية ويدخلون، يصل نعيم متأخراً عن الجميع وهو غاضب مما حدث له للتو، كان قد قرر أن يمنعهم من تكرار ما حدث في المسيرة من الجامع إلى المقبرة، بعد الصلاة عليه سيركب تاكسي ويتركهم يمشون حتى المقابر. يدخل نعيم إلى الجامع حاملاً حذاءه. يمني نفسه، يفكر أن هذه آخر صلاة له على الأرض. انتهى الناس من صلاة العصر منذ دقائق، قرروا أن يصلوا صلاة الجنازة على نعيم وينتهي الأمر. يصطف الناس، يمسك الإمام بالميكرفون ويذكرهم في جملتين قصيرتين بصلاة الجنازة. يحاول نعيم حشر نفسه في الصف الأول، يدفع الناس حتى يقترب من الإمام، هذه

@3abeth

صلاته ويجب أن يقف في الصف الأول، ينتبه الإمام له، يرفع سبابته ناظراً نظرة صارمة لنعيم، ثم يشير إلى خارج الجامع بحزم، يطرد نعيم من الجامع. لا يفهم نعيم ما يحدث، لا يفهم المحيطون بالإمام إشاراته العصبية تلك، ينظرون للإمام نظرات محتارة، لا يود أحدهم أن يكسر الصمت المقدس، يمل الإمام من غبائهم، ويقترب من أقربهم إليه، ويهمس في أذنه. تبدو على وجه الرجل علامات الفهم والموافقة، يتقدم الرجل من نعيم، يمسك بذراعه ويرافقه بهدوء إلى خارج الجامع. يفهم نعيم أخيرا، الإمام لا يجيز صلاة الواحد على نفسه، يصل إلى الخارج، ثم يلبس حذاءه ويقف منتظراً الفراغ من الصلاة. محبطا للغاية، يفهم أخيراً أن الناس قد بدؤوا في معاملته كميت حتى قبل الدفن.

يشعر نعيم بحركة الناس خلفه، يلتفت ليجدهم يتعلون أحذيتهم، سيدركونه الآن. يهرول إلى الشارع ليتخلص منهم، ثم يرفع يده، ليوقف التاكسي ويركب فيه مسرعاً. ينظر نعيم بتشفي للواقفين المذهولين من تصرفه، يرفع نعيم وسطاه من نافذة التاكسي، يرد البعبوص لصاحبه.

بأناقة تامة، ومعرفة كاملة بأصول التعامل مع الناس، يرفض السائق أخذ الأجرة من نعيم، يقسم بالله أقساماً مغلظة، لن يأخذها وانتهى الأمر. يشعر نعيم أيضاً بأنه غير ملزم بدفع الأجرة من الأصل، طالما أن الناس بدأوا في معاملته كميت، فله أن يبدأ في معاملتهم كميت أيضاً. لكن شيئاً في إصرار السائق على الرفض يثيره، هذا الإلحاح المضاد غير المتوقع يصيبه بالإهانة، بالغضب، غضب فوق غضب،

@3abeth

قرف فوق قرف، يرمي نعيم ورقة النقد داخل التاكسي ويمضي داخل المقابر. يسير بخطى مسرعة حتى مدفن العائلة، متململاً، منفعلاً. يقف منتظراً باقي الناس، يضع يديه في جيبي بنطاله.

يقترب التربي من نعيم محاولاً معرفة سبب حضوره، اليوم ليس يوماً للزيارات، زيارة المقابر تتم عادة في الأعياد، يتذكر الناس موتاهم وقت الفرحة. بينما الساعة ساعة دفن، لذا يظن التربي أن نعيماً أول القادمين لدفن الميت، وأن النعش قادم بعد قليل. يسأل التربي نعيماً عن عائلة المتوفي واسمه، طالباً إبراز تصريح الدفن، نعيم ينظر إليه باحثاً عن الغباء في عين الرجل، ويكاد يسأله: وما دخلك؟ يتابع التربي الكلام فيشرح أن فتح القبر سيستغرق وقتاً، وأن عليه معرفة القبر المراد حتى يبدأ في فتحه وتهيئته للمتوفى، وأن تصريح الدفن هو مفتاح القبر، بغيره لن يفتح التربي القبر أبداً، تصريح الدفن أهم من المتوفى.

يبدي نعيم امتعاضه، هاهو ميت بشهادة الطبيب وعشرات المصلين والأسرة. لكن أحدهم لا يعترف بذلك، وينتظر ورقة من مكتب الصحة لكي يدفنه، ورقة وقع عليها موظف أو اثنان، مختومة بختم النسر الشهير. الورق يجري خلفه، أثناء حياته وأيضاً بعد مماته. يطمئن نعيم، فوليد الآن على وشك القدوم من مكتب الصحة، حاملاً تصريح الدفن المختوم.

@3abeth

يقترب أحدهم من نعيم الواقف وحيداً بين المقابر. يرتدي الرجل جلباباً قديماً مهترئاً، لحيته نابتة، غير مهذبة، قبيحة، بشكل آليّ، يجلس الرجل ويسند جذعه إلى أقرب قبر، يضع كفه اليمنى على صدغه ويبدأ في التلاوة، صوته رنان متحشرج، تلك الحشرجة الخفيفة المفضلة لمستمعي التلاوة: "ونفس وما سواها فألهمها فجورها وتقواها قد أفلح من ذكاها وقد خاب من دثاها". يرتج نعيم من نطق الرجل للحروف، هذا هندي؟ لا يعرف العربية؟ الحمار يحمل الأسفار؟ هذا الشيء تخرج في الأزهر؟ هذا الشيء تخرج من الأصل؟ صوتك الفلاحي صالح للنداء على الفاكهة والخضار، لكنه لا ينفع في التلاوة. يوشك نعيم على الصراخ في وجه الرجل ليصحح أخطاءه، لكن الخجل يمنعه، أيضاً، تمنعه اللامبالاة التي تسيطر على الجميع هذه الأيام، لكن صاحب التأثير الأكبر على نعيم، كان نوراً صوفياً يطل كهالة حول الرجل، منع النور نعيماً من التصحيح، يندم نعيم على جمل النقد والسخرية التي وجهها للرجل في عقله، في هذه اللحظة المباركة، وقبل دفنه بعدة دقائق، والرجل يقرأ على روحه المعلقة قرآنا ويخطئ في النطق، يدرك نعيم أن صواب أفعالنا استثناء.

كان الحفّار قد أتم الحفر، حفرة عمودية، عمقها متران أو أكثر، ثم حفر نفقاً قصيراً تحت المدفن حتى يصل إلى غرفة الدفن. يعود الحفارإلى السطح، يقف بجانب نعيم.

ينتظر الواقفون، لا أحد منهم يعلم ما يجب عمله الآن. مرت نصف ساعة والكل ثابت، ساكن في مكانه، صامت، الكل ينتظر الكل،

@3abeth

ينتظرون واحداً ليتكلم ويشير بفعل مفيد، ينتظر الجميع أن يتحرك واحد، أن يأتي واحد ويحل المشكلة.

أخيراً، يشير أحدهم للحفار والتربي بردم الحفرة مرة أخرى، ينظران إليه بوجه جامد، يهز التربي رأسه مبدياً عدم الفهم. يقول: أين المتوفى، افتحوا الخشبة. ويدير رأسه بين الواقفين باحثاً عن الخشبة، تلك التي لم تظهر طوال اليوم. يخبره واحد بهدوء أن لا داعي للدفن، وأن عليه أن يردم الحفرة وينتهي الأمر. بدا للجميع أن التربي سيفسد الأمر برمته.

يشرح وليد للتربي الموقف، يشير لأبيه ويخبر التربي أن الميت واقف أمامه، ها هو حي، ولا داعي لدفنه. وبإغلاق القبر، سيكون كل شيء قد انتهى. لا داعي أبداً لكل هذه الضوضاء، لا داعي للاعتراضات والكلام الكثير. التربي من ناحيته، وكرجل يحترم مهنته، يصر على الدفن. ينظر للحانوتي ويسأله إن كان المغسل قد غسل الجثمان وكفنه. يهز الحانوتي رأسه نافياً، كان مذهولاً مما يحدث حوله. يصر التربي على إتمام العمل بشكل صحيح، يطلب صابونة، ولوفة، وزجاجة كولونيا، وكفن. ويقول في حزم: سنغسله، ونكفنه، ثم سندفنه.

يعتمد الناس في تلك التعاملات غير القانونية على عنصر المفاجأة، فإذا فشلت هذه الطريقة يتم استخدام طريقة الضغط التدريجي لإتمام التعامل غير القانوني. الصدمة التي أصابت التربي عندما سمع كلام

@3abeth

وليد، أدت إلى رفضه التام لما يحدث، لكن الأمل معقود على ضغوط المحيطين التي ستستميله إلى الموافقة تدريجياً، يبدأ الكثيرون في مخاطبته، في محاولة إقناع، يتحدثون بالمنطق والعقل، المحامي يشرح له بنود القانون، ويشير بسبابته؛ هنا توجد ثغرة. ثم يشير إلى جهة أخرى؛ وهذه ثغرة ثانية، شف كمية الثغرات يا أخي. كل واحد يدلي بدلوه، كل واحد يمارس هوايته. هناك قاعدة واحدة تحكم تلك العملية غير القانونية: طالما ظل الأمر سراً، طالما كان تنفيذه ممكناً. لكن إصرار التربي في هذه الحالة على إتمام الدفن كان مفاجئاً للجميع.

يأتي الحانوتي بالكفن والصابون وإبريق مملوء بالماء، ثم يظهر حوض معدني مخصص للغسل، كل هذا يتم وضعه أمام نعيم، بينما يقف الجميع ليراقب ما سيحدث. ينظر نعيم لمن حوله، وكأنه يقول: أأنتم مجانين؟ فوراً يبدأ المحيطون به بمحاولة إقناعه؛ الغسل لن يستغرق سوى دقائق معدودة، وبعدها ينتهي الأمر وكأنك لم تخلع ملابسك أصلاً. فقد الناس الأمل في إقناع الطرف القوي، وبدأوا في محاولة فرض رأيهم على الطرف الضعيف، يجب أن تسير الأمور، الأمور في مصر لا يمكنها التوقف، يجب أن تسير حتى ولو ظلمنا أحدهم، أو خسرنا مالاً أو بدونا كالبلهاء. يستسلم نعيم أخيراً للضغوط، وتطفو إلى جانبه الذكرى المؤرقة، على يمينه كعادتها دائماً ترتفع متراً واحداً عن سطح الأرض، هذه المرة أحس نعيم أن الذكرى كيان مستقل، يستمتع بما يراه، كيان سعيد بما سوف يحدث لنعيم خلال الدقائق القادمة.

@3abeth

يخلع نعيم ملابسه، يستلقي في حوض الغسل المعدني، يخلع ثلاثة من المحيطين أحذيتهم حتى لا تتسخ، ويبدأون في إراقة الماء عليه، بينما يكتفي هو بتغطية عورته بكفيه. بعد غمر جسده برغوة الصابون، وحك جلده، يقوم نعيم من الحوض عارياً تماماً، يلف نفسه بالكفن، يُظهر فقط أنفه وفمه وعينيه، يبدو الآن وكأنه شبح أو امرأة تلبس ثوباً أبيض. ينظر نعيم حوله، يستنجد بالناس، لا يستطيع أن ينطق بكلمة واحدة، لا ينطق بشيء، تعمده أم لم يتعمده، يشير بيده وكأنه يشرب. فوراً يناوله أحد الواقفين قلة ليشرب منها، لكن طعم الماء كان مراً، كان مليئاً برمل وتراب، يبصق نعيم ما شربه. فوراً، يحمله التربي ويقترب به من الحفرة. لكن نعيم يرفض أن يدخله أحد إلى الحفرة، يشير إلى أنه سيدخل الحفرة بنفسه، سيزحف في النفق بدون مساعدة، أخيراً، وبدون أي مساعدات من التربي، ينزل نعيم إلى الحفرة، يحتك جسده وساعداه وكتفاه بجوانب الحفرة، الجوانب خشنة وتكاد تجرح جسده، لكنه يصر على إكمال المشوار حتى النهاية، يصل بعد تعب إلى قاع الحفرة الرأسية، يثني جسده ويزحف في النفق الأفقي، يتجه ببطء نحو الأكفان المهترئة، هؤلاء أهله، الأب والجد والجدة، أخيراً، يستقر نعيم بين العظام، متوتراً، خائفاً، تصارع عيناه الظلام المحيط، تبحثان عن نور يسير يأتي من الأعلى، لكن كل شيء كان صامتاً وساكناً.

@3abeth

لفافة

منذ ثلاثين عاماً، عندما كان نعيم إنساناً قادراً على فعل كل شيء، بحواس كاملة، بلا عيوب أو نقائص، سار وحده إلى المقابر، حاملاً جوالاً يحوي أدوات حفر وتكسير. كان قد أمر بوضع لفافة في فم رجل ميت، قيل له إن هذا العمل كفيل بتخليصه من خلفة البنات، ثلاثة بنات في ست سنوات من الزواج، أراد نعيم ولداً واحداً، لا أكثر، مل من كثرة البنات، ومل من المثرثرين الذين يزعمون أن خلفة الإناث أفضل من خلفة الذكور. قيل له إن ذلك هو الحل الوحيد، عليه أن يضع "العمل" في فم رجل ميت، ليبطل "العمل" الموضوع في فم ميت آخر. وكان عليه أن يفعل ذلك منفرداً وبلا مساعدة.

مشى نعيم في طريق ضيق وسط المقابر. هذه مقابر الأغنياء، حيث الأسوار مستقيمة كشعاع الضوء، وكل شيء مرسوم طبقاً لنظام هندسي. بعض أحواش هذه المقابر يسكنها أحياء، والبعض الآخر لا يسكنه إلا الأموات، لم يختر نعيم المقبرة، فقط، توقف حينما دعته ساقاه للتوقف، رفع الخرقة المتسخة عن القفل، ثم حطمه، دخل المقبرة

@3abeth

وأعاد القفل المحطم بصعوبة إلى مكانه، غطاه بالخرقة المتسخة، كان يريد أن يعمل بالداخل بلا إزعاج.

في غرفة دفن الرجال، وجد نعيم عدة أكفان، معظمها يحوي عظاماً مفككة. كان نعيم يركل الكفن بقدمه، يختبر ثقل صاحب الكفن، ومدى ليونة جسده، أخيراً وبصدفة لا تتكرر، وجد جثة طازجة. أخذ نعيم يفتح الكفن، كان رباط الكفن فوق رأس الجثة محكماً للغاية، اضطر نعيم في النهاية لقطع جزء من الكفن حتى يُتم العمل. في اللحظة الأخيرة وقبل الكشف عن رأس الجثة، اهتز نعيم مرتعباً، صورة الوجه المجهول كانت مرسومة أمام عينيه قبل أن يراها، تسمر نعيم للحظات، متردداً، هل يكمل العملية أم ينسحب؟ لكنه كان قد قطع شوطاً طويلاً، ولا يمكنه التراجع الآن، التراجع معناه ضياع الوقت والمجهود. مد نعيم يده داخل الكفن، حاول فتح فم الجثة بيد واحدة، لكن فك الرجل كان صلباً للغاية. لمست يد نعيم رباطاً ملتفاً حول رأس الجثة، يثبت الفك السفلي بباقي الرأس، مانعاً إياه من التدلي. بكثير من التوتر أزاح نعيم الرباط القماشي عن الرأس، فتح الفم، ثم وضع اللفافة داخله.

وقف نعيم ملقياً نظرة أخيرة على الكفن بعد أن أعاد ربطه، حتى وإن فتح أحدهم القبر فلن يجد تغيراً يذكر في مكان الأكفان، حرص نعيم على إعادة كل شيء إلى مكانه. لا يعلم متى قد يُفتح القبر مرة أخرى، لا يعلم مدى قوة ذاكرة أهل الموتى داخل القبر.

@3abeth

لكن صوتاً في الخارج أجفل نعيم، صوت فتى مراهق، ميز نعيم فيه خشونة طازجة، وكأنها ظهرت البارحة فقط، صرخ الصوت سائلاً عن الموجود داخل المقبرة، صرخة الغرض منها إخافته، وليس معرفة هويته. تسمر نعيم في مكانه، انتظر أن يدخل الفتى ويكشف سره، أرعبته الفكرة أكثر، ولما سمع الخطوات والصوت يقتربان، " خَطَرَ لهُ أنْ يرقدَ بَينَ الجُثَثَ"، لكن الخطوات ابتعدت بسرعة، والفتى يصرخ طالباً النجدة: يا محفوظ!، يا محفوظ! بصعوبة بالغة استجمع نعيم الباقي من شجاعته، وخرج من غرفة الدفن، ثم خرج من المقبرة، وأخرج من الجوال قفلاً جديداً، أحكم به إغلاق البوابة. انتظر حتى سمع صوت الأقدام، ورأى نوراً يظهر من آخر الطريق الضيق، فمشي في الاتجاه المقابل من الطريق مبتعداً عن المقبرة وعن النور. سار بتؤدة في البداية، ثم انحرف يميناً إلى زقاق أكثر ضيقاً، اجتازه حتى آخره، واصلاً إلى طريق متسع، جرى فيه حتى وصل إلى آخر المقابر، وخرج نحو الأحياء.

عاد نعيم مرتجفاً إلى البيت، كانت عطيات قد انتظرته طوال الليل بفارغ الصبر، وحالما دخل سألته عن العمل، قال إن كل شيء على ما يرام، العمل في مكانه، ولم يشعر به أحد. كان متعباً للغاية، وأحس أن حرارته مرتفعة، طلب منها ماءً ليشرب، ثم استلقى على سريره طالباً من عطيات أن تأتي فوراً، أجلسها على أربع كما أمر، ثم أولجه فيها كالكلاب، بلا شهوة، تشغله صور الكفن المحكم والعمل في يده والقفل الحديدي والنور في آخر الطريق، ويمينه تتذكر ثقل البوابة

@3abeth

وحلة أسنان الميت، والارتجافة التي سيطرت عليها. كانت حرارته تزداد مع كل دقيقة، يغطي العرق جسده، في النهاية، بعد أن كادت روحه تخرج مع منيه، أمرها بالمكوث في نفس الوضع ربع ساعة، كما أمر بالضبط. ثم استلقى على السرير وقد خارت قواه تماماً، طلب منها أن تغطيه؛ لإنه بردان يرتجف.

بعد تسعة أشهر من تلك الليلة، ولدت عطيات ولداً، أسمته وليد. وبعد ثلاثة أيام من نفس الليلة، نطق نعيم متكلماً بلغة غير مفهومة.

@3abeth

عزيزي صلاح،

مرت عليّ سنين كثيرة، أرسل لك تلك الرسائل منذ مدة، عشرين؟ أتممنا عشرين عاماً؟ أم أنها خمسة وعشرون؟ لا أذكر! انتقلنا معاً من عصر الخطابات المشفرة، إلى المكالمات التليفونية المشفرة أيضاً، ثم الفاكس؛ الوسيلة الآمنة والسهلة، والآن الإنترنت وألعابها، لقد سرنا مسافات طويلة يا صلاح. طوال تلك المدة لم أطلب منك طلباً واحداً، لم أطلب أي خدمة شخصية أو وساطة أو ترقية أو حتى علاوة. أيضاً لم أطلب منك معلومة، وحافظت على الاتفاق المنعقد بيننا، فلم أبعث لك إلا برأيي الشخصي الناتج عن مشاهداتي وتجربتي وقراءاتي للناس من حولي. لم أعترض عندما تجاهلت بعض آرائي، بالطبع لا أتوقع أن تتبناها جميعاً، أيضاً لا أتوقع أن تكون كل آرائي مناسبة لكم. لكن اعذرني، هذه المرة سأطلب منك طلبا سخيفاً.

أريد أن أعرف اسم الحمار الذي كتب خطاب الرئيس الماضي. مهما بلغ من قوة، ومهما تولى من مناصب، فهو حمار، ومناصبه تلك التي أثق أنه يفخر بها ما وصل لها إلا بالخطأ، لا أظن أن نظامكم يسمح لأغبياء مثله بتولي مناصب حساسة، وعار على نظامكم إن سمح له بكتابة خطابات الرئيس.

@3abeth

من أخبره بأن الناس تود سماع مبارك وهو يتحدث عن البطيخ؟ يا أخي أنا لم أصدق أذنيَ، البطيخ يا عزيزي مرتبط في ذهن الشعب بالموظف الأصلع المطحون، يعود من عمله حاملاً الجريدة والبطيخة، يعود إلى منزله في حر الصيف والعرق يغطيه، يحمل البطيخة على ذراعه والجريدة تحت إبطه، ينادي على المدام لتضع البطيخة في الثلاجة ريثما يستريح قليلاً من حر الشارع، ثم قبل أن تبرد تماماً، يخرجها من الثلاجة الإيديال ويقطعها بطريقة عشوائية، ويسرق خلال التقطيع قطعاً صغيرة يبتلعها بسرعة. ليلتهم نصفها بعد أن يأكل طعام الغداء. وفي المساء يحدث أصدقاءه الجالسين في المقهى عن البطيخة التي أكلها اليوم بعد الغداء. وقد تكون البطيخة وردية، "قرعة" مثل رأسه، أو مليئة بالماء، أو بلا طعم، مثله تماماً، فيصمت الرجل، فهو أمام امرأته رجل لا يعرف كيف يختار بطيخة حلوة، وبالتالي هو ساذج ولا يعلم خبايا الأمور، وسيصمت حتماً أمام أصدقائه، فلو تكلم عن بطيخته القرعة لأصبح مثاراً لسخريتهم. البطيخة رمز لكل ما هو غامض وعشوائي ومثير للسخرية والضحك.

عزيزي صلاح، اتفقنا على أنه من الضروري ألا يظهر مبارك بالبذلة الصيفية منذ مدة طويلة، والحمد لله، لم نشاهده لابساً إياها منذ اتفاقنا. أخاف أن يعود الرئيس لارتدائها بعد

@3abeth

أن ظهر الكثير من الحمير حوله، يكتبون خطابات عن البطيخ والتفاهات الأخرى.

المصيبة الكبرى يا صلاح-كدت أبكي أثناء إلقاء الخطاب- أن الرئيس كان يخطب بعد أن افتتح مصنعاً جديداً للسجاد. أنحن في حاجة إلى افتتاح مصانع مصرية حكومية أخرى يا صلاح؟ والمصيبة أنه مصنع سجاد!! لماذا يتكلم مبارك عن ثورة يوليو، عن العمال، وعن الماكينة المصرية، لماذا كل هذا الكلام الاشتراكي؟ الناس نسيت هذا العهد، عبد الناصر أقام المصانع ليوفر وظائف للشعب، ولا شيء غير ذلك، لم ينشئها لإنتاج سلعة أو لبناء صناعة، كانوا ينفقون الملايين فقط لكي يذكر كلمة "العمال" وسط خطابه، فقط لكي يسد خانة العمل، لكي يعلن للناس جميعاً أن المصري سيعمل حالما ينهي تعليمه، دولة اشتراكية يا صلاح. أو هكذا أرادوها أن تبدو، اشتراكية.

ثم تطور العالم، وضاعت فرص التصنيع من أيدينا إلى أيدي الآسيويين. أثبت الزمن أننا لا نفهم معنى كلمة صناعة، نحن أمة من السماسرة، من الوسطاء، نتوسط في البيع والشراء والتصنيع وكل ما قد يخطر ببالك، لكننا لن نكون أبداً أمة صناعية، المصريون يفتقرون إلى مهارات الصانع. والأهم من ذلك يا عزيزي، أن أغلب المصريين كفروا بتلك الحقبة، بالستينيات العمالية الاشتراكية، هل

@3abeth

ستذكرونهم بها الآن؟ هل ستفتحون ثانيةً جراح الاشتراكية والنكسة والحروب. عبد الناصر كان عبقرياً لأنه استطاع استثمار جو الثورات والاستقلالات المحيطة به، وطبق كل ذلك على مصر. لكن الحال تغير تماماً هذه الأيام.

ألم نقل إن عهد مبارك هو عهد الاستقرار؟ وأن أي ربط بينه وبين عهود الحركة والانفعال السابقة هو دعاية مضادة؟ صلاح، أريد أن أعرف اسم الحمار كاتب الخطاب.

ثم ما هذا الكلام عن المصانع؟ يا أخي كفاكم مصانع، ارحموا مبارك فهو في سن آبائكم، الرجل ذابت قدميه من كثرة المصانع التي تفتتح كل عام. انشئوا ما تريدون من مصانع، لكن لا تلصقوا صورة الرجل بالمصنع. المصانع المصرية ستنهار لا محالة، العامل المصري علق بطبعه، والمهندس المصري لص بطبعه، والمدير المصري يلعب مع السكرتيرة بطبعه، لهذا سينهار المصنع بلا جدال. سيطالب العمال بأجور أكثر، وسيعملون أقل، سيبتكر المهندسون طرقاً لولبية للسرقة، وبالطبع سيحافظون على صمتهم إذا ثار العمال، لسان حالهم دائما: "نحن المطيعون، أبقوا علينا لو سمحتم". وسيعتبر المديرون أن ثورة العمال علامة على وجوب تغيير السكرتيرة. أكرر: نحن أمة من الوسطاء.

@3abeth

أسألك الآن ماذا سيحدث إذا قام العمال بإضراب، وانهار المصنع، وظهرت السرقة والقبلات الملتهبة؟ هل سيربط الناس بين المصنع والرئيس؟ بالطبع، سيتذكر الناس الرئيس ممسكاً بالبيجامة الكستور وهو يضحك، سيتذكرونه وهو يتساءل عن طبيعة عمل فلان أو علان من عمال المصنع، سيتذكرونه وهو يسأل السيدة ذات البطن المتفخة عن حملها، سيتذكرون صورته وهو يفتتح مصنعاً كل يوم في مصر، طيب يا أخي، فليتحدث عن البطيخ، أو فليفتتح المصنع، أو فليتحدث عن العمال، أما أن يفتتح المصنع ويتحدث عن البطيخ وعن العمال في خطبة الافتتاح فهذا كثير يا صلاح. إذا فقد الرئيس مبارك جزءاً من شعبيته فأنتم المسؤولون.

يجب الآن تغيير الخطة، يجب التركيز على نقاط أخرى، الرئيس مبارك لم يعد المواطن البسيط الذي صعد من وسط الشعب لقيادة الأمة، كنا نصدر تلك الصورة سابقاً، لكن الأمر تغير اليوم، الاستفتاء على ولاية رئاسية خامسة اقترب كثيراً، ومن يعلم، فربما تطورت الأمور وقد تقام انتخابات تعددية لاختيار الرئيس. ولأول مرة خلال تاريخهم الطويل قد يختار المصريون رئيساً ليحكمهم. حان وقت تغيير صورة الرئيس.

@3abeth

الرئيس مبارك هو الوحيد القادر على قيادة السفينة المصرية، هو الربان الماهر الوحيد، هو يفعل ذلك لأنه الوحيد صاحب الخبرة التي تسمح له بذلك، الخبرة التي تجعله يحافظ على مكانه كقائد. بالطبع تفهم ما أعنيه، يجب تصدير تلك الصورة الجديدة، صورة الخبير. يجب أن يتساءل الجميع عن الشخص الصالح للرئاسة بدلاً من مبارك، يجب أيضاً أن تكون إجابة السؤال: لا أحد. لا إنسان على الإطلاق يستطيع أن يحل محل مبارك.

@3abeth

ثغــرة

يصرخ نعيم بكلمات غير مفهومة، ويطلب من التربي مساعدته، كانت صرخاته خفيضة مرهقة، فما مر به اليوم يهد الجبال، وربما أصابه برد من الغسل في الهواء الطلق. يساعده التربي على الخروج من الحفرة، اتسخ الكفن وبدا التأثر على وجه نعيم، تجمد وجهه واتسعت عيناه. يحزن التربي كثيراً لمرآه على هذه الحالة، ويحاول إرضاءه ومواساته، يحاول أن يفهمه أن دفنه كان واجباً، حياً أم ميتاً. وأنه طالما دُفن فقد انتهى الأمر، ولو اضطر لأن يشهد في المحكمة أنه قام بدفن نعيم، فسيشهد، هذا واجبه. يجلس نعيم على الأرض ورأسه بين يديه، بينما يبدأ التربي في ردم الحفرة مرة أخرى، يساعده اثنان من الواقفين، يسرعون في حركتهم وكأنهم سينالون ثواباً على سرعتهم. وحالما ينتهون من الردم، يرشون ماءً كثيراً على التراب المردوم، ثم يدكون التراب بأقدامهم. ويتقافزون عليه بغرض إجادة الدك، وكأن الميت سيمد يده خارج التراب ويخرج منتصباً من القبر. كل هذا ونعيم يجلس على الأرض يشاهدهم وهم يردمون حفرته. كان صوت بكاء زوجته قد ارتفع كثيراً، لم يحاول النظر إليها لشعوره بالقرف، لكن

@3abeth

صوتها كان يهزه، نبضات قلبه تزداد وظهره ينحني تحت حمل وهمي. بل هو حمل زائف، يعرف تماماً أن بكاءها زائف، أنها سعيدة الآن وأن كل الأمور ستصبح متاحة عما قريب. يود نعيم الآن لو أنه كان وحيداً، ليصرخ بلغته غير آبه للبشر حوله، ليتكلم مع نفسه بلا خوف من المحيطين به. أخيراً، يساعده اثنان من الواقفين على النهوض، ثم يخلعان الكفن عنه، ويناولانه ملابسه، فيبدأ بارتدائها وجسده يرتجف. يساور القلق نعيماً للحظة واحدة، هل أصابه برد فعلاً؟ نعيم لم يصب بحمى أو ببرد منذ ثلاثين عاماً، صار منيعاً تماماً ضد أمراض الصدر والأنف وغيرها، وبينما الذكرى الطافية تستمر في الطفو بجانب نعيم، أخذت ذكرى المقبرة تلح عليه، يوم أن دخل المقبرة ووضع اللفافة في فم الميت، يوم أن أراد أن يتم عمله بحرفية، فحشرها إلى الداخل، مد يده كلها داخل الفم، حتى أوصل اللفافة إلى حلق الرجل، لو كان الرجل حياً لاختنق. يفكر نعيم الآن أن شيئاً انتقل من الجثة إلى جسده الحي، لا يدرك نعيم ماهية ما انتقل، لكنه أصابه بمرض، ووقاه من أمراض أخرى. ظل الشيء في جسده لثلاثين عاماً، وربما عاد الشيء اليوم لجثة من الجثث في الأسفل، ربما شُفي نعيم من مرضه، وزالت مناعته المكتسبة. يريد نعيم أن يختبر نفسه، أن يحادث أقرب الناس إليه، ينظر حوله باحثاً عن أي شخص ودود، لكنه يدرك أن الجميع يسيرون خارجين إلى بيوت الأحياء، انتهى الأمر.

يجلس نعيم في الصالة، لم يخاطبه الأولاد، كذلك عطيات؛ تصمت تماماً، لا كلام في رأس أي واحد منهم. يجلس نعيم على الكنبة

@3abeth

لابسـاً بنطلون البيجاما المخطط، والبلوفر الصوفي الذي يُدفئ صدره، يتذكر لسعات الماء البارد، وملمس أرضية حوض الغسيل المعدني الميت.

تأتي عطيات وتجلس بجانبه، تنظر في الأرض وتكلمه بصوت خفيض، لا يسمع نعيم شيئاً من كلامها، فيميل بجذعه مقرباً أذنه من رأسها، فتجفل هي مبتعدة عنه. تعلم عطيات تماماً أن صوتها الخفيض لن يكون مسموعاً، تعلم أنه ربما سيميل برأسه ناحيتها، وهي بالطبع قادرة على ضربه أو قذفه بأي شيء عقاباً له على فعله المفاجئ، لكن الوضع الغريب أجفلها، الرجل ميت وجالس بجانبها الآن، هذا الوضع يربكها منذ أن عاد الجميع من المقابر، وهي تحاول السيطرة على انفعالاتها بصعوبة بالغة، هي الآن على وشك الانفجار، توشك على طرده مرة أخرى خارج البيت، لكنها تهدأ، تكظم غيظها، ترفع صوتها لتعلمه بأن وليداً سيذهب غداً لشركة التأمين، لبدء إجراءات صرف قيمة البوليصة.

كلاسيكية الخطة جعلت عطيات تشك في نجاحها دائماً؛ فلان يؤمّن على حياته لصالح زوجته، ثم تقتله زوجته، يكتشف محقق شركة التأمين الجريمة ويتمكن من إثبات التهمة على الزوجة، ويتم إيقاف صرف الوثيقة، تدخل الزوجة السجن، وزوجها يستريح في قبره بعد قلق وعذاب. شاهدت عطيات على الأقل ثلاثة أفلام تحكي نفس القصة، مع تبديل الرجل بالمرأة أو تبديل الزوجة بالابن. لكن عطيات لم تقتل نعيماً، الرجل مات موتة ربنا، ودُفن ولم يعترض أحد على

@3abeth

وفاته، أو يشتبه أحد في وجود جروح أو كسور في جسده، الكل رآوه وهو يلبس كفنه وينزل إلى التراب، لا يمكن لأي مخلوق أن يتهمها بقتله، وبعد استخراج شهادة الوفاة لن يتمكن أي مخلوق من التشكيك في وفاته الطبيعية، ثم لا يصبح هناك مفر من صرف قيمة التأمين. تتذكر فجأة أن على وليد الذهاب لمكتب الصحة لاستخراج شهادة الوفاة، سيذهب إذن غداً، وربما سيؤجل الذهاب لشركة التأمين ليوم آخر.

تقوم عطيات من جانبه وهي تبكي، مات زوجها اليوم صباحاً ولا بد من البكاء، حتى وإن كان البكاء مفتعلاً. عندما خرج الطبيب من الشقة، صرخت عطيات صراخ الملتاعة على وفاة زوجها، لكنها كانت ترقص في نفس الوقت، عطيات كانت قد أقسمت، سترقص عند سماع خبر نعيم، وأضافت تلك اللفتة الذكية عندما صرخت منادية لهوها، ظلت تكررها وهي ترعش عضلات البطن والردفين، أنهت الرقصة في خمسة عشر ثانية، ودعت نعيم بوصلة رقص، كما رحبت به يوم زواجهما بوصلة رقص.

سترتدي عطيات السواد غداً. تمتلك ملابس سوداء لزوم العزاء. لكنها تحضر نفسها لارتداء السواد من اليوم وحتى النهاية، ستبتاع الكثير من السواد قريباً، هي الآن أرملة.

يقوم نعيم من مكانه ويتجه نحو "النيش"، يفتح درج النيش ويبحث عن أوراقه، يبدأ في التقاطها من الدرج ورصها سويا. البطاقة الشخصية، شهادة ميلاد حديثة مطبوعة بطابعة إلكترونية، والأخرى

@3abeth

الورقية التي أصدرها يوم ميلاده، إيصالات دفع كهرباء عديدة، يجمعها نعيم منذ أن سكن في هذه الشقة. كل ورقة حكومية تستخرج في مصر يلزمها إيصال كهرباء، كل حساب بنكي أو اشتراك نقابي أو عضوية جمعية أو نادٍ رياضي، كل هذه يلزمها "وصل نور" كما يسميه الجميع.

يبحث نعيم عن مظروف ليحفظ فيه الأوراق للأيام القادمة، يبحث أيضاً عن أوراق بيضاء ليملأها وليد بطلبات الموظفين المعتادة. يبحث عن تمغات لكنه لا يجدها، سيسأل وليد عن التمغات في كل مكتب حكومي، عاملة النظافة لديها كل ما يريد من تمغات، هي تشتريها من مكتب البريد وتعيد بيعها للناس مقابل "نفحة" بسيطة، يبحث عن قلم أزرق فرنساوي، سيشتري غداً صباحاً صحف: الأخباروالأهرام والجمهورية، ومجلات: حريتي والإذاعة والتلفزيون ونصف الدنيا، ستسهل عليه الجرائد والمجلات الأمر، بدأ الموظفون في مصر كلها يطلبون مجلات بعينها منذ فترة قريبة. يخرجون ورقة صغيرة من أحد الأدراج، يكتبون أسماء مجلاتهم المفضلة، يكتبون أسماء الجرائد، أسعار كل المجلات والجرائد المطلوبة لن تتعدى الجنيهات العشرة. يقربون الورقة في حياء من المواطن الواقف أمامهم، يطلبون منه شراء المطبوعات. المصري الأصيل يفهم تماماً حياء الموظف الطالب لرشوة كهذه، هذه ليست رشوة من الأصل، هذه وسائل لقتل وقت الفراغ الطويل، للتعرف على العالم وأخباره، تستخدم كمفرش لمائدة الطعام، تستخدم كورق للف الأشياء المهمة، لإعطائها طابع مخالف للأهمية،

@3abeth

لتنشيف البطاطس المقلية، لاحظ نعيم، ولاحظ كثيرون غيره، أن " حريتي" هي أكثر المجلات طلباً في وزارة التعليم.

يجمع نعيم كل الأوراق في المظروف، يتعامل مع الأوراق وكأنه هو من سيذهب إلى السجل المدني، وليس وليد ابنه، وكلما تذكر وليد، كلما زاد اهتمامه بمراجعة الأوزاق والتأكد من حسن تنظيمها، لا يعرف نعيم بالضبط الأوراق المطلوبة، لكن خبرته تؤهله للتنبؤ بها. قرر نعيم أن يجمع كل الأوراق المتعلقة به، تلك المطلوبة لاصدار شهادة الوفاة، والأخرى المطلوبة لصرف قيمة بوليصة التأمين، لذلك تضخم المظروف كثيراً، يريد نعيم أن ينهي كل شيء، أن يفرغ من كل الأوراق.

• يدرك نعيم تماماً أن عليه عدم الظهور في أي مكان حكومي بعد اليوم، لا يمكن بالطبع حبسه في البيت، لكن يجب أن لا يراه أي عامل في وزراة الداخلية، كل الضباط والأمناء والعساكر، هؤلاء هم الوحيدون الذين قد يكشفون ستره، قد يكتشفون اللعبة التي يلعبها، قد يبدأون في البحث عن اسمه في دفاترهم وأجهزتهم، ليكتشفوا أن نعيماً مات، وهو واقف الآن أمام أحدهم.

يفكر نعيم فيما يحدث، هل تسرّع حين اتخذ هذا القرار؟ يعود ليتذكر أيامه الأخيرة مع عطيات، ينفض فكرة التسرع تماماً من رأسه ويطمئن إلى صحة فعله هذا، يرتاح نعيم تماماً الآن، يبتسم في خبث، نعيم أول من اكتشف الثغرة، عرف كيف يمكن استخراج تصريح

@3abeth

الدفن، وغداً سيستخرج وليد شهادة الوفاة، كمستند أخير يثبت وفاته. يثبت نعيم لمن حوله أنه لا يزال يفكر، بل إنه أذكى منهم جميعاً، الكل عارضوه، عطيات والأولاد، لكن الأمر تم في النهاية، حسناً، لم يتم بعد، لكن الجزء الصعب انتهى، والباقي لن يكون صعباً بأية حال.

لا يعتقد أنه زور أوراقاً حكومية، هذه توقيعات وأختام وأوراق حكومية حقيقية، بينما التزوير هو أن تصنع ختماً وتختم به ورقة حكومية، بدون علم موظف حكومي، أو أن تقلد توقيع موظف حكومي على ورقة حكومية بدون علمه، وهو لم يفعل ذلك أبداً. يسوغ لنفسه صحة ما فعل، هو يعتقد أن الحكومة لا شأن لها بمن مات ومن عاش، التعداد السكاني بدعة لا لزوم لها. كل ما فعله نعيم أنه اختار أن يموت، أراد أن يقنع الدولة بنقل اسمه من سجل إلى سجل، وبشكل أكثر دقة، نقل اسمه من قاعدة بيانات إلى قاعدة بيانات. فمسألة السجلات والأوراق أصبحت بائدة الآن. كان نعيم مقتنعاً بأنه أول من يفعل ذلك في مصر، أول من يقنع الحكومة بصحة معلومة كاذبة، أول من يدعي وفاة أو ولادة أو نسب، أول من عرف أن الثغرة موجودة.

@3abeth

دعـــارة

في النصف الأول من القرن التاسع عشر، وأثناء حكم محمد علي باشا، انتشرت الدعارة في مصر انتشاراً كبيراً.

بحث الكثير من المستشرقين والمؤرخين عن أسبابٍ ومسوغاتٍ لانتشار الدعارة في تلك الحقبة، مما يوحي بأن هذا الانتشار حديث، متزامن مع حكم محمد علي، ولم تكن الدعارة منتشرة على نطاق واسع قبل ذلك العهد. كانت التبريرات كثيرة في ذلك الحين، ربما أشهر تلك المسوغات، أن "شبق المصريات" هو سبب انتشار الدعارة بشكل أساسي، وهو اعتقاد مبني على فرضية لا أصل لها، وضعها كلوت بك الطبيب الفرنسي الذي استقدمه محمد علي إلى مصر. بعض المؤرخين اللاحقين ظن أن الوازع الأخلاقي قد زال، راح إلى الأبد، وأن الملهيات والموبقات قد زادت في المجتمع المصري، لم يفسر أي من هؤلاء أسباب زوال الوازع الأخلاقي في ذلك التوقيت بالذات. يُظهر مسوغ كلوت بجلاء نظرة الغربي الاستعلائية، التي ترى الشرقيين أصحاب مستوى عقلي أدنى من الغربيين، وبالتالي، أصحاب شهوات غير قابلة للكبح. بينما يستشهد المؤيدون للمسوغ الآخر بشهادات رحالة

@3abeth

ومؤرخين غربيين زاروا مصر في تلك الحقبة- فلوبير مثلاً- نقلوا من خلالها عالماً مليئاً بالعوالم والراقصات وبائعات الهوى. أورد فلوبير حديثاً طويلاً عن العالمة "كوتشوك هانم" وتحتها، والتي كانت مثالاً صارخاً للفجور والتفسخ الأخلاقي. لكن الكثيرين شككوا في تلك الصورة التي أوردها فلوبير في كتاباته، وقالوا إنها مبنية على خيال رجل غربي أتى ليزور بلدان الشرق. بالإضافة إلى كل ما سبق، يبدو هذا المسوغ- زوال الوازع الأخلاقي- مسوغاً نظرياً، بعيداً تماما عن الروح العلمية.

في حين يرى بعض المؤرخين المعاصرين أن تأسيس محمد علي لجيش ضخم كان السبب غير المباشر لانتشار الدعارة في ذلك الوقت، مستشهدين بوثائق عديدة، تؤكد انتشار الأمراض الجنسية - الزهري بالتحديد - بين جنود الجيش. تؤكد إحدى تلك الوثائق أن الانتشار غير المسبوق للزهري حدث بسبب انتشار الدعارة بين جنود الجيش. هذه الوثيقة عبارة عن خطاب موجه من كلوت بك إلى ديوان المدارس، الخطاب احتوى على توبيخ شديد اللهجة للديوان، نظراً لانتشار "المرض السري" بين طلبة المدرسة. ولما رد الديوان مغالطاً البك، مؤكداً أن الأرقام التي اطلع عليها البك خاطئة، رد البك برسالة أخرى يوضح فيها أن سبب انتشار المرض هو "أفعال الأمور غير اللايقة" في إشارة صريحة ومباشرة للدعارة. وفي تلك الرسالة أيضاً يوصي كلوت بك بعلاج العاهرات من الأمراض الجنسية، لكنه - مع علمه بكيفية انتقال المرض - لم يوص بمنع الدعارة، كان يرى أن استمرار العاهرات في

@3abeth

عملهن سيحمي "النسا الأحرار" ـ كما وصفهن ـ من الفتنة، وهي الكلمة التي كانت تطلق على السيدات الشريفات في ذلك الوقت، في إشارة واضحة لاعتقاده بهوس المصريات بالجنس، حتى وإن كن من "النسا الأحرار".

خلال نفس الحقبة الزمنية، النصف الأول من القرن التاسع عشر، صدرت أوامر أخرى عديدة، مصاحبة لهذا الانتشار غير المسبوق للدعارة. صدرت أوامر بتسجيل المواليد والوفيات، وأوامر أخرى بتشريح جثث القتلى، وتطعيم الأطفال ضد الجدري، المرض الذي كان يحصد نسبة لا بأس بها من الأطفال. كل هذا أتى في إطار "تحديث مصر" تلك الخطة الضخمة التي رأى محمد علي أنها ضرورية لنقل مصر إلى مصاف الدول المتحضرة.

في يوم من أيام هذا "التطور" الإداري، في القرن التاسع عشر، حدثت مشاجرة بين شيخ الحارة، المكلف بتسجيل المواليد، وبين أم تحمل وليدها البالغ من العمر يوماً واحداً. صراخ الطفل لم يكد يُسمع من فرط علو صوتيّ الشيخ والأم. كانا يتشاجران ويقذفان بعضهما بعضاً بالسباب، وتطور الأمر أخيراً إلى التماسك بالأيدي. شيخ الحارة كان غاضباً من العاهرة التي لا تعرف أباً للوليد، وبالتالي سيكون من المتعذر عليه تسجل اسم الأب، ومن ثم يستحيل عليه تسجيل الطفل من الأصل، حتى يتفادى عقابا قادما لا محالة. والأم من ناحيتها لا تريد نشر الفضيحة المتمثلة في حملها سفاحاً، وفكرة تسجيل الطفل كارثية بالنسبة لها، ناهيك عن الشجار العلني الذي سيصمها بالعار إلى الأبد.

@3abeth

احترفت الأم الدعارة لفترة طويلة، لكنها كانت تحافظ على ما تفعله سراً لا يعلمه أحد، تدور باحثة عن الزبائن في أماكن بعيدة عن سكنها ومعارفها. ثم جاء الحمل ليكون أول خطوة في كشف عملها السري، وجاء إصرار شيخ الحارة على التسجيل قاتلاً لكل آمالها في الاحتفاظ بالأمر سراً.

تجمع الناس حول شيخ الحارة والمرأة، كلّ يسأل عما يحدث، كلّ يسأل عن سبب الشجار، وتناقلت الأفواه الأحداث كلها، الأمر الذي أدى لانتشار فضيحة الأم بين الجميع، ظل الناس يتابعون المعركة بأعين راضية تماماً، المصريون يفرحون كثيراً حينما يتم فضح عاهرة على الملأ، المصريون بطبعهم يفرحون لأي ادعاء فضائحي قد يسمعون به، حتى ولو كانوا يعلمون أنه ادعاء كاذب، الفضيحة تسعدهم دائماً. من ناحية أخرى، فرح الناس لأن شيخ الحارة يتشاجر مع عاهرة، تدريجياً ستسقط الهيبة التي يحملها بأمر من الدولة، ويتحول إلى رجل شوارع سوقي، يشتبك في شجار مع امرأة رخيصة، مما يؤكد صورته المرسومة في عقلهم الباطن، رجل رخيص كالعاهرة تماماً.

لما تطور الأمر إلى درجة ضرب العاهرة، وإسقاطها على الأرض، ودعسها بالأقدام، تقدم أحدهم من شيخ الحارة ممسكاً بذراعه مسكة الواثق، حملت المسكة آثاراً غابرة من قوة كانت تُخيف من يقف في وجه صاحبها. تلك القوة التي لا زالت تحرك الجسد، راحت ساق الرجل بعدما جرحت وأهمل علاجها، تعفن الجرح ثم

@3abeth

بترت الساق للحفاظ على باقي الجسد. أطلق الناس على الرجل بعدها : أبو رجل.

ادعى أبو رجل أنه والد الطفل، صُدم الناس وشيخ الحارة من قول أبي رجل، تحداه الشيخ، قال راغباً في إثارة الخوف في نفسه، إنه سوف يسجل اسمه في الدفتر كأبٍ للمولود. أشار أبو رجل برأسه علامة الاستهانة بالشيخ ودفتره، وتوجه الجميع، الشيخ والأم والوليد وأبو رجل إلى بيت الشيخ، حيث يستقر الدفتر.

كان أبو رجل فتوة الحي منذ سنوات عدة، لكن ساقه الضائعة أسقطته من على العرش، وحل محله فتوة آخر، تم هذا بهدوء تام، اعترف أبو رجل بعجزه، وسلم النبوت للفتوة الجديد في جلسة باسمة، تحدث الجميع فيها بأصوات منخفضة هادئة، كان هذا أول انتقال سلمي للسلطة في تاريخ مصر، وربما كان الأخير. بعدها حافظ أبو رجل على هدوئه وصمته، حتى جاء يوم العاهرة.

خرج الجميع من بيت شيخ الحارة، كان الناس ينتظرون في الخارج، كل واحد منهم توقع حدثاً مختلفاً، البعض توقع أن يترك أبو رجل الجميع ويرحل قاصداً بيته بدون أن يتم ما وعد به، البعض الآخر توقع أن ينسب أبو رجل الوليد لنفسه فعلاً، متحدياً شيخ الحارة. لكنهم جميعاً صاحوا فرحين بأبي رجل والعاهرة حينما خرجا معاً من البيت، كانت العاهرة تبتسم في سعادة، ها هو أبو الولد يمشي إلى جانبها، تناست ـ كما فعل الناس ـ لدقائق قليلة كون أبي رجل قد

@3abeth

كذب لتخليصها من الضرب والفضيحة، تناست أيضاً أنها ستظل عاهرة وأن اعتراف أبي رجل بالأبوة لن يغير تلك الحقيقة، تناست أن الناس يعرفون كل تلك الحقائق. لكنها اعتمدت على حقيقة أخرى تعرفها جيداً، أن الناس سيتواطؤون معها لأنها تحدت السلطة.

خلال الأعوام الثلاثين الباقية من حياته، سيعترف أبو رجل بأبوة أكثر من عشرين ألف طفل، سيقف أمام شيوخ الحارات ليسجل اسمه، ناسباً الأولاد والبنات لنفسه، سيقسم على المصحف وبالله والكعبة على ذلك، سيفعل كل هذا بابتسامة واسعة، عرف أبو رجل مكان الثغرة أخيراً، لن يكذبه أحد حينما يعترف بأبوته لطفل سفاح، لن يدعي أحدهم أنه لم يجامع تلك المرأة قبل تسعة أشهر، وهذا المولود مني. بعد أن اعتاد شيوخ الحارات على وجوده، سيتعاملون معه كما يتعامل الجميع مع السقا أو اللبان أو غيرهما: رجل يمر على البيت كل يوم أو يومين، نحادثه لدقائق قليلة، ثم يرحل لنتابع أعمالنا بقية اليوم. بينما سينظر الناس له على أنه بطل قومي، ليس لأنه يساهم في حل مشكلة أولاد الحرام فقط، بل لنفس السبب القديم، لأنه تحدى السلطة.

كان الناس قد نسوا اسم أبي رجل الأصلي بعد أن ضاعت ساقه. واستبدلوه بكنية "أبورجل". ثم بعد شهور من يوم العاهرة، سيطلق الناس عليه كنيته التي سيظل يحملها حتى وفاته: أبو سبعة، في إشارة واضحة لتقبلهم للعدد الضخم من الأطفال الذين ادعى — وسيدعي - نسبتهم إليه، وسينسون مع الوقت كنيته الأولى "أبو رجل"

@3abeth

أيضاً. خلال السنوات الثلاثين التالية ليوم العاهرة. ستحوي سجلات المواليد اسمين تكررا أكثر من عشرين ألف مرة، أبو رجل، وأبو سبعة.

سينسى أبو رجل أسماء أولاده وبناته المسجلين في الدفاتر، سيضطر إلى تكرار أسماء مثل محمد وأحمد وعبد الله، سيطلق على أولاده أسماءً مركبة، مثل محمد أحمد وأحمد أبو النجا، ومحمد أبو الوفا، سيخطو أبو رجل أول خطوة في طريق تعميم اسم "محمد" بين المصريين، سيؤسس أيضاً لفكرة إبدال الاسم بكنية، سيكون أول من سجل كنيته على أنها اسم، ومن تلك اللحظة، ستستبدل الأسماء بالكُنى بين المصريين، ستتحول الكنية إلى اسم على يد أبي رجل.

@3abeth

عزيزي صلاح،

أنا في غاية الأسف.

حركة التنقلات الأخيرة كانت غير فعالة بالمرة. بل إنها كانت خاطئة وكارثية، رؤساء التحرير السابقون كانوا محبوبين بالفعل من قبل الناس، كانوا كتاباً مشهورين بالفعل. والتوازن الحاصل بسبب مقالاتهم وأسلوبهم الخاص في إدارة الصحف كان ضرورياً، أنتم تعلمون هذا ولا حاجه لتذكيركم به. لكني لا أفهم السبب في إحلال رؤساء التحرير الجدد محلهم.

هناك فرق شاسع في أسلوب الكتابة واختيار المواضيع والطرق المتبعة لتحسين الصورة، هناك فوارق هائلة في مدى الجدية والصدق، السابقون لم يكن يعنيهم تحسين الصورة بقدر ما كان يعنيهم مجرد عرضها من خلال الصحف على الناس، كانوا يحسنون الصورة عن طريق عرضها بحياد على الناس، وهو شيء لم يحدث في مصر منذ الستينيات. الحاليون لا أرى هماً لهم إلا الجري وراء تحسين الصورة، حتى أن كل من يقرأ سيفهم حتماً أنهم ملمعاتية، ورنيشجية، وما إلى ذلك من أوصاف تعرفونها جيداً. هل هؤلاء من اختيار الرئيس؟ أنا متأكد أن شخصاً آخراً رشح الأسماء له،

@3abeth

وآخرون أيدوا هذا الترشيح، لا أظن أن الرئيس قد يخطئ مثل هذا الخطأ. الورنيش الزائد يا سيدي يجذب التراب.

أرأيت الرجل الذي يمسح الحذاء؟ هو يضع قليلاً من الصبغة، جزء صغير فقط من الجرام، جزء صغير جداً، ثم يفرك به الحذاء ليكسبه لوناً. ثم يضع مسحه رقيقة للغاية من الورنيش، مسحه لطيفه جداً قد لا تراها، ثم يوزعها بالتساوي على سطح الحذاء، ثم بعد ذلك؟ أيضرب صندوقه معلناً نهاية العمل؟ لا بالطبع، يبدأ ماسح الأحذية المحترف في مسح الورنيش! لا يمسحه بالكامل، بل يزيل معظمه، ليبقي طبقة رقيقة جداً، لا يمكن قياس سمكها من فرط رقتها، تُبقي الحذاء لامعاً ملوناً جديداً. أرجو أن تذكر السادة الجدد بماسحي الأحذية يا صلاح، فهذا يصب في مصالح الجميع، وبالأخص في مصلحة صاحب الحذاء.

لا حل إلا بتقييد انفعالهم الواضح في المقالات والتحقيقات، ليس الغرض من وجود السيد رئيس التحرير على الكرسي مسح الجوخ والنفاق، بل إدارة الجريدة الضخمة، والتي لا يتسع الوقت لإدارتها في المعتاد، فما بالك - بالإضافة للإدارة- يبذل كل هذا المجهود التلميعي الورنيشي؟

@3abeth

أعلم تماماً أن تغيير الرؤساء الآن أمر مستحيل، لكن لابد من تقييدهم قليلاً، لابد من نقاش يدور بينهم وبين مبارك، جدل يحمل كل معاني الاحترام، لكنه لا يقع في فخ العبودية، بدلاً من الهراء المنافق المكتوب كل أسبوع أو أسبوعين. أرجو أن تصل فكرتي إليكم بدون سوء فهم.

@3abeth

مـــرض

لم يتكلم نعيم بلغة جديدة، لم تنتقل إليه لغة أخرى من المقبرة، أو من الميت صاحب اللفافة. كان يتكلم العربية، العامية المصرية بالتحديد، لكنه كان يدمر اللغة، وكان يفعل مجبراً. في الحقيقة، كان نعيم مرتعباً مما يخرج من فمه، من تلك الكلمات الغريبة التي أخذ ينطق بها.

في اليوم الرابع من إصابته بالحمى، طلب نعيم من عطيات "بيصة"، كان راقداً في سريره، مسترخياً، يحضر نفسه لفترة نقاهة طويلة، إجازة من الخشب والمنشار والفأرة. تطلعت عطيات إليه بتعجب، حمى نعيم وإن كانت ملموسة، لكنها لم تثر قلقها، كان نائماً معظم الوقت، لم يهذ، لم يحرك ذراعيه في الهواء متشاجراً مع خيالاته. حمدت عطيات الله على هذه الحمى الهادئة، كانت قد رأت ما هو أفظع من ذلك، عطيات في ذلك الوقت كانت نضرة تماماً، تخاف الحمى والهذيان والموت. لما طلب نعيم منها "البيصة"، احتارت.

أدرك نعيم خطأه بعد دقيقة واحدة، أدرك أنه قال "بيصة" بدلاً من "بيضة" انزعج فوراً، ظن أن كثرة النوم أثرت سلباً على لسانه،

@3abeth

أصبح كسولاً وأهمل نقطة الضاد، هل أسقطها لأنه لا يرى للضاد أهمية؟ فكر كثيراً في سبب ذلك الخطأ، حاول أن يجد سبباً لغوياً، نطق الكلمة مرة أخرى، مطالباً عطيات هذه المرة بإحضار "بيعة مسلوقة" عطيات فهمت المطلوب، مر الموضوع بسلام، وذهبت لتحضر "البيعة المسلوقة". بينما كان نعيم يرتجف من الرعب.

تعاظمت أخطاء نعيم مع الوقت، أصبح يقول "رتل" بدلاً من "لتر"، "لادار" بدلاً من "رادار"، أصبح يبدل أماكن وترتيب الأحرف في الكلمات، كان الأمر مضحكاً في البداية، ظن المحيطون به أنه يمزح، ظنوا أنه يسخر من طريقة نطقهم للكلام، لكنه في اليوم العاشر من الحمى، قال "فبراير" بدلاً من أن يقول "باب"، كان هذا تدهوراً كبيراً، ساعتها قرر نعيم أن يعرض نفسه على الطبيب.

قرر أن يذهب وحيداً، عطيات ما كانت لتسمح له بذلك، قد تقنعه عطيات بالذهاب للشيخ، للدجال، لأي واحد عوضاً عن الطبيب. لكنه أيقن أن شيئاً احتل روحه يوم المقبرة، لم يكن نعيم يعلم أن الأمراض لن تصيبه بعد الآن، الحمى والبرد والأنفلونزا وآلام الصدر والأسنان، كل ذلك انتهى إلى الأبد، سيلاحظ غياب كل هذا مع مرور الأيام، لكن ما كان يعنيه الآن، الشيء الذي انتقل إليه عندما نزل إلى المقبرة، كان واثقاً من أن الطبيب سيشفيه من المرض الذي أصابه بسبب توصية الشيخ. آمن بالعلم في لحظة تافهة من حياته، وما كان العلم ليشفيه الآن.

@3abeth

رفف نعيم في مدخل العمارة الضخم، كاد الممر العريض أن يكون شارعاً، لكنه كان مرصوفاً ببلاطات رخامية بيضاء، بدلاً من الأسفلت الأسود. على الجانبين تدلت عشرات اللافتات تحمل أسماء أطباء، هذه العمارة الضخمة، ذات الممر في أسفلها، يقسمها إلى عمارتين، تحوي عيادات أطباء فقط. كل طبيب كان حريصاً على وضع لافتة تحمل اسمه وتخصصه في مكان لا يحجب لافتات الآخرين، اتقاء لقطع الأرزاق، ولاحتمال حدوث أمر مماثل مع لافتته. أيضاً كان كل واحد يتفنن في التميز عن الباقين، فاللافتة المميزة دليل على طبيب مميز، لهذا، اختار كل طبيب أن يتميز في اللون وحجم ونوعية الخط عمن حوله، فانتهت اللافتات إلى أن أصبحت لوحة تجريدية ضخمة، مكونة من عشرات اللوحات الصغيرة.

سأل نعيم معارفه عن طبيب جيد، اتفق الأقربون على اسم واحد، كلما سأل واحداً قال له: لن تجد من في مثل علمه، أو: هو أفضل طبيب مخ وأعصاب في مصر، أو: هناك أمراض تحمل اسمه هو من اكتشفها، أو: هناك عمليات جراحية سميت باسمه هو أول من قام بها. قالوا: انتقل من درجة الطبيب إلى درجة العالم. قالوا: انتقل من درجة العالم إلى درجة العلاّمة. الله يخرب بيوتكم، ناس زياطة. كتب أحدهم اسم الطبيب وعنوانه في ورقة، في البداية قرأ نعيم الاسم وهو يكاد يرقص فرحاً، كلما قرأ كلمة الآن فرح وانتبه، لأن نعيماً ظن في البداية أنه سينسى القراءة بعدما نسي الكلام. أخذ نعيم يقرأ اللافتات في سعادة: أحمد عبد اللطيف، أحمد رمضان، ثم تنحت اللافتات ذات

@3abeth

الأسماء المعتادة، لتطغى عليها تلك ذات الأسماء الغريبة، أحموس خليل، ورمسيس خليل. الاثنان اللذان يؤكدان أن أبا الأنبياء أتى في زمن سابق لزمن الفراعنة. أحمد أحامد، ظن نعيم في البداية أن الألف حرف نداء، اعتاد نعيم على مناداة الناس بإضافة الألف إلى أسمائهم، فكر قليلاً ثم أدرك أن كلمة "أحامد" هي جمع كلمة "أحمد"، كان نعيم يقترب من اليقين مع كل لافتة تحمل اسماً غريباً، اعتقد نعيم أن المرض أثر فعلاً على قدرته على القراءة، لكنه تيقن من ذلك حينما قرأ اللافتة: طبوزاده، استشاري أطفال. فرغت رئتا نعيم من الهواء تماماً، لم يظن نعيم أن تلك الأحرف يمكن أن تجتمع في أي لغة، خاصة العربية، " ط ب و ز ا د ه" لم يجد سبباً لتسمية إنسان بهذا الاسم، كان على يقين أن الاسم التصق طوال تاريخه بأشخاص فشلوا في حياتهم بسببه. نعيم الآن لا يستطيع القراءة، بدأت اللعنة ـ أو المرض ـ تأخذ مجراها، وسوف يظل هائماً إلى الأبد بين الكلمات. ازداد رعب نعيم، نهار أسود، دارت عيناه وسط اللافتات بحثاً عن طبيبه، تمنى نعيم أن ينتهي الأمر بسرعة، اعتقد أنه يبحث في أسماء كل أطباء مصر، نقابة الأطباء قررت وضع لافته تحمل اسم كل عضو فيها في هذا المكان، الرحمة يا أطباء. أين صاحب اليد السحرية؟ ثم هناك في زاوية بعيدة، وجد لوحة منيرة بيضاوية، تحمل اسم: "هيسم يحي، استشاري مخ وأعصاب". حالما قرأ نعيم اسم الطبيب، وتأكد من تطابق الاسم الواضح المطبوع على اللافتة، مع الآخر المكتوب برداءة على الورقة الصغيرة. وتأكد أن هيسم يحي بسينه هو الطبيب المطلوب، وهو

@3abeth

صاحب اليد السحرية التي ستشفيه، وهو الذي كتب اسمه مخالفاً كل الأعراف اللغوية والاجتماعية، كتبه كما ينطقه الناس، شعر أن مرضه يتفاقم.

في العيادة اتسعت عينا الدكتور هيسم حينما تحدث نعيم، كانت حالة نعيم قد تطورت مع الوقت، خلال الأيام السابقة أخذ يستبدل عدداً أكبر من الأحرف، بدأ باستبدال حرف واحد في الكلمة، ثم زاد إلى حرفين، ثم بدأ في تغير ترتيب أحرف الكلمة بالكامل، وانتهى إلى أن استبدل كلمات بكلمات أخرى. تخلى الطبيب عن جمود الأطباء الشهير، وبدت السعادة على وجهه، تلك الفرحة التي تطل على الوجوه عند اكتشاف كل جديد. أجرى كشفاً روتينياً على نعيم، جس نبضه، استمع إلى خفقات قلبه، تأكد من صحة لسانه وانتظام أسنانه، تأكد من أن أعضاء النطق سليمة، حادثه قليلاً، فرد نعيم مبدلاً الكلمات كعادته، كان الدكتور هيسم قد أدرك جزئياً حالة نعيم، وأخفى انفعاله هذه المرة.

طلب الطبيب من نعيم أن يدخل إلى الغرفة المجاورة، أسماها: غرفة الفحص العميق، فتح الدكتور هيسم باب الغرفة بنفسه، وأشار لنعيم بالدخول، ثم دخل وأغلق الباب. في الحجرة، وجد نعيم مليوناً من الأشياء.

ظل نعيم يدور بعينيه في محتويات الحجرة، على طاولة ضخمة في المنتصف ارتصت آلاف الأشياء، على أرفف معدنية معلقة بالحوائط

@3abeth

ارتصت آلاف أخر. لا يمكن بأية حال إدراج كل محتويات الحجرة في سجل، أو حتى وصفها، كانت من الكثرة بحيث تجعل الناظر لها يحتار في كيفية تصنيفها، يتساءل لم جمع الطبيب كل هذا؟ أصلاً ما القيمة المشتركة بين كل تلك الأشياء؟ الكثيرون يجمعون الطوابع، أغطية المشروبات الغازية، العملات القديمة، حتى مجانين الشوارع يحتفظون بأشياء متفرقة في صناديقهم، لكن كل الجامعين يحافظون على صفة واحدة مشتركة بين أشيائهم.

أمسك الدكتور هيسم يحيي بعصا رفيعة، بدأ في الإشارة للأشياء، واحداً تلو الآخر، وضع طرف العصا على الشيء، طرق طرقتين خفيفتين، ثم رفع طرف العصا مرة أخرى، ونظر إلى نعيم متحفزاً. طلب من نعيم أن يسمي كل شيء باسمه، سيختبره الاختبار الأخير، سيتأكد إذا ما كان نعيم يعرف الأسماء أم لا.

@3abeth

حبسة

كارل فيرنكه طبيب ألماني، ولد عام ١٨٤٨ وتخصص في دراسات وظائف المخ. حاول من خلال دراساته أن يربط بين بعض الأمراض العصبية والأضرار التي تصيب المخ. لم يكن هذا الاعتقاد مؤكداً في ذلك الزمان.

خلال عمله، لاحظ وجود صعوبة في التحدث لدى أحد مرضاه، كان المريض قد أصيب بجلطة في وقت سابق، ولما أفاق منها أصبح غير قادر على الكلام، لا يفهم ما يسمعه، كما فقد القدرة على القراءة. كان المريض قادراً على النطق، لكنه كان ينطق كلمات غير مفهومة، بدأ كارل فيرنكه في التمييز بين القدرة على النطق والقدرة على الكلام. بعد وفاة المريض وتشريح جثته، اكتشف كارل فيرنكه أن تلفاً قد أصاب قسماً من الجزء الخلفي للنصف الأيسر من المخ. استنتج فيرنكه أن تلك المنطقة هي المسؤولة عن اللغة في المخ البشري. سمى فيرنكه الأعراض ب "حبسة الكلام"، وبعد ذلك سميت الأعراض بـ "حبسة فيرنكه"، وسميت تلك المنطقة من المخ بـ "منطقة فيرنكه".

نشر كارل فيرنكه كتاباً في عام ١٨٧٤، تحت عنوان "أعراض حبسات الكلام". سجل فيه ملاحظاته وأفكاره واستنتاجاته، المتعلقة بالربط

@3abeth

بين أنواع حبسات الكلام المختلفة، وبين الأضرار الواقعة في أجزاء معين من المخ.

توفي كارل فيرنكه عام ١٩٠٥، متأثراً بإصابات حدثت له أثناء قيادة دراجة. كان من أوائل الأطباء الذين استطاعوا بطريقة علميا الربط بين إصابات المخ وبين إعاقات عديدة لدى الإنسان.

يعمل الأطباء حالياً على محاولة تخفيف أعراض حبسة فيرنكه، من خلال محاولات لتنشيط أجزاء أخرى للمخ، لتقوم بالعمل بدلاً من منطقة فيرنكه المتضررة. تواجه هذه الفكرة الكثير من الصعوبات، ولأن المخ البشري لا يزال صندوقاً مغلقاً، فإن الحل الوحيد للتعامل مع المصابين بحبسة فيرنكه هو التجارب. يقترح بعض الباحثين إعادة تعليم المصابين اللغة، تلك اللغة التي فقدوها بإصابة منطقة فيرنكه، لكن صعوبات عديدة واجهتهم، بدءاً من الإحباط والذعر اللذين يتملكان المصابين بحبسة فيرنكه، وحتى كبر سن غالبيتهم، الأمر الذي يجعل إعادة تعليمهم لغة جديدة أمراً مستحيلاً.

أعراض حبسة فيرنكة متنوعة وتختلف من شخص لآخر، باختلاف مدى تضرر خلايا المخ في منطقة فيرنكة. لكن الأعراض لا تخرج عن الآتي: عدم القدرة على الكلام بشكل طبيعي، عدم فهم الكلام المسموع، فقدان القدرة على القراءة. قد يستطيع المصاب نطق الكلمات بشكل سليم، لكنه سيكوّن جملاً غير صحيحة وغير مفهومة، وذلك باستبدال الكلمات بكلمات أخرى، في تلك الحالة بالذات، لوحظ أن المصاب يبدل الأسماء بأسماء مثلها، والأفعال بأفعال أيضاً. مما يوحي بفهم ناقص للغة. وقد يستبدل الكلمات المعروفة بأخرى غير معروفة على

@3abeth

الإطلاق، فيخترع كلمات جديدة غير موجودة في لغته الأم من الأصل. وقد يبدل المصاب ترتيب أحرف كلمة واحدة في الجملة، وقد يبدل أحرف كلمات الجملة كلها. أحد أكثر الأعراض تأثيراً، عدم فهم المصاب للحديث الذي يسمعه، وعدم استيعابه للكلمات المكتوبة التي يقرؤها، هذان العرضان يؤثران بصورة بالغة السوء على نفسية المصاب، التحول المفاجئ الفوري من شخص يستطيع التفاهم بلباقة مع من حوله، إلى شخص فقد القدرة على فهم اللغة والتعامل معها، يصيب المريض بالفزع، فالإصابة ليست ضرراً في إحدى الحاستين، النطق والسمع، بل ضرر غير متوقع وغير معروف. حبسة فرينكه غير معروفة للعامة، نظراً لندرة المصابين بها.

تظهر أعراض حبسة فيرنكه بالتدريج، يختلط الكلام على المصاب بالأعراض شيئاً فشيئاً، حتى يصل إلى المرحلة النهائية للأعراض، الأعراض الكاملة. قد تستغرق الفترة الانتقالية هذه أياماً أو أسابيع، وقد لا تستغرق سوى ساعات قليلة، أو الوقت التي يظل المريض غائباً عن الوعي، بعد تعرضه للجلطة.

إصابة منطقة فيرنكه في المخ بجلطة كفيل بظهور أعراض فيرنكه، وقد تكون الحمى سبباً في تضرر منطقة فيرنكه وظهور الأعراض على المصاب. في جميع الأحوال، ليس هناك فترة زمنية محددة تكتمل فيها أعراض الحبسة.

حتى الآن، لا يوجد علاج مضمون النجاح للمصابين بحبسة فيرنكه.

@3abeth

عزيزي صلاح،

لا مفر من الإلهاء.

هل تظن أن المصريين يفهمون ما يحدث حولهم؟ ، هل تظن أنهم يهتمون أصلاً بما يحدث حولهم؟ بالطبع لا ، الناس يريدون حدثاً يعلقون عليه، فقط لا غير، ثم يصبح تعليق البعض حدثاً آخراً، ليظهر آخرون ليعلقوا على التعليق الأول، وهكذا، إلى ما لا نهاية. وينتهي الأمر عند مجرد التعليق على الحدث، ثم التعليق على التعليق، وكأن التعليق الأول أصبح حدثاً! أما ما وراء الحدث من أسباب ومشاكل وحلول، فلا يعني المصريين في شيء، بل يعنيكم أنتم، يعني الحاكم والحكومة.

في بعض الأحيان، يجب علينا أن نقوم بصنع الحدث، لا يجب أن نترك الناس لمشاهدة ما يحدث "فعلاً" من خلال التلفزيون والصحف، بل يجب أن نوجه اهتمامهم للحدث الذي نصنعه.

اسأل أي شخص عن ذكرياته عن التلفزيون المصري في الثمانينات، سيقول لك الجملة الآتية "حسن عابدين...سر شويبس". هذه كانت ضربة معلم فعلاً، أن تتحول دقيقة الإعلان عن مشروب غازي لحديث بين الناس، لحدث يستلزم تعليقاً من كل صغير وكبير في مصر، هذا هو النجاح

@3abeth

بعينه، ثم يعلق الناس مرة أخرى، فيقولون إن كل مصري عرف حسن عابدين من خلال الإعلان. وتعليق آخر: حسن عابدين يتحدث الإنجليزية، وتعليق ثالث: على الرغم من صلعته، حسن عابدين يجذب الجميلات. في النهاية أصبح حسن عابدين بطلاً قومياً بسبب مجموعة إعلاناته عن شويبس. هذا اعتراف من المواطنين أنفسهم بنجاح الحدث الأصلي. هذا ما أحدثك عنه، خلق حدث تافه، ثم انتظار تعليق الناس عليه، ثم انتظار تعليق الآخرين على التعليقات الأولى، الأمر سيتشعب بعد ذلك، لدرجة أن الناس ستنسى الحدث الأصلي، إعلان شويبس. الآن أعد سؤالهم عن الإعلان المفضل لديهم من إعلانات شويبس، لن يتذكر أحدهم أي إعلان، نسي الناس الحدث الذي اختلقناه، فما بالك بالحدث الحقيقي الذي نود إلهاءهم عنه!

لكن إعلان شويبس لم يكن مدبراً، هذه في الحقيقة كانت ضربة حظ ولم تكن مقصودة على الإطلاق.

المطلوب اليوم يا صلاح أن تبدأ في خطة لا نهائية، غايتها التضليل والإلهاء، طوال الوقت، بلا أي ضوابط، بلا أي حدود. عن ماذا نلهي الناس؟ عن أي شيء، إلى ماذا نحول انتباههم؟ إلى أي شيء آخر. أسمعك تنتقد الطلب غير المتوازن، فكر معي يا صلاح، وجود ملهيات طوال الوقت سيسهل مهمتكم كثيراً، من يعلم، إذا أصابتنا مصيبة، أو

@3abeth

وجدنا أنفسنا وسط أحد الأزمات، ربما يساعدنا الإلهاء في الخروج منها بسلام.

في يناير عام ٧٧ عرض التلفزيون المصري مسرحية مدرسة المشاغبين، لكي يلهي الناس عن فوضى الحرامية في الشوارع وقتها. كانت المسرحية جاهزة للعرض، على الرف، موضوعة لحين الحاجة إليها، هل تعرف مقدار الجدل الذي دار حول تلك المسرحية حين عرضها على المسرح؟ اتهامات وخلافات وشجار كثير دار بين الكتاب والنقاد في ذلك الوقت، وكان الاتهام الموجه للمسرحية والمؤلف: المسرحية تشجع الطلبة على البلطجة والتجرؤ على المعلمين، المسرحية تفسد أخلاق الطلبة، وكلام كثير مشابه. عرض المسرحية في التلفزيون كان إشباعاً لرغبة الناس في مشاهدتها، وبالطبع إلهاءً عما يحدث في الشارع.

لكن مدرسة المشاغبين لم تكن خطة محكمة يا صلاح، أدرك الناس وهم جالسون أمام شاشات التلفزيون أن الحكومة تحاول إلهاءهم عما يحدث في الشارع. لم أسمع عن خطة إلهاء ضخمة، لم أعرف أن أحدهم كتب المسرحية وعرضها على المسرح ثم سجلها بغرض عرضها في وقت الضرورة في التلفزيون المصري. إدراك الناس لمحاولة الإلهاء هو قمة الفشل، رأس جبل الفشل الضخم، الذي يبدو واضحاً مثيراً للسخرية، وقتها تغاضيتم - هل كنتم موجودين وقتها؟

@3abeth

ـ عن وضع خطة إلهاء شاملة، تبدأ بعد "نصر أكتوبر" وتستمر إلى الأبد. من يعلم، ربما لو كنتم ـ إن كنتم موجودين أصلاً ـ وضعتم ونفذتم خطة كهذه، لما اغتيل السادات من الأصل.

دعني أشرح لك بعض النقاط، وخلال الرسائل الآتية، سأشرح لك المزيد، سأرسل لك رسالة كل شهر، سأتابع التطورات في الإعلام والصحافة، إذا وجدتكم قد طبقتم نصائحي فسأمدكم بالمزيد، إذا أخطأتم فسأوجهكم نحو الصواب، تذكر يا صلاح، يجب أن يكون التغيير بطيئاً حتى لا يشعر به الناس، يجب أن تلهي الناس عن إلهائهم. تذكر أن قمة الفشل تكمن في إدراك الناس لخطة إلهائهم.

بالتدريج، ومن خلال الاهتمام بأخبار النجوم، يجب أن يتحول اهتمام الناس من الشأن الحكومي والعام إلى الشأن الترفيهي، أخبار الممثلين والمغنين ولاعبي الكرة يجب أن توليها اهتماماً خاصاً. المجلات الأسبوعية المتخصصة وسيلة ممتازة للإلهاء، مجلات خاصة بالفن والكرة، اهتموا بأمثالها كثيراً.

اهتموا بمباريات كرة القدم، بصفقات اللاعبين، بصراعات الأندية الرياضية وانتخاباتها. اهتموا بالبرامج التلفزيونية الخاصة بالكرة، بفعاليات الدوري الممتاز وكأس

@3abeth

مصر، بمباراة الأهلي والزمالك. مباراة الأهلي والزمالك بالنسبة لي أكثر أهمية من صورة الرئيس يا صلاح. أؤكد لك، أن لا أحد سيتذكر صورة الرئيس أثناء المباراة إطلاقاً، لكنهم سيظلون في انتظار المباراة قبل موعدها بعدة أيام، كل ما يشغلهم تشكيل الفريقين، والتخطيط للذهاب إلى الاستاد، أو متابعة المباراة في التلفزيون، مباراة الأهلي والزمالك حدث أهم من العمل وكسب الرزق يا صلاح. وبعد المباراة ستشتعل البرامج التلفزيونية وصفحات الرياضة في الصحف ووسائل المواصلات العامة بجدال ونقاش حول المباراة، والأكثر إمتاعاً، أن كل تلك النقاشات لن يكون لها أي معنى، أو هدف، أو مكاسب، لن تغير شيئاً، نتيجة المباراة ستظل كما هي، ترتيب الفرق في الدوري سيتغير طبقاً للقوانين، مع ذلك سيستمر الناس في التعامل بجدية بالغة مع المباراة، والدوري وكأس مصر. مباراة الأهلي والزمالك ستضمن لكم خمسة أو ستة أيام من العته الجماعي.

لكني أود أن تكون كل مباراة في الدوري بنفس تلك الأهمية، أود أن تُخلوا وقتاً إضافياً لبرامج تلفزيونية ذات محتوى كروي بالكامل، ساعة أو ساعتان للكلام عن الدوري. المواطن يضيّع من يومه ساعة ونصف لمتابعة المباراة، أود أن يضيع ساعتين لمشاهدة التنبؤات قبل المباراة، وساعتين أخريين بعدها لمشاهدة تحليل المباراة والتعليق على أحداثها. وبالطبع، يوم أو

@3abeth

يومان قبل المباراة، ويومان آخران بعدها. ثم ستتكرر نفس العملية في المباراة القادمة، وهكذا، عدة مباريات في اليوم الواحد، لينتهي تماماً أي اهتمام آخر بغير الكرة، ربما سنفتح جمجمة المصري لنشاهد كرة بدلاً من مخه في أحد الأيام.

وحين تحدث مشكلة، حين يتسبب عضو في الحكومة في كارثة بسبب نزقه أو تصرفه الأهوج، أو أقواله الكارثية. حينما نجد أن المصيبة قادمة لا محالة، حين نصاب بالهلع لأن الكارثة على وشك الحدوث. سنسرب خبراً صغيراً في الصحف، عن اللاعب الذي ألقي القبض عليه مع إحدى فتيات الهوى، عن اللاعب الشاذ جنسياً، عن المدرب الذي يعشق الفتيان، نحن صنعنا نجوم الكرة، ونحن من سندمرهم لكي نلفت أنظار الناس بعيداً عنا. سنحطم بأيدينا الأصنام التافهة التي بنيناها.

وبعد كل هذا التبجيل والمديح والأوسمة والمكافآت التي سنمنحها لهم، بعد تلك الصورة المثالية التي سنساهم في رسمها، ستكون فضائح اللاعبين "المثاليين" أهم كثيراً من فضائح الحكومة والوزراء. الناس يبحثون عن بقعة في ثوب النجوم المثاليين الأبيض، يود الجميع أن يكون نجماً مثالياً مثل نجم الكرة المحتفى به دائماً، وإذا لم يستطع ذلك، سيود حتماً أن يصبح نجم الكرة شخصاً عادياً خاطئاً مثله، مذنباً مثله.

@3abeth

وتذكر دائماً يا صلاح كيف تم تحطيم حسام أبو الفتوح، الفضيحة الجنسية يا عزيزي أكثر الفضائح إثارة.

بمناسبة أبو الفتوح أود أن أهنئكم، هنيئاً لكم جنودكم السريين، مروجي الشائعات؛ الجالسين على الأرصفة وفي المقاهي وعلى مكاتب الموظفين في الوزارات والهيئات وربات البيوت والمخبرين وضباط وأمناء الشرطة وجنود الحراسة وكمسارية المواصلات والباعة الجائلين وبائعي الصحف وقاطعي تذاكر السينما وحراس العمارات والكناسين وعمال الصرف الصحي وفلاحي المحافظة وعمال المشاتل وقاتلي الكلاب ومطعّمي الأطفال ضد الأمراض والتمرجية في المستشفيات الحكومية والأطباء المنقادين والأطباء الراغبين في المناصب والفتيات الراغبات في الزواج والأخريات الشبقات وشمامي الكلة وباعة المخدرات الصغار والمدمنين وشراميط الشوارع وشراميط الفنادق.

هؤلاء هم الجذور المختفية تحت الأرض، تثبت الشجرة وتمدها بالغذاء، قلة من الناس فقط يعرفون أنها موجودة وتعمل باستمرار، لكن الأغبياء لا يدركون أهميتها.

@3abeth

أزمــة

نزل نعيم من عيادة الطبيب ومشى هائماً في الشارع. كان قد وصل إلى أقصى درجات اليأس في تلك الساعات. عندما كان في العيادة، وبعد أن أجرى اختبارات طويلة، وسأله الطبيب أسئلة كثيرة، سأله عن تعب أو إرهاق ألم به مؤخراً، أو آلام في الصدر والكتف، وسأله في النهاية عن الحمى، أشار نعيم برأسه مؤكداً إصابته بحمى. دكتور هيسم أكد أن الحمى سبب مرضه، قال إنه من الوارد أن يقوم بعمل أشعة على المخ، لكنها ستكون مكلفة ومرهقة، ونتيجتها محسومة سلفاً. هذه الأعراض لا تظهر إلا حينما تصاب منطقة معينة في المخ، سمى الدكتور المنطقة بـ: منطقة فيرنكه، وسمى الحالة المرضية: حبسة فيرنكه.

ثم صارحه دكتور هيسم بماهية مرضه، أخبره بأن مرضه لا شفاء منه، لا أدوية يمكن أن تساعده، ولا حتى جراحة يمكن أن تشفيه؛ قال إن جزءاً من المخ قد تضرر، وخلايا المخ لا تتجدد كما يحدث مع باقي خلايا الجسم.

@3abeth

أوصى الدكتور هيـسم نعيم بالتعايش مع المرض، أخبره أن قدراته العقلية لن تتأثر مطلقاً، ذاكرته لن تتأثر أيضاً، قدرته على حل المشاكل وترتيب الأعمال والحركة لن تتأثر. فقط ما سيتأثر نطقه وطريقة كلامه وألفاظه، والجزء الذي راح من حاسة السمع، وهو ما يمكن التعايش معه بلا مشاكل. أخبره الطبيب أن الأصم الأبكم يتعايش مع حالته، ويتعلم لغة الإشارة، وحالة نعيم أفضل منه، فهو يستطيع الكلام، وإن لم يستطع التعبير عما يريد، وهو يستطيع سماع من حوله جزئياً وهو ما سيحل مشاكل كثيرة قد تواجهه. كان هيـسم قد بذل كل مجهودٍ ممكنٍ ليحاول طمأنة نعيم. لكن نعيماً بدا في تلك الدقائق وكأنه مقبل على الموت، كان يتعرف بالتدريج على حالة ستلازمه طوال حياته، مرض مزمن لن يبرأ منه.

مشى نعيم يوم المرض حتى وصل إلى النيل، كان يفكر في حياته المقبلة، هل سيعيش سوياً كما أخبره الطبيب، أم أن المرض سيؤثر على حياته، كيف سيتعامل مع المهندسين في الموقع، مع زملائه في الورشة، نعيم أصبح "كومانده" أخيراً، درجة تسبق المعلم مباشرة، ودرجته تلك توجب عليه أن يتحدث مع الجميع، مهندسين وعمال وصنايعية، لا سبيل للتفاهم إلا بالكلام والثرثرة. والأهم من كل ذلك، ماذا عن العائلة؟

ألقى نعيم باللائمة على عطيات لأول مرة في حياته، الحمى التي أصابته هي السبب في الحبـة، والحمى أصابته لأنه نزل القبر وحشى فم الميت باللفافة، كل هذا لم يكن ليحدث لولا الجري وراء

@3abeth

الولد. كل هذا لأن عطيات لم تأته بولد حتى اليوم. تأكد نعيم أن زوجته لن تحمل ولداً في بطنها هذه المرة، هذا إن حملت من الأصل. كان نعيم قد ترك خرافات المشايخ والأحجبة والأعمال السفلية نهائياً، وتمسك بالعلم في ذلك اليوم، كان دكتور هيسم قد شغل تفكيره.

لم يعط الطبيب أي أمل في الشفاء لنعيم، لكن نعيم قرر أن يزور الطبيب كل شهر، أو كل أسبوعين، ربما يجد علاجاً جديداً للمرض، نعيم تمسك بهذا الأمل الضئيل الذي خلقه للتو، تمسك به لأنه لا يملك غيره، على الرغم من علمه بأنه أمل كاذب مختلق، كان نعيم في ذلك الوقت شاباً محباً للحياة، يختلف تماماً عما سيصبح عليه بعد سنوات قليلة، لم يكن يفكر أبداً في ادعاء الموت، ستشغله هذه الفكرة بعد ذلك بسنوات طويلة.

في ذلك اليوم، منذ سنوات عدة، عندما عرف نعيم علته وفهم أعراض مرضه، جلس على شاطئ النيل بعدما مشى طويلاً، من باب اللوق حيث عيادة دكتور هيسم يحيي، وحتى النيل. كان قلبه يرتعد، كان متأكداً أن أيامه القادمة لن تحمل الكثير من الخير.

@3abeth

عزيزي صلاح،

حتى اليوم لا أتفهم السبب الداعي للإنفاق على العلاج الحكومي، ها هي مشكلة جديدة ظهرت بسبب إنفاق الدولة على علاج الناس، الصحافة تستكثر الملايين المنفقة على علاج أسر الوزراء ونواب مجلس الشعب، لكنها لم تستكثر المليارات المنفقة سنوياً على علاج أكثرية الشعب، نواب المجلس يسهلون للناس الحصول على قرارات علاج على نفقة الدولة، لكن لا يحق لعائلاتهم الحصول على قرارات مشابهة.
لم كل هذا يا صلاح؟

أسس محمد علي جيشاً من المصريين، ولكي يظل الجيش قوياً قادراً على خوض المعارك، قرر أن يؤسس جيشاً آخر، جيشاً طبياً، بالطبع عانى ما لم يعانه حاكم مصري من قبل، لكنه في النهاية نجح في تأسيس جيش من الأطباء والحكيمات والممرضات والمسعفين، كل هذا بتخطيط من كلوت بك. لم فعل محمد علي كل هذا؟ للحفاظ على الجيش الحقيقي، على الجنود والضباط، للتأكد من أن المصري سينمو صحيح الجسد، سيتم تطعيمه ضد الجدري والأوبئة المنتشرة في ذلك الوقت، سيتم علاجه من كل مرض قد يصيبه، سينمو ليصبح جندياً وضابطاً قوياً، وإن لم يصبح كذلك، فعليه أن يصبح طبيباً أو مهندساً أو محاسباً أو

@3abeth

عاملاً، أو حتى فلاحاً يحرث الأرض، كل هؤلاء كان هدفهم خدمة كيان واحد، الجيش.

لم يفعل ذلك من أجل "تحسين مستوى الصحة العام" أو "من أجل الحق البشري في الحياة بسعادة" أو "لكي لا نرى دمعة في أعينهم" أو بسبب "الإعلان العالمي لحقوق الإنسان" وكل هذا الهراء الذي يلوكه التافهون دائماً، أنا أفهم أن تعلنوا ذلك كمخدر للناس، كوسيلة لتثبيط الهمم والخداع. لكن من المستحيل أن يصل الأمر إلى درجة تنفيذه فعلاً، هذا فشل رهيب يا صلاح.

أتعرف؟ في البداية، ظن الفلاحون المصريون أن العلامة التي تتركها جرعة المصل ضد الجدري، ماهي إلا علامة تضعها السلطة على أجساد المحصنين ضد المرض، كتمييز لهم عن الآخرين، وذلك بهدف تجنيدهم بعد ذلك، طيب، كان كل هذا صحيحاً، برافو يا أذكياء، الأذكياء بعد ذلك قرروا أن يُخفوا أولادهم هرباً من التطعيم! المصريون قطيع بهائم، كما قلت لك من قبل، وكما سأقولها دائماً: المصريون حيوانات داجنة، مستأنسة، يجب عليك إطعامهم بقدر ما ينتجون، لا أكثر حتى لا يثوروا، ولا أقل حتى لا يمرضوا. وبعد توقفهم عن الإنتاج، يجب وبكل حزم التخلص منهم.

@3abeth

ما كل هذه التبرعات المنصرفة على علاج السرطان؟ والجهود المبذولة للسيطرة على التهاب الكبد الوبائي، والتوعية والكلام المنتشر مؤخراً عن الإيدز؟ أتقوم وزارة الصحة فعلا بصرف أدوية لمرضى الإيدز؟ أتقوم الوزارة بعلاج المدمنين والمخولات الآن يا صلاح؟ سأسمع قريباً يا صلاح أنكم تزرعون أكباداً طازجة لمرضى الكبد، لا ينقصنا إلا هذا!

في عهد محمد علي كانت الرعاية الصحية موجهة للجنود والضباط بشكل أساسي، أما في ظل هذه الزيادة الرهيبة في عدد البهائم التي تحكمونها، أصبح من الواجب الإقلال من كل هذه الأموال المنفقة على العلاج. على الأقل، لنتمكن من إطعام الأغلبية ذات الصحة الجيدة. اتركوا التطور ليقوم بدوره، وإذا لم يقم التطور بدوره، فعلينا أن "ندرون" المصريين بطريقتنا الخاصة.

للأسف يا صلاح، هذه هي الطريقة الوحيدة لإنشاء دولة صحية مثالية، لترشيد الإنفاق على علاج أفراد معدومي الموهبة، وغير مضموني الولاء.

العلاج - كما هو الحال بالنسبة لحق الانتخاب - يجب أن يقسم إلى طبقات، طبقاً لسلطة وذكاء ونفوذ وعلم المريض، وربما بمقدار حبه وخدمته للبلاد. لا يمكن بالطبع علاج زبال مصاب بالسرطان، لكن يمكن أن نعالج طبيباً مصابا

@3abeth

بالسرطان... بعد إعادة تفكير، أظن أن الأطباء غير مهمين اليوم، لنوجه عنايتنا للأهم، يجب بالطبع معالجة وزير مصاب بالسرطان، مستشار رئيس مصاب يحتاج إلى كبد جديد، لا تحدثني عن مرضى الإيدز، لا وجود للشواذ أو المدمنين في الحكومة يا صلاح.

أتمنى أن يصاب كل من تعدى الخمسين بالزهايمر، متعة حقيقية يا صلاح، المرض بلا علاج فعّال حتى الآن، والمريض يثير أسى وحزن المحيطين به، لأنه ينساهم تماماً، ينسى الأحداث والشخصيات، ينسى التاريخ يا صلاح، وكأنك مسحت ذاكرته تماماً. تخيل يا صلاح مصر خالية من المعارضين تماماً، سيظلون موجودين بالطبع، لكنهم سيكونون بدون ذاكرة، ما إن يبلغ الواحد منهم الخمسين حتى ينسى كل تاريخه المعارض، لن يستطيع نقل ذكريات "النضال" إلى الأجيال التالية، سيتخبط الشباب تائهين وسط المصابين بالزهايمر، لن يبقى للشباب إلا نحن، كتاب التاريخ، نحن المنتصرون، القادرون على تدوين الأحداث من وجهة نظرنا، لن يكون هناك كعكة حجرية، أو انتفاضة ٧٧، أو حتى كلمات مثل "خيانة" و"بيع القضية" والكلمات التي يلوكها الفاشلون دائماً.

هناك نمط ثابت للزيادة السكانية؛ في البداية، يكون معدل المواليد مقارب لمعدل الوفيات، بينما معدل الأعمار لا

@3abeth

يتجاوز الأربعين عاماً. ثم مع مرور الوقت، وتضافر عوامل الاستقرار وانعدام الحروب والإدارة الجيدة للبلاد وتحكم الرأسمالية الوطنية في الاقتصاد، يحدث الانفجار السكاني.

ستزداد معدلات المواليد بصورة غير مسبوقة، يسميها البعض "معدلات الخصوبة"، ستنجب الأنثى أربعة أطفال أو أكثر، وفي نفس الوقت، ستقل الوفيات كثيراً، سيزيد معدل الأعمار ليصل إلى سبعين عاماً. تم خلال عهد السادات - بشكل منهجي- تخويف الناس من فكرة الانفجار هذه، مع أنها حتمية ولا مفر من المرور بها.

ثم تأتي مرحلة الاستقرار، هي تالية لمرحلة الانفجار، لكن ليس هناك طول معين لمرحلة الانفجار هذه. قد تدوم فترة الانفجار السكاني لقرن كامل، لكنها ستنتهي لا محالة.

في مصر، مرحلة الانفجار مستمرة منذ سنوات طويلة، وستظل مستمرة مع استمرار معدل الخصوبة المرتفع، المصريات ينجبن الآن أكثر من خمسة أو ستة أطفال في المتوسط. وهو رقم مرتفع للغاية، إذا علمنا أن معدل الخصوبة في الدول المستقرة لا يتجاوز ١.٢ طفل لكل أنثى. مما ينبئ باستمرار مرحلة الانفجار لمدة غير معلومة، لن أقول أنها ستدوم للأبد، هذا أمر مستحيل، لكنها ستدوم لمدة طويلة جداً.

@3abeth

ما الحل؟ ربما كان الحل الصيني المتمثل في تقييد الإنجاب - طفل واحد لكل أسرة - حلاً مثالياً. أدى هذا الحل إلى استقرار الصين من الناحية السكانية خلال ثلاث عقود فقط. الآن الصين -بالإضافة إلى بضعة دول أخرى فقط - دخلت مرحلة الاستقرار السكاني.

هناك أيضاً التجربة الهندية، المتمثلة في التعقيم، في البداية، تم تعقيم الإناث من خلال ربط قناة فالوب، ثم تم تعقيم الرجال من خلال ربط القناة المنوية، كان تعقيم الذكور أرخص وأسرع بكثير من تعقيم الإناث. لذلك انتهجت بعض الحكومات في الهند هذه الطريقة كأسلوب لإنهاء مرحلة الانفجار المستمرة في الهند منذ عقود طويلة. لكن - ولأن الهند موبوءة بالديمقراطية - اعترض الكثيرون على هذا الحل، مسلحين بالدعاوى الفاشلة، حقوق الإنسان وما شابه، تلك التي يتسلح بها الفاشلون دائماً.

وفي مصر؟ الحلان غير مناسبين بالمرة، الرجولة في مصر مرتبطة تماماً بالإنجاب، هي في الأصل مرتبطة بالقضيب، بالعضو الذكري المنتصب، والذي يؤدي في النهاية – طبعاً - إلى الإنجاب. تخيل مدى جهل هذا الشعب، الذي يربط القدرة الجنسية بالخصوبة! هل يمكن تعقيم ذكور شعب كهذا؟ بالتأكيد لا، هذه مواجهة أنتم في غنى عنها، لابد أن هناك حلولاً أخرى.

@3abeth

أما عن تقييد المواليد، فهناك عشرات العوائق، المصريون يكثرون من الإنجاب لأسباب كثيرة، المباهاة بالولد، تعضيد العائلة بالذكور، استثمار الأولاد في العمل والانتفاع بربحهم إذا ما شبّوا واشتغلوا، وهناك السبب الأناني الشهير: لرعاية الأب والأم عند عجزهما. تطبيق فكرة تقييد الإنجاب شبه مستحيل يا صلاح. ولابد من وجود حلول أخرى.

لكن يمكن أن يتم التحرك بشكل سريّ. ربما يكون هذا الحديث غير ذي صلة بما أرسله لك عادة، أنا أرسل لك هذه الخطابات لكي نعمل على إحكام القبضة على المصريين، من خلال التفكير والتدبير والأفعال المسترة غير المباشرة. أما الفعل المباشر المعلن فهو مهمة الوزارات. أنا أثير هذا الموضوع لأن الوزارات لا يمكنها أن تقوم به، هذا عمل سري، ولا يمكن لأي جهة أو هيئة القيام به.

هنا تظهر فكرة التعقيم الكيميائي. بشكل سري تماماً، من خلال ماء الحنفيات، أو من خلال تطعيمات الأمراض والأوبئة، من خلال الطعام، سيتم تعقيم الشعب بشكل منهجي، كل فترة معينة سيتم تثبيط خصوبة الإناث، وبالتالي خفض معدل الخصوبة المصري العام. التعقيم الكيميائي سيكون مؤقتاً فقط، سيعود المواطن "خصباً" كما كان بعد عدة أشهر فقط. يمكن أيضاً أنه نوجه اهتمامنا للرجال فقط، للحيوانات المنوية، يمكن أن نكتفي بقتل الحيوانات المنوية

@3abeth

الموجودة داخل الجسم، والتي سيستطيع الجسم تكوين الملايين غيرها بعد ثلاثة أشهر. يمكن أن تكون مدة الشهور الثلاثة هي المدة الفاصلة بين كل تعقيم وآخر.

الطريقة الأخرى، الموازية، هي رفع معدل الوفيات، وخفض معدل الأعمار. رفع معدل الوفيات سهل للغاية، والمعدل المرتفع سيتحقق بشكل آلي بعد إهمال المستشفيات الحكومية، وتخفيض الإنفاق على العلاج الحكومي. وهذا له أوجه وأساليب عديدة، الإقلال من افتتاح مستشفيات جديدة، الإقلال من المواد الفعالة في الأدوية، الإقلال من المعدات اللازمة لاستكمال العلاج، مثل الشاش والقطن والسرنجات وما شابه، إهمال التعليم الطبي الجامعي وما بعد الجامعي، إهمال الأطباء أنفسهم بعد التخرج. التضييق على الأطباء بقلة المرتبات وتحميلهم المسؤولية الجنائية والقانونية عن كل مريض توفي أو تدهورت حالته.

كل هذه الطرق ستؤدي في النهاية إلى زيادة معدل الوفيات بشكل فوري، أما تخفيض معدل الأعمار فسيظهر واضحاً بعد عقدين أو ثلاثة، لا يمكن تفعيل هذا التخفيض فوراً أو خلال عدة أشهر. وتقليل معدل الأعمار مهم للغاية، معدل الأعمار المنخفض يعني ببساطة فترة رعاية أقل بالنسبة للمسنين، إذا توصلنا لمعدل عمري يقارب الستين عاماً، فقد نجحنا نجاحاً باهراً. ستنتهي حياة المواطن مع إحالته إلى

@3abeth

المعاش، وهكذا سيعيش المواطن طفلاً غير مسؤول لخمس سنوات، ثم سيتعلم لمدة خمسة عشر عاماً، ثم يعمل لينتج لمدة أربعين عاماً، وبعد ذلك ينتهي، يرقد في التراب، عزيزي صلاح، أقدم لك: المواطن المثالي.

ويجب في جميع الأحوال، إن تم تطبيق هذه السياسة أم لم تطبق، تخطينا مرحلة الانفجار السكاني أم لم نتخطها، يجب الحفاظ على الصورة النمطية المرعبة للانفجار السكاني، يجب أن نحافظ على الشعور بالذنب لدى المواطن لأنه ينجب أطفالاً، تعوق مسار التقدم في مصر. يجب أن يصدر الوزراء والرئيس مبارك دوماً تلك الفكرة؛ التحدي الأكبر لهم جميعاً هو الانفجار السكاني. بقاء عقلة الذنب هذه مفيد من عدة نواح، سيؤكد هذا أن المواطن في حاجة للحكومة طوال الوقت، سيعطي هذا شرعية للحكومة طوال الوقت، وسيؤكد على الفكرة المستقرة في لاوعي المواطن: المواطن بهيمة في حظيرة الحكومة، يأكل ويشرب ويتغوط بإذن منها.

لا أجد بديلاً عن هذا الحل الداروني القسري يا صلاح، إذا عجزت الأمراض والأوبئة عن الفتك بالمصريين، فعلينا أن نتحكم في أعمارهم وحيواتهم قسراً.

@3abeth

مليــون

يعلم وليد تماماً أن قيمة التأمين ستنهي أزمات عديدة، أزماته وأزمات أخواته البنات. ستنهي أزمة أبيه أيضاً. تلك التي يشعر وليد بوجودها لكنه يجهلها تماماً، يؤمن وليد بأن أباه انتهى فعلياً، انتهى منذ مدة طويلة. في أحد الأيام وهو في آخر مراحل الطفولة، عندما سأل وليد أباه سؤالاً فلم يرد، كان نعيم قد اختار طريق الصمت منذ عدة سنوات، وكان وليد قد تعلم أن يسأل وأن ينتظر الإجابة منذ شهور قليلة. انقطعت تلك الصلة بين الأب والابن في ذلك اليوم، بل إن وليد اعتقد أن تلك الصلة وهمية، صلة الابن بالأب، يفتعلها زملاؤه والناس من حوله، بينما لا صلة بين الأب وابنه في الحقيقة.

لم يوافق وليد في البداية على ما أراد نعيم فعله، ظن أن والده قد جن، هو يعتقد أن أباه مختل عقلياً بطريقة أو بأخرى، متأخر قليلاً، غبيّ، لكن كل تلك الصفات جعلته يتعاطف معه، لكن قرار ادعاء الموت كان صادماً لوليد. فكرة التزوير، وضرب الورق لتمرير إجراءات صرف قيمة التأمين كان قراراً كارثياً. أما الموت والجنازة والصلاة والدفن، كل هذا كان خيالاً مريضاً بالنسبة لوليد، لم يتفهم

@3abeth

وليد أبداً قرار نعيم، لم يعرف أيضاً سبب كل هذا، خالف وليد القانون عشرات المرات، منذ أن دخل الطبيب ليوقع على الورقة، وحتى المظروف الذي أعده نعيم، كل هذا بلا سبب واضح.

لم يتفهم وليد أبداً رغبة أبيه، على الرغم من كل ما حدث. كان وليد يرى كل شيء، شتائم عطيات وانتقادها المستمر لنعيم، على الرغم من الخرس والعمل القليل والصنعة الخائبة والفقر المستمر، وغباء نعيم الأزلي، إلا أن الحياة لا تزال مستمرة، لم يكن هناك داع لكل هذا.

يدخل وليد ـ مسلحاً بشهادة الوفاة، وأوراق أخرى عديدة، في المظروف الذي أعده نعيم ـ يدخل إلى شركة التأمين مطالباً الموظف المسؤول باتخاذ الإجراءات اللازمة لصرف قيمة التأمين. يظن وليد ـ بسذاجة قليل الخبرة ـ أنه سيخرج حاملاً قيمة التأمين بين يديه. لكن صرف التأمين ليس سهلاً هكذا، هناك الكثير من الخطوات والتعقيدات قبل الصرف.

بلباقة بالغة، يطلب الموظف من وليد أن ينتظر خارج المكتب ريثما يراجع ملف نعيم، كان هذا التعطيل في الحقيقة مهلة للشركة، فعلى الرغم من أن الأوراق المطلوبة كلها موجودة وسليمة، إلا أن شكاً أحاط بوليد. يبدي وليد حزنا مفتعلاً، والموظف يعلم تماماً أن حزن وليد مفتعل، لا يحزن أهل الميت حينما يأتون لتحصيل مليون جنيه، يكونون فرحين. حتى وإن أظهروا الحزن، فإنهم يظهرونه خجلاً من

@3abeth

فرحتهم غير المتوقعة، أما وليد، فيظهر حزناً كاذباً لسبب آخر. لهذا يصر الموظف على أن يرفع الأمر للمدير، ربما للمدير رأي آخر فيما يحدث.

في البيت، يجلس نعيم منتظراً عودة وليد، يريد أن ينهي وليد الأمر بسرعة، أن يفرغ فعلاً من كل شيء، وكأنه قد مات فعلاً. يعود نعيم ليفكر، هو ميت، ولا يصح أن يقول 'وكأنه".

بالطبع، يعلم نعيم تماماً أن وليداً لن يعود إلى البيت وهو يحمل المال، الأمر معقد وطويل، وحجم البيروقراطية التي سيواجهها ولده ربما أكبر بكثير مما واجهه نعيم أثناء حياته. كان نعيم يريد فقط جس نبض الشركة، التعرف على تلال الأوراق المطلوبة، تسلسل الطلبات المعتاد، الأختام والتوقيعات. كل هذا يمكن له شخصياً أن يقوم به، مسهلاً على عطيات ووليد الطريق، مختصراً الخطوات، لكي يصل في النهاية إلى الخطوة الأخيرة، صرف قيمة الوثيقة، هذه لن يكون مجبراً على التواجد أثناء تنفيذها.

يعود وليد ليجلس أمام الموظف بناء على طلبه، الموظف بأناقته غير المعتادة يفرض سيطرته على وليد، لغة جسده موحية ومؤثرة، يستمع وليد إلى الموظف بتركيز، يخبره نقلاً عن المدير بأن عليه الحضور بعد خمسة أيام عمل، يومي الجمعة والسبت إجازة ولا يتم إنجاز أي أعمال بهما. سينتظره الموظف بعد خمسة أيام فقط، لإتمام

@3abeth

إجراءات صرف قيمة التأمين. يخرج وليد وهو واثق من نفسه، واثق من أن كل المشاكل ستحل بعد خمسة أيام فقط.

وهكذا، يبلغ الموظف مديره، يحكي له ما حدث، يخبره بأنه يظن أن الأمر مدبر تماماً، حالة ادعاء موت كلاسيكية. والابن كان هنا منذ دقائق، جلس بوقاحة في المكتب، وقاحة تماثل وقاحة أبيه، ليدعي أنه يستحق قيمة التأمين. عطله قليلاً، ادعى الموظف أن المدير صاحب قرار التأجيل، سيأتي وليد مرة أخرى بعد خمسة أيام فقط، والأمر الآن بين يدي المدير.

مدراء شركات التأمين يعلمون جيداً إمكانية حدوث هذا. أن يدعي أحدهم الوفاة، المدراء يعلمون أن هناك الكثير من الثغرات في أي نظام لتسجيل المواليد والوفيات. الحالات معروفة ومسجلة عالمياً، عشرات الحالات، في كل مرة يقوم المدراء بمراسلة الجهات الحكومية، مطالبين إياهم بسد الثغرات التي نفذ منها أصحاب وثائق التأمين، ودائماً ما يلتفت المسؤولون لتلك الثغرات، يحاولون رتقها قدر الإمكان، يبدلون في القوانين واللوائح لفرض نظام أكثر صرامة، لكن دائماً ما تظهر ثغرات أخرى غير مرئية، متناهية في الصغر والبساطة، لا يكتشفها الموظفون إلا بعد أن يتم استغلالها. يعتقد بعض الخبراء أن تلك الثغرات تؤكد هشاشة النظام البيروقراطي، يعتقدون أن كثرة الثغرات تتناسب طردياً مع بيروقراطية النظام.

@3abeth

ومع أن المدراء كانوا في بعض الأحيان على علم بتلاعب مدعي الموت، إلا أن قيمة التأمين كانت تصرف بالكامل لمستحقي التأمين. لم يحرك أحدهم يده ليؤشر بالرفض، أو ليأمر بالقيام بتحريات، أو حتى محاولة التملص من التزامات شركة التأمين. فالرفض معناه توريط الكثيرين؛ أطباء وموظفين من وزارة الصحة، شهود ومعارف وأصدقاء. بل وربما موظفين من شركة التأمين ذاتها. لذلك، يفضل المدراء تجاهل التزوير، وتمرير المؤامرة، والالتفات للمشاكل الأخرى المحيطة بهم.

أمّن نعيم على حياته بمليون جنيه، رقم حالم، أول الستر كما يقول الأغنياء، منتهى المراد كما يقول باقي الناس. لكنه بالنسبة لشركة التأمين كان رقماً ضخماً، لم يكن ضخماً عند كتابة الوثيقة، لكن ضخامته ظهرت عندما أتى وليد إلى الشركة مطالباً بصرفه. ما سوف يساعد المدير، أن نعيم رجل غلبان، بلا ظهر يحميه، لذلك سيكون من السهل تعطيل الأمر، سيكون من السهل كشف تلاعبه وتزويره للأوراق. هذان السببان جعلا المدير يصر على تعقيد الأمر، على إرسال المخبرين والعملاء للتحري، كان قد اقتنع تماماً بأن نعيم حي، لم يمت، لقد درب موظفه على قراءة أفكار الناس، من خلال حركات الأيدي والأعين والشفاه، وهو لا يشك أبداً في موظفه. وحتى ولو شاهد جثة نعيم راقدة في القبر، فلن يصدق أنه مات. نعيم حي ولم يمت.

@3abeth

مات نعيم رسمياً، حسب الأوراق. ولكن المدير والشركة لا يؤمنان بهذا، الشركة هنا تتصرف لحماية نفسها. ترسل الشركة محققين، مخبرين، عملاء. يظل الجميع يدورون في الفجالة وشارع عبد الخالق ثروت، مكاني سكن وعمل نعيم، يسألون الجيران عنه: آخر مرة رأوه حياً، يسألون الجيران بصرامة وجدية: هل رأوه بعد وفاته؟ ثم يسجلون إجابات الناس في دفاتر صغيره، يوثقون كل الإجابات، ينسبونها لأصحابها، ويطعمونها بالتاريخ والساعة، كل هذا رغبة في التأكد من وفاة نعيم. هم لا يعرفون نية المدير ونية الشركة المبيتة، هم مأمورون فقط بالتحري والتأكد من وفاة نعيم.

بعض الناس يتعجبون حينما يُسألون عن نعيم، البعض الآخر يوشك على الاستسلام للغضب. لكن الجميع يرد بهدوء في النهاية، والأغلبية منهم يبدون امتعاضهم الساخر من العملاء. في وقت ما، يدرك العملاء أن كلام الواقف أمامهم بلا قيمة، كلامه يؤكد الوفاة ولا ينفيها، وهم يبحثون عمّن ينفي الوفاة. فيغلقون دفاترهم الصغيرة ويمضون إلى جار أو صديق آخر.

@3abeth

عزيزي صلاح،

جمع المعلومات فن، وأنتم من وضعتم قواعد هذا الفن. أعلم تماماً أنكم تجمعون معلومات كثيرة عن كل فرد في مصر، بعضها يملأ ملفاً كبيراً، بعضها الآخر مكتوب في عدة أوراق، وأعلم أن هناك عددا قليلا جداً من الناس تملكون عنهم مجلدات عديدة من المعلومات. مع ذلك، يجب أن تفكروا في التحديث من حين لآخر.

الآن أتساءل؛ ألا يجب عليكم ربط معلومات الفرد بمعلومات معارفه وأقاربه، ألا يجب وضع خريطة للعلاقات المتشابكة بينهم، عوضاً عن تلك الخريطة الموجودة فقط في عقول أفراد الأمن، في عقولكم؟ هذه الروابط ستنسى مع مرور الوقت، أيضاً، قد تكون غير صحيحة، غير مطابقة للواقع، أو أنها قد تكون قديمة، تم تحديثها في الواقع، لكن ليس في عقول الأفراد. كل هذا سيتم تلافيه إذا تم تسجيل تلك الروابط في قواعد البيانات. حان الوقت لتطوير خرائطكم المعلوماتية عن المواطنين.

أكثر ما يؤلمني، بالإضافة لكل ما ذكرت من قصور وتأخر، أو ربما، كنتيجة حتمية لعدم تنظيم وربط المعلومات ببعضها، كونكم لا تستفيدون من معظم تلك المعلومات!

@3abeth

أتعجب كثيراً حينما أرى كل هذا الجهد المبذول من أجل جمع المعلومات وتدوينها وأرشفتها، بينما أراها غير مستخدمة على الإطلاق. في حين أن المعلومات التي يجمعها صغار المخبرين وعملاء الشرطة، تستخدم بكفاءة عالية جداً للتحقيق في الجرائم البسيطة ومحاولات التعرف على مرتكبيها. هذا على الرغم من بدائية طرق المخبرين في جمع المعلومات. وطرق رجال المباحث العتيقة في إيجاد مرتكبي الجرائم. لن أبالغ حينما أقول إن رجال الشرطة في مصر أكثر كفاءة من بعض الجهات الأمنية العليا في بعض الأحيان.

أعلم أن هناك عدة شبكات لجمع المعلومات في مصر، هناك شبكة المخبرين والمرشدين الشرطية، الأمن القومي، أمن الدولة، أمن الموانىء، أمن الفلاح، أمن المصانع، مخابرات الصعيد، مخابرات كفر طهرمس، مخابرات ميدان العتبة، مخابرات المحشي، كل هذه تعمل من أجل جمع كل أنواع المعلومات عن كل فرد من الشعب. أعلم أن هناك شبكات جمع معلومات داخلية، في الوزارات أو الهيئات التابعة لها، للأسف هذه الشبكات قد لا تكون معلومة بالنسبة لكم، هذه شبكات صغيرة، يؤسسها ويديرها رئيس هيئة أو وكيل وزارة، أو حتى موظف بدرجة مدير عام، كل همها جمع معلومات تتعلق بمجموعة صغيرة من الموظفين، خلية جمع معلومات صغيرة رخيصة وذات كفاءة عالية.

@3abeth

وبالتأكيد، هناك شبكات وأجهزة أخرى لا تعلمون – ولا أعلم ـ عنها شيئاً. كل هذا ينقلنا إلى الاستنتاج التالي: لكل مواطن مصري ملف يحوي معلومات عنه، موجود في مكان ما في مصر.

بعض المواطنين يدركون مدى كفاءة أجهزة جمع المعلومات في مصر، بعض المتصلين بأفراد في الشرطة، أو ضباط الأمن العام، أو النشطاء السياسيين، أو من عاشوا في زمن عبد الناصر، بعض العارفين بأمور الأجهزة الرقابية، والكثيرون غيرهم؛ يرفضون بكل حزم تسجيل صورتهم أو صوتهم، عن طريق الفوتوغرافية أو الفيديو أو التسجيل الصوتي، كذلك يتحرون الدقة قبل نشر معلومات خاصة على إنترنت، ويعيدون قراءة أي بريد إلكتروني قبل إرساله عدة مرات، خوفاً من تمرير معلومة شخصية بدون قصد، هم أيضاً حريصون على عدم التفوه بأي معلومات شخصية في جلسات عامة، أو حتى في جلسات خاصة أمام الأصدقاء، يتعمدون أيضاً الحفاظ على حد أدنى من الوعي في حالة تعاطي المخدرات أو الكحول، كل هذا خوفاً من معلومة طائشة خارجة من نطاق السرية، قد تصل في النهاية إلى الملف الخاص بهم، القابع في درج أحد الخزائن في أحد المكاتب في أحد المباني.

@3abeth

والحجة المعلنة لن تكون الخوف من الملف المكتنز، ستكون كالعادة حجة أخرى واهية، مثل الحفاظ على الخصوصية، أو أن تلك التسجيلات قد تؤثر على عمله، على منصبه، قد تسقطه من أعين مرؤوسيه، قد تتسبب في اضطهاد رؤسائه له. أو ببساطة، الإعلان عن أن الصور والتسجيلات قد تجعله يندم بعد سنين عديدة. هذا القول غير الصريح، غير المباشر، الذي يوحي بمئات الاحتمالات، يتضمن طبعاً الاحتمال الحقيقي الوحيد والصادق: الخوف من الملف.

ولا أنكر أن خوف هؤلاء في محله، لكنهم أيضاً مخطئون إذا ظنوا أنهم سيهربون من رجال جمع المعلومات، هؤلاء الخائفون يظنون أن ملفاتهم فارغة وستظل كذلك. هي فعلاً فارغة، لكن معلومات كثيرة تتعلق بهم موجودة في ملفات أخرى، ملفات الأصدقاء وزملاء العمل والأقارب والجيران. كل تلك الملفات المحيطة بملفه تحوي نتفاً معلوماتية صغيرة عنه، عند تجميعها قد تكوّن ملفاً ضخماً، هذه فائدة الربط بين الملفات والمعلومات، خلق ملف لأحدهم بدون سابق معرفة به.

بعد ذلك، عليكم استخدام هذه المعلومات عند الحاجة، وتلك الحاجة قد تكون بالغة البساطة، رد فعل على قول أو عمل قام به صاحب المعلومات، المذكور انتقد

@3abeth

الرئيس مبارك، فلتبدأ فوراً حملة تشهير وشتم وانتقاد، موجهة من جنود الزبالة، سيستخدم الجندي كل المعلومات الموجودة في الملف، سيرميه بأقذع الشتائم، سيطالبه بإثبات إنجازاته، وذكر أفعاله القيمة.

سيدعي أنه انتقد الرئيس لأنه حقود، سيدعي أنه سافل لأنه لم يرحم الرئيس الوالد، الشيخ الجليل، سيدعي أنه فاشل وكافر ولص وانتهازي، وكل تلك القائمة المعروفة، سيدعي أنه ناكر لجميل الرئيس الذي حكمنا كل هذه السنين بحكمته ومهارته.

سيصف بناته وزوجته وأمه بالشراميط، هكذا، وكلما نظر المذكور في وجه إحداهن، سيتذكر أن الجندي نعتها بالشرموطة، سيتذكر وجه الجندي، سيتذكر وجه الرئيس أيضاً، سيفهم أن نقد الرئيس مبارك خط أحمر لا يمكنه أن يتجاوزه، وإن حدث ذلك فعليه أن يتحمل موجة التشهير المكتسحة المهينة.

والجندي هنا قد يكون صحافياً، قد يكون عضواً في المجلس المحلي، قد يكون عضواً صغيراً بالحزب، قد يكون مؤيداً للحزب بقلبه بدون أن يكون عضواً، قد يكون حشاشاً، أو لصاً. لا يوجد بروفيل محدد لجنود الزبالة، اللذين يرفعون الزبالة فوق رؤوسهم، ليضعوها على رؤوس

@3abeth

الآخرين. لكن لا يمكن بأي حال أن يتورط أحد الكبار في فعل زبالي كهذا، لا يمكن أن يتورط من يلبس زياً رسمياً في الأفعال الزبالية، كذلك المسؤولون الموضوعون تحت الأضواء والمتحدثون بلسان الهيئات والوزارات، كل هؤلاء لا يصح أبداً أن يكونوا جنوداً من جنود الزبالة، الزبالة لا يحملها إلا الزبالة، سيتسخ هو، سيلطخ المعارض أو الشيوعي أو رجل الدين، كل هذا غير مهم، لكن لا يمكن أبداً أن يتم تلطيخ عضو مرموق في الحكومة.

تفاهة جندي الزبالة تنقل رسالة مهمة لكل الناس، تفاهته تُعلم الناس بأنه مجرد جندي في جيش ضخم، يعمل من أجل خدمة الرئيس، ستُعلم الناس بأن هناك دائماً فرداً أعلى خفياً، يتحرك الجندي لخدمته، غير مضطر للدفاع عن نفسه أمام المرشحين الآخرين والمنتقدين والأعداء، بل يترك ذلك لجنود الزبالة.

يقال إن عبد الناصر كان يقرأ أربعة آلاف تقرير في اليوم، كل يوم. يتم رفع التقارير المطولة من أعضاء التنظيمات العديدة التي أنشأها، مثل التنظيم الطليعي ومنظمة الشباب، يتم تجميع تلك التقارير، يتم تفريغ المكالمات التليفونية المسجلة، المحادثات الصوتية المسجلة، كل هذا يتحول إلى كلام مكتوب في النهاية.

@3abeth

أتصور أن التقارير والمكالمات كانت تختصر وتختزل لفقرات قصيرة، عدة أسطر فقط، مائة كلمة فقط. فمن المستحيل أن يقرأ عبد الناصر هذا العدد من التقارير إذا كانت مفرطة الطول، بل إذا كانت غير مختزلة. يقوم بهذا الاختزال موظفون متخصصون، محايدون إلى أقصى درجة، ملائكة آدمية، بحيث يكون الاختزال في مصلحة الرئيس، معلومات قليلة لكنها صحيحة، مقتضبة لكنها ترسم شخصية صاحب التقرير. ثم يقوم عبد الناصر بعد ذلك بقراءة التقارير، أو تلك الفقرات الصغيرة الناتجة عن الاختزال، يوقع على كل فقرة: يعتقل، أو: تصادر أمواله، أو: يوضع تحت الحراسة، وبالطبع، هناك مبدأ المكافأة دائماً.

أربعة آلاف تقرير في اليوم، أي أكثر من مليون ومائتي ألف تقرير في السنة، إذا افترضنا أن نصف المصريين في ذلك الوقت (١٥ مليون) كانوا بالغين ونشيطين سياسياً، فسيلزم الرئيس ١٣ سنة لقراءة تقرير واحد عن كل مواطن بالغ، وبحساب الزيادة التقريبية في عدد السكان، سيلزم الرئيس ١٥ سنة لقراءة تقاريرعن كل الناشطين سياسياً، وببساطة، سيلزمه ٣٠ سنة من الحكم، ليكون قادراً على قراءة تقارير عن كل المصريين، ناشطين أو خاملين، بالغين أو أطفالاً رضع. لكن القدر لم يمهل عبد الناصر.

@3abeth

تخيل وضع كل تلك المعلومات في قاعدة بيانات واحدة، تدار بواسطة خادم إلكتروني ضخم، متصل عبر شبكة بكل جهاز كمبيوتر في كل جهاز أمني في البلاد. معلومات من الشرطة، والأمن العام والجوازات والأمن القومي والرئاسة والمخابرات والقوات المسلحة والوزارات والشهر العقاري والمحافظات والضرائب العامة والضرائب العقارية والسجل المدني.

كل هذا سيصب في خانات خاصة بالمواطن، ليتعرف عضو الجهاز الأمني على كل هذا عن طريق الرقم القومي الخاص بالمواطن. الأكثر من ذلك، ستظهر شبكة معارفه وأقاربه وجيرانه، كل في دائرة محيطة بالمواطن، تبين مدى معرفة المواطن لزميله المواطن، معارف من الدرجة الأولى والثانية وهكذا. سنستطيع ببساطة معرفة الروابط التي تصل حسن فايق بأحمد عدوية.

سيتم رسم خريطة ضخمة للمواطنين المصريين، ثلاثية الأبعاد، سيتم تمثيل المواطنين بكرات صغيرة، كل كرة تحوي معلومات عن صاحبها، تتضخم طوال فترة حياته، يتحول لونها من الأبيض الناصع ساعة الولادة، إلى الأزرق بدرجاته المختلفة إلى الأصفر إلى البرتقالي ثم الأحمر، تبعاً لمدى نشاطه المعادي للنظام. سيظهر نتوء صغير لكل حكم قضائي صدر ضد صاحب الكرة، ستكون الكرات ذات النتوءات مميزة

@3abeth

جداً، فبمجرد النظر إلى الكرة، ومن خلال لونها وحجمها ونتوءاتها، سنعلم كل شيء عن صاحبها بلون حتى أن نقرأ محتواها، إذا أراد الباحث عن المعلومة قراءة الكرة، فما عليه إلا فتحها بضغطة على زر الكمبيوتر، سيجد المعلومات كاملة، مفهرسة، مرتبة، تنتظره. في النهاية ستتجمد الكرة وتتحول للون الرمادي عند وفاة صاحبها، ولن تمحى أبداً، الموتى تاريخ الأحياء.

مع كل شهادة ميلاد جديدة ستظهر كرات دقيقة بيضاء اللون، رؤوس دبابيس صغيرة، لن تبدأ في النمو إلا مع بداية تسجيل المعلومات الخاصة بصاحبها كمواطن تمتلك الحكومة جسده. لن تبدأ في النمو إلا مع أول تطعيم للطفل، ومع أول اختبار للغدة الدرقية، هاتان أول علامتين تضعهما الحكومة على جسد الرضيع، أول إعلان لامتلاك الحكومة لجسد الرضيع.

هل تظن أن وضع خريطة كهذه مستحيل يا صلاح؟

@3abeth

وهــــيب 1

بدأ نعيم العمل في سن صغيرة. عندما كان طفلاً، تركه والده ليدرس ويلعب، ولما أتم العاشرة من العمر، رأى أن يده ماهرة، وله عين تميز الأشياء وتفرق بين الكامل والنواقص، فقرر أن يعلمه إحدى الحرف. أراد والده أن يعمل في مهنة نظيفة، ألا يتورط في شجار أو شتائم أو مخدرات. كان يرى الصنايعية المقيمين حوله يعيشون حياةً مترفة، لكنهم على قدر كبير من السفالة. يتبادلون الشتائم ويتعاطون المخدرات طوال الوقت، وكل عدة أيام يظهر أحدهم بجرح غائر في الوجه، أو يختفي في بيته لأيام طويلة، ثم يعرف الجميع أنه أصيب في شجار. كانوا يتعاركون كثيراً، كانوا مثالاً لمن أفسدهم المال.

في العاشرة من عمره، توجه نعيم بصحبة أبيه إلى شارع عبد الخالق ثروت، سارا معاً من الفجالة حتى هناك، أثناء سيره، تلفت نعيم كثيراً حوله، متأملاً محلات وسط البلد الكثيرة، لاحقاً في نفس اليوم، ستبهره أنوارها الليلية عندما يعود إلى بيته. في منتصف الشارع تقريبا، ناحية شارع سليمان باشا، كان مقصد عبد النعيم مستقراً هناك، بدت واجهة الدكان قديمة جداً، بدت العمارة نفسها قديمة

@3abeth

جداً، هذا القدم الذي يوحي بعزلة أبدية، لاعتقاد الناظر إليها بأنه لن يستقر بها أبداً، لن ينام فيها، لن يسكن بها، وربما سيكون سعيد الحظ إذا عمل في محل يشغل الطابق الأرضيّ بها. توقف نعيم وأبوه أمام دار وهيب وشركاه للتجليد.

جدران الدار الداخلية غامقة اللون، لا تعرف أصل لونها حتى لو دققت النظر، انقبض قلب نعيم لما رأى الجدران العالية رمادية وسوداء اللون، زاد انقباضه لما رأى الكهل الذي سيعمل معه. كان فرج أكبر صنايعية الدار، كانت روحه لا تزال متقدة، وجسده لا يزال قوياً. ترك عبدالنعيم ولده في عهدة فرج، ثم سلم على الاثنين وتركهما إلى الشارع. كان فرج متورطاً في موضوع نعيم هذا، لم يشأ أن يصد رفيق القهوة عندما طلب منه أن يأخذ ولده ليتعلم حرفة نظيفة. عبد النعيم كان متأكداً من طيبة فرج، فرج لن يسب أو يلعن أمام نعيم، كما أن الورق والغراء والجلد مواد لن تصيب نعيم بحساسية أو مرض أو جروح. فكر عبدالنعيم في أن تجليد الكتب هي أرقى حرفة قد يتعلمها الإنسان، هي أقرب مهنة للثقافة والمثقفين.

أول ما قاله فرج لنعيم "تشرب شاي بلبن؟" وكأي ولد مطيع أشار نعيم برأسه موافقاً. وكانت هذه بداية التعامل بين الاثنين.

في غضون شهرين فقط، كان نعيم قد تعلم كل شيء عن المهنة، استطاع التمييز بين أنواع الجلد المختلفة، أنواع المشمع الكثيرة، استطاع أيضاً التعرف على أنواع الغراء التي لا تحصى، تعرف على

@3abeth

الغراء الذي سيصبح مرناً حينما يجف، وهو المفضل في التجليد، والآخر الذي يظل مرناً لفترة قد تطول لسنين، ثم يبدأ في التصلب ثم التشقق، يفتح الواحد الكتاب ليجد الصفحات تنفصل في يديه. تعرف نعيم على تلك الأنواع من ملمسها قبل الجفاف، من كثافتها ولونها، ورائحتها الخفيفة أو القوية. تعرف على أنواع ورق التبطين، ذلك الذي يظهر حالما يفتح الواحد الكتاب، هناك الملون السميك، أمواج من الألوان المتعددة، قوس قزح ذي منحنيات لا نهائية، وألوان تتجاوز المائة، يدور في الورق بلا أول أو آخر. وهناك الورق ذي الثيمة الصغيرة المكررة بلا نهاية، تتجاور وتتكرر بلا حدود. وربما طلب صاحب الكتاب أن يبطن الكتاب بورق ذي لون واحد، أو ورق أبيض. تعرف على أنواع الخيوط المستخدمة في خياطة الكتب. الخيوط القطنية، والحريرية، هناك الخيط السميك الخشن، الذي يستخدم لخياطة ما يزيد عن ألف صفحة. تعرف أيضاً على أنواع ورق الكتب، استطاع بمجرد اللمس أن يتعرف على مستوى الخشونة والثقل والسمك. كل هذه المعارف كانت كبحر عب نعيم منه بشره بالغ، وارتوى بعد شهرين فقط.

أنهى نعيم البحر خلال شهرين، لكن جدول الصنعة النحيل لم ينته بنفس السرعة، تشرب الصنعة استغرق وقتاً أطول بكثير، خمسة عشر شهراً، كان نعيم يعمل تسع ساعات يومياً، حتى تكتسب يده المهارة بعد تجارب عديدة. مما يوصلنا لأول كتاب جلده نعيم.

@3abeth

بعد أكثر من سنة من تواجد نعيم في الدكان، طلب فرج من نعيم أن يعبر الشارع، أن يدخل المكتبة المقابلة وينتقي كتاباً سميكاً، أي كتاب.

سيكون هذا أول كتاب يقوم نعيم بتجليده، اختار نعيم كتاباً سميكاً كما أمره فرج، ثم عاد إلى الدكان ليقطع بأناة غلاف الكتاب، على الصفحة الداخلية الأولى قرأ نعيم: نصيحة الملوك. بدأ ببطء في ثقب وخياطة ملازم الكتاب، يغرس الإبرة الطويلة في أعلى رصة الملازم المثقبة ثم يمررها، لتسبق خيطها داخل ثقب الملزمة، يعقد بالإبرة والخيط عقدة أو اثنتين إذا رأى أن العقد ضرورية، وقد يضيف شريطاً رفيعاً من الجلد، جلد سميك شديد المرونة، مع ذلك شديد المتانة، يضيفه وسط العقد، ليكون دعامة للملازم حين فتح الكتاب، رابط يربط الأوراق ببعضها.

جلّد نعيم الكتاب في أسبوع، كبس الكتاب بين فكي الملزمة الحديدية ليومين ريثما يجف الغراء، ثم وضعه تحت أثقال وبلاطات معدنية ورخامية عديدة، ثم بعد أسبوع، أخرج الكتاب من تحت أثقاله وعرضه بفخر على فرج. أمسك فرج بالكتاب وأخذ يقلبه بين يديه، ليتأكد من توازي حدود الغلاف المقوى مع حدود الصفحات، ليتأكد من كمال دوران الكعب، ومن كمال تسطح جانبي الغلاف، ثم فتحه ليتأكد من ترابط الملازم، ومرونة الغراء المستخدم، وصحة تشكُل الحزام القماشي الملتصق بالملازم، وهنا وقع نعيم، كان كل شيء على ما يرام، إلا أن فرج، عندما فتح الكتاب عند منتصفه، ووضعه على

@3abeth

الطاولة أمامه، ونظر نظرة موازية للصفحات، بحيث يرى الحزام القماشي المحيط بالكعب، لاحظ أن الحزام القماشي لا يشكل شكل جناحي الطائر المتسقين المقلوبين، الشكل المتعارف عليه بين كل مجلدي الكتب، كان أحد الجناحين أطول قليلاً من الآخر، مع انبعاجة خفيفة في منحنى الجناح نفسه.

سارع نعيم وأخبر فرج بأن السبب يكمن في تحرك الملازم غير المتوقع أثناء عملية الكبس، تلك التي تشكل المنحنى العام للحزام القماشي، تحركت مجموعة من الملازم عن مكانها المفترض، مما أدى إلى هذا التشوه في الحزام وبالتالي في الكعب الداخلي نفسه. أراح هذا التحليل فرج كثيراً، وأعلن أن تجليد الكتاب مقبول.

لفرج ثلاثة مستويات من التقييم، مقبول وهو أقلها، جيد وهو ما يسمح بإنهاء العمل على الكتاب والسماح بتسليمه لصاحبه، وممتاز وهو تقييم لا يظهر إلا نادراً جداً، مرتين أو ثلاثة في السنة الواحدة. وقد تمر سنوات بدون أن يسمع أحد من الصنايعية والصبيان كلمة ممتاز.

بهذا التقييم، لم يكن فرج ليسمح بوضع الكتاب المجلد في الواجهة الزجاجية، لم يكن ليسمح ببيعه على أنه من أعمال دار وهيب للتجليد. أعطى الكتاب لنعيم، أخبره بأن عليه فك التجليد، والمحافظة على الورق والملازم أثناء تلك العملية، ثم إعادة تجليد الكتاب، أخبره بأن الكتاب لن يعرض في الواجهة إلا إذا جلده تجليداً "ممتازاً" أما قبل

@3abeth

ذلك فمستحيل. قال له إن هذا أول كتاب يجلده بالكامل، هذا مشروع عمر نعيم، ويجب أن يتمه بدون أخطاء.

أسس وهيب وهيب الدار منذ عقود، في منتصف الخمسينيات، في ذلك الوقت كان تجليد الكتب تجارة رائجة. فقد اعتاد الناشرون على طبع الكتب القيمة الضخمة بأغلفة رقيقة بسيطة، وصفحات غير مشذبة، لعلمهم بأن مقتني الكتاب سيفضل تجليده بطريقته الخاصة، وبالشكل الذي يراه متميزاً. وعلى الرغم من قلة الكتب وقلة القراء، إلا أن الدار كانت دائماً مليئة بالكتب العارية من الأغلفة، يرغب أصحابها في تغليفها. بالإضافة الى تلك الطلبات الخاصة، استثمر وهيب أموالاً كثيرة في تغليف الكتب الشهيرة. غلف الأناجيل والمصاحف، غلف الفلكلور في العهد القديم والغصن الذهبي، غلف ألف ليلة وليلة، الفتوحات المكية، بدائع الزهور، أعمال المنفلوطي، جلد وغلف مئات الكتب. كان يبتاع نسخاً عديدة من تلك الكتب بأسعار رخيصة، من الناشر مباشرة، ثم يغلفها بأغلفة متعددة تتراوح بين المتانة والضعف، بين الفخامة والتواضع. وأيضاً تتراوح في تكلفتها. ثم يعرضها في الواجهة الزجاجية للدكان، متفاخراً بجودة الصناعة والدقة، مبرزاً اسم الكتاب على الكعب السميك، يكتب الأحرف بلون الذهب، بخط فارسي رقيق، أو بخط ثلث سميك، أو بخط نسخ واضح. يبيع الكتب فيربح من ناحيتين، ربحٌ في ثمن الكتاب، وربحٌ آخر في تجليده.

استمر وهيب وهيب على هذا النهج حتى مات... كان وهيب وهيب يطوي آخر ملازم حياته حينما أتى نعيم إلى الدار، كان النظام

@3abeth

الذي وضعه وعدله وطوره طوال سنوات إدارته للدكان قد استقر في أحسن صورة أخيراً، ولم يلزم الدار إلا متابعة بسيطة منه، بينما يقوم فرج بباقي العمل، يساعده باقي الصنايعية. في حين كان وهيب يجلس إلى مكتبه الصغير في جانب من الدكان، يتابع ما يحدث لدقيقة، ثم تسرح عينه في الشارع لدقائق تالية.

بعد أول تجليد لنصيحة الملوك، استمر نعيم في العمل، استمر صبياً من صبيان الصنايعية، استمر في تعلم الصنعة ببطء وكأنه يشرب شاياً بلبن بملعقة صغيرة، في كل يوم، يشارك نعيم الأسطى فرج شرب الشاي بلبن صباحاً، يشربانه ساخناً، رشفة تلو الأخرى، رشفات قصيرة صغيرة، أخبره فرج أن الواحد حينما يبدأ عملاً فإنه يبدأ بخطوات صغيرة، كالرشفات تماماً، ثم تستطيل الخطوات وتتعاظم التحركات، كما الرشفات أيضاً، إذا اعتاد الواحد على سخونة الشاي، فإنه يبدأ في ارتشاف رشفات أكبر وأطول، تتغلب شجاعته على السخونة. هذا ما أوصاه به فرج، وما تابعه وهيب وهيب بحماس خفيّ، كان يرى في نعيم فرجاً صغيراً، ونعيم من ناحيته رأى مستقبله بين الورق والجلد والمشمع والقماش.

كل عدة شهور، كان نعيم يفك تجليد "نصيحة الملوك" بحرص بالغ، ثم يعيد تجليده بروية وهدوء، في كل مرة كان يتقن صنعته أكثر فأكثر، في كل مرة يضيف شيئاً جديداً على الكتاب المجلد، خلال السنوات التالية، أضاف سيوراً أدق وأقوى من جلد الغزال، ثم أضاف تطريزاً أحمر وأبيض لطرفي الحزام القماشي، يظهران بجلاء لكل من تقع

@3abeth

عينه على كعب الكتاب، ثم أضاف أربع زوايا نحاسية مزخرفة إلى أطراف الغلاف الأربعة، لتحمي زاوية الغلاف القائمة من الالتواء، ثم جلد الكتاب مرة أخرى بغلاف جلدي طري، بلا ورق مقوى كالمعتاد، وصنع استدارات صغيرة عند الأطراف بدلاً من الزوايا النحاسية القائمة. ثم عاد وجلد الكتاب بورق مقوى، وأضاف في هذه المرة أربع أسياخ حديدية رفيعة، مغروسة في الورق المقوى نفسه، تمتد من كل زاوية من الزوايا الأربعة، وحتى منتصف الكعب، ضحك فرج لما رأى ما فعله نعيم، قال له إنه حوّل الكتاب لسلاح.

ينتهي نعيم من التجليد، ويضع الكتاب تحت الضغط، تستقر عليه عدة بلاطات رخامية قديمة، بقدم الدكان، ثم يضغط نعيم كل شيء بالملزمة. وينتظر خمسة أيام ليجف الغراء ويتماسك الكعب والغلاف.

ومع الوقت، ومن خلال تصعيد وترقية مستمران للصنايعية، أخذ مجهود فرج يقل شيئاً فشيئاً، حتى أصبح مشرفاً على الصنايعية فقط، لم يعد يعمل بيده، ويوماً بعد يوم، أخذ يجلس في مكتب وهيب وهيب فترات أطول، ساعات قد تطول لتساوي ساعات جلوس وهيب وهيب في نفس المكتب.

خلال كل تلك المدة تابع فرج نعيم بعين، وعينه الأخرى - كعين وهيب وهيب - سارحه في زحام الشارع بالخارج، كان فرج قد قرر أن يُعلم نعيم الصنعة كما تعلمها هو. فرج الذي كان يرفض أن

@3abeth

يشغل صبياناً معه، والذي كان يستجيب لطلبات وهيب وهيب الخاصة بنقل فنيات التجليد إلى الصنايعية بعد ضغوط هائلة، والذي ظل يعلم الصنايعية المهنة منقوصة، تنقصها تفصيلة صغيرة، أو خبرة حياتية اكتسبها مع طول المعاشرة، أو معلومة خفية تائهة بين ألوف المعلومات التي ينبغي إيصالها للصنايعي. كان فرج يرى أن صنعة التجليد الحقة ستموت معه، سيأخذها معه إلى القبر، ولن يبقى في السوق إلا الكسر، أنصاف الصنايعية وأرباعهم. إذا مات فرج، فلن يجد الواحد من يجلد الكتب مثله.

لكن فرجاً كان يبالغ قليلاً، لا يزال هناك الكثيرون يجلدون الكتب في مصر، هناك الكثيرون في الأزهر، في حواري الحسين، هناك واحد في حلوان، وآخر في العباسية، هناك مكتب فاخر يجلد الكتب الضخمة في مصر الجديدة، بالقرب من ميدان هليوبوليس. لكن - ويجب قول الحقيقة - كل هؤلاء لم يقتربوا من مستوى فرج.

@3abeth

عزيزي صلاح،

من حين لآخر، يجب أن نعظ الناس.

العظة المقصودة هنا لن تكون واضحة، هي كمثل سائر العظات والدروس المستفادة، تطفو فوق الحكاية ولا يدركها المرء إلا بالتفكير والتدبر، هي رسالة مخبأة بمهارة وسط أحداث كثيرة، هذه الأحداث يفضل أن تكون حقيقية، يفضل أن تكون "أخباراً" غير ملفقة، للحقيقة تأثير قوي على الناس. هناك الطريقة المعتادة: الكلام عن الدول الأخرى والحالة المتردية التي وصلت إليها، مثلاً؛ لبنان: فتنة طائفية، حرب أهلية، اغتيال رؤساء، قتل على الهوية. لبنان كان ولا يزال بعبعاً في يد أي سلطة عربية، عند كل انفلات أمني وشيك، يرفع الحاكم شوكة لبنان ويلوح بها في وجه الشعب. مذكراً إياهم بالمصير البشع لـ "سويسرا الشرق". مثال آخر: الأخبار المتفرقة في الصحف عن العنف في أمريكا، القتل العشوائي هناك مؤثر للغاية، فكرة أن بعض رجال الشرطة في بعض المدن الكبيرة- نيويورك مثلاً- يخلون أنفسهم من المسؤولية عن الشوارع بعد الثامنة مساءً، لتحول المدينة لغابة ليلية، إلى وكر للمدمنين والعاهرات واللصوص والقتلة. هذه الفكرة المرعبة صحيحة بدرجة ضئيلة، لكن يمكننا تضخيمها وإضفاء جانب أكثر رعباً عليها. يمكن أيضاً تضخيم دور

@3abeth

الشرطة المصرية المتمثل في القبض على المجرمين وتجار المخدرات والبلطجية، خبر في صفحة الأحداث العالمية يظهر تأزم الوضع السياسي في شيكاغو نتيجة لسيطرة العصابات هناك على الشوارع، يليه عدة أخبار في صفحة الحوادث، تبرز كيف أن العقيد أحمد مجدي، أو الرائد بررم بررم تمكن من ضبط المجرم الحقير، أيا كان اسمه. لا يمكن نشر أخبار الجرائم حال وقوعها، بل تنشر بعد أن تقوم المباحث بالقبض على مرتكبيها، أو بعد إلصاق التهمة في أحد أصحاب السوابق إن لزم الأمر. الحكاية لا تتعلق بالقبض على المجرم، بل تتعلق بإبراز مدى قوة الشرطة.

لا أعتبر أن هذا إلهاءً، هذا وعظ، إظهار مدى قوة الشرطة في مواجهة الإجرام ضروري لإظهار مدى قوة الحكومة، وبالتالي قوة الرئيس مبارك.

هناك طريقة أخرى، هذه طريقة لم تكن متبعة من قبل، حديثة تماماً، وأظن أنها لم تحدث في الخارج أيضاً، إلا في حدود ضيقة جداً.

لا يعجبني دائماً إرسال رسالة عامة للناس، وعظ عام هكذا، بلا علامات أو شخصيات حقيقية، وعظ موجه لكل الناس على اختلاف أفكارهم ومستوياتهم. هذه الطريقة قد تجعل البعض يستثني نفسه من العظة، سيقول بعضهم: لن

@3abeth

يحدث هذا لي. أو: لن أتورط في مثل هذا أبداً. سيقولون: أنا مهندس محترم، من طبقة متوسطة، لا يمكن أن يبهدلني ضابط، الضابط يحميني، الشرطة تحمينا. هذه فكرة كوميدية للغاية يا صلاح! يجب أن نعيد النظر في مسألة الوعظ الجماعي، وأن نخصص حوادث للعظة الفردية، تلك الموجهة للفرد الواحد، للمواطن، يجب أن يرى المواطن نفسه في موقف المصاب بالضرر، ولا يأتي هذا إلا بتسلسل معين للأحداث.

هناك مواطن محترم، مهندس، مدير شركة، محاسب قانوني، طبيب، ليكن نائب مدير معهد القلب مثلاً - الحقيقة أني غير متأكد من وجود مستشفى بهذا الاسم من الأصل - رجل بعيد تماماً عن السياسة، بعيد عن المعارضة، لا يمكن الربط بينه وبين الحكومة بأي شكل، فيما عدا التعليم أو العمل لدى مؤسسات حكومية، كما الملايين من الناس. سيتعرض لتلفيق منظم ذكي، اتهامات وأدلة ملفقة توحي بأنه تاجر مخدرات، أو تاجر أعضاء بشرية..... دعك من التهمة الأخيرة، هي ليست تهمة على أي حال، أظن أن الأفضل تلفيق فضيحة جنسية، تسهيل دعارة مثلاً، إدارة عيادته الخاصة كبيت للدعارة، ممارسة جنسية مع بعض مريضاته، تصوير ما يحدث بالفيديو.

@3abeth

أفلام وورديات مراقبة، وشهادات ضباط ملفقة، كل هذا سيصب في لائحة طويلة من الاتهامات، لتلقى الشرطة بالقبض على الطبيب المذكور، وهنا يأتي دور الإعلام المستقل.

هل يمكن نشر مثل ذلك في الإعلام الخاص بنا؟ بالطبع لا، الإعلام الحكومي له هيبة ووقار، ولا يمكن بأي حال تلطيخه بأخبار تافهة كهذه إلا في حالات الضرورة القصوى، وهذه ليست ضرورة بالطبع، الهدف الأساسي وعظ الناس. وكما قلت، العظة الفردية هدفنا في هذه الحالة.

أنتم سمحتم بإنشاء صحافة خاصة على أمل خلق صحافة صفراء حقيقية، الصحف التي تتغذى على فضائح الناس، على صور المجتمع العارية وأخبار الحفلات والطلاق وغيرها. أيضاً، هذه الصحافة سند للحكومة في كل وقت، وبالطبع أفضل واعظ للناس، تعظهم عن طريق التشهير بغيرهم.

صور واسم الطبيب ستشغل صفحات تلك الصحف، ولا مانع من تسريب خبر أو اثنين في الصحافة الحكومية، يمكن أن يكتب الخبر بصيغة مقتضبة صارمة، لافتعال الحياد من جهة، ولإظهار مدى قذارة الحادث من جهة أخرى، الإطناب لا يؤدي إلى نتائج حسنة في كل الأوقات، بينما

@3abeth

الغموض والاختصار يثيران الرهبة في نفوس القراء. إذن، سيدور الطبيب على الأقسام، والسجون، ويتعرض للاستجواب على أيدي رجال الشرطة، ويتعرض للاضطهاد في الحبس والزنازين، سيوحي المحيطون به بوجود مؤامرة فعلاً، لكنها صادرة من شخص قوي، ضابط مجهول في الوزارة، بغرض التشويه، رداً على صراع حدث بين صديق أو قريب للضابط وبين الطبيب المتهم، صراع على شقة، قطعة أرض، سيارة، ترقية وظيفية، أو حتى مكان صف سيارة كل منهما. كلما بدا موضوع الصراع أكثر تفاهة كلما زاد التأثير على الناس.

لكن الإيحاء بوجود سبب كل هذه المصائب سيأتي في مرحلة متأخرة، يهمني في البداية السرد والوصف التفصيلين لما حدث في العيادة، ذكر الفضائح الجنسية بالتفصيل، إضافة بهارات أخرى مثل تعاطي المخدرات، أو شرب الخمور، الخمور أكثر مصداقية، أكثر تأثيراً، المصري يعرف أن المخدرات ممنوعة قانوناً، لكن الخمور حرام شرعاً. والثانية أسوأ كثيراً من الأولى. كل هذا سيتم ذكره وتكراره في الصحف المستقلة، كما قلت، لا شأن للصحافة الحكومية بهذا إلا في خبر مختصر.

بعد أن يفقد الرجل كل شيء، السمعة الطيبة والعمل والصداقة والجيرة وربما الأقارب، سيتم توجيهه تلقائياً

@3abeth

للنيابة، تمهيداً لتحويله للمحاكمة، وأود أن يتوقف التحريض في تلك اللحظة، ستتوقف كل الأقلام وسيصمت كل المحررين والمحققين، ستمتنع الصحف عن الحديث. سيتحرك وكيل النيابة والقاضي وفقاً للقانون، وفقاً لما يراه مناسباً، لا ينبغي إلغاء الأمل تماماً، تذكر دائماً يا صلاح، خروج الرجل بلا إدانة قانونية مهم للغاية، هذا أفضل ما في الموضوع، لو أدين فعلاً لضاعت العظة. ترك الأمر بين يدي وكيل النيابة أو القاضي يدل أيضاً على استقلال القضاء، على أن الهيئة القضائية في مصر لا تدار من الأعلى، لا تدار بحسب هوى العاملين فيها، الهدف هنا ليس التشهير بالقضاة، الهدف أيضاً ترسيخ مبدأ عدم التعليق على أحكام القضاء، ألم يقل الرئيس مبارك ذلك يوماً "لا تعليق على أحكام القضاء".

في أغلب الأحوال، بل ربما في كل الأحوال، ستتم تبرئة الرجل من التهم المنسوبة إليه، بل ربما لن تصل القضية للمحكمة، ستتوقف عند وكيل النيابة، بالطبع، تلفيق التهم يكون في العادة بالغ الوضوح أمام وكيل النيابة، وقد ينفعل وكيل النيابة ويكتب في مذكرته أن أقوال وشهادات الضباط جوفاء وهزيلة ولا ترقى لمرتبة الدليل، مديناً الشرطة، ظاناً أنه بذلك يبرئ ساحة الرجل تماماً، بينما هو في الحقيقة يساعدنا في عملنا.

@3abeth

وماذا بعد ذلك؟ سيعاني الطبيب كثيراً، فبعد نشر عشرات التحقيقات الصحفية والأخبار عن وقائع اتهامه، سينشر خبر واحد في الصحف لإبراء ذمته، خبر صغير ضئيل لا يتجاوز الخمسة أسطر. وبالتأكيد لن يعيد هذا الخبر للطبيب سمعته المهدرة المشوهة. سيحاول الطبيب أن يحاور صحفيين، ومقدمي برامج تلفزيونية، وسيعرض أوراق تبرئته في كل مكان، ستزداد مكاسبنا أكثر وأكثر، لكنه لن يكون قادراً على ممارسة عمله بعد ذلك، لن يتمكن من الاحتفاظ بعيادته، لن يتمكن من العودة للمستشفى بنفس الحماس القديم، حتى وإن اقتنع الناس ببراءته، سيظل هناك واحد أو اثنان مقتنعان بفساده. سيظل الكلام القذر دائراً وسط الناس إلى الأبد. ربما سينتهي به الأمر إلى الفشل التام، إلى البقاء في بيته بعيداً عن الناس، أو إذا كان صاحب مال وإرادة، سيسافر خارج مصر، لن يستريح إلا بالهروب من مصر. وهو بالطبع أفضل الحلول بالنسبة لنا.

لم كل هذا يا صلاح؟

من الضروري ترسيخ فكرة وجود مواطن غامض في مصر، يستطيع بتجميع بعض الأوراق أن يدمر حياة مواطن آخر، المواطن الغامض هنا لا يجب أن يكون ضابطاً، أو زميلاً للطبيب، أو جاراً له. تذكر أن المواطن الغامض غير موجود أصلاً، لكن فكرة وجوده هي المهمة هنا.

@3abeth

الطبيب ليس عدوا لأحد، ليس عدوا للحكومة على أي حال، لكن مقدار الظلم الواقع عليه يوحي بقوة باطشة غاشمة لا حدود لها. تضغط على الطبيب لمجرد التشهير به، يجب أن يصل هذا المعنى للناس، التشهير هو الغرض من الموضوع كله، والهدف في النهاية تدمير حياة الطبيب، يجب أن يدرك الناس في النهاية أن القضية كلها ملفقة، بواسطة ذلك المواطن الغامض. تفاصيل التحقيقات والأحاديث الصحفية، صورة الطبيب واسمه، حديث زوجته، صور المبنى الذي يحوي عيادته، كل هذه رسائل خفية للمواطن الفرد، نعم يا عزيزي العضو في الطبقة المتوسطة المحترم، يا روح أمك، قد يحدث لك مثل هذا، نحن هنا أمام قضية فرد، وليس قضية جماعية كما كنا نفعل سابقاً، لا نضرب خلية شيوعية ليرتعب الشيوعيون، لا نعدم إسلامياً ليخاف الإسلاميون، نحن نشوه مواطناً، فرداً عادياً تماماً، لنعظ أفراداً عاديين مثله. يجب أن يتساءل المواطن في النهاية، ماذا لو حدث لي مثل هذا؟ هل يمكن أن أنام في الزنزانة؟ ماذا إذن عن المعارضين السياسيين، والإخوان المسلمين، والصحفيين، والمعرضين للشبهة، ومتعاطي المخدرات؟ نعم يا عزيزي المواطن الأفندي المحترم صاحب الملابس النظيفة، فحتى لو كنتَ مواطناً مثالياً مستقيماً تماماً، يمكن ببساطة تلفيق مجموعة من التهم وتدمير حياتك، فما بالك لو كنت مجرماً مثل الإخوان المسلمين أو المعارضين السياسين؟

@3abeth

هذه القضية ستستقر في لاوعي الناس لمدة طويلة، بكل تفاصيلها: الأيام الطويلة التي قضاها الطبيب في سجنه، الادعاءات "الحقيقية" التي تم سردها في الصحف، وصورته واسمه اللذان تسربا إلى الصحف أو مواقع إنترنت، ثم البراءة المختصرة المقتضبة، كل هذا السيناريو سيسري أمام أعين الناس في كل مرة يفكرون في الشأن العام، في شأن الحكومة، أو في علاقات الحكومة الخارجية، بل، في كل شأن غير شأنهم الخاص.

الخوف يا عزيزي هو الحل، حتى الأنظمة الموبوءة بالديمقراطية تسيطر على شعوبها بالخوف، تلك الغريزة الأساسية، التي تتحكم في أذكى الناس، يعتمدون على خلق عدو، يهدد الشعب بالدمار، بالانهيار الاقتصادي، بالانهيار الأخلاقي، بالموت. يعتمدون على توجيه الخطاب للشعب بأكمله، للفت نظرهم إلى البعبع الكامن هناك، في المكان البعيد المجهول، البعبع الذي يرعب الشعب، الخوف الجماعي دائماً أكبر وأخطر تأثيراً من الخوف الفردي، الجماعي يتعاظم كلما زاد عدد الخائفين. هؤلاء يساعدون على تضخيم الخوف أيضاً، يساعدون على خلق أبعاد أخرى للخوف، يساعدون بلاوعيهم الجماعي على تضخيم البعبع.

لكن للأسف، من حين لآخر، تفشل خطة السيطرة عن طريق الخوف، الديمقراطية تُفشل خطة الخوف، صوت

@3abeth

الناخب عامل مؤثر يا صلاح، صوت المواطن في انتخابات الرئاسة مؤثر فعلاً.

لا أعلم لم أسرد لك هذا الكابوس، كابوس الدولة الديمقراطية، لكني في بعض الأوقات أستسلم له، وأظل أرسم سيناريوهات سوداء لما قد يحدث إذا أصبحنا ديمقراطيين.

هذا الحديث يؤدي إلى حديث آخر، العقاب.

ولا أقصد به العقاب المعروف، الحبس والغرامة وغيرهما، هذه أحكام ينص عليها القانون، يمكن الطعن فيها، يمكن استئنافها، وأيضاً معارضتها، وقبل نطق الحكم، هناك سلسلة طويلة جداً من التحريات الشرطية، والادعاءات النيابية، ومرافعات النيابة والدفاع، وسماع أقول الشهود. كل هذا سيلصق سلطة إنزال العقاب بالمحكمة، بالقاضي، وفي نظر بعضهم، بالنظام القضائي متكاملاً، وهو ما لا أقصده.

أنا هنا أقصد العقوبة الفورية، تلك التي لا يسميها القانون ولا يعترف بها، مثل الضرب والسحل والجلد، هناك أيضاً؛ الصعق والحرق والاغتصاب. هذه عقوبات شديدة التأثير، وتأثيرها لا يتوقف عند الضحية فقط، لا

@3abeth

يجتازه ليصيب عائلته فقط، بل يمتد إلى كل مواطن سيسمع بحكاية التعذيب تلك.

انتبه لكلامي يا عزيزي صلاح، أنا أقول الضحية، لأن المتعرض لهذه العقوبات لابد وأن يكون مظلوماً، إذا كان مذنباً طبقاً للقانون، فلم لا نترك القانون يعاقبه؟ إذا لم يكن القانون كافياً لعقابه، فلم لا نبدل القانون؟ أليس هذا في أيدينا؟ لكن القانون لا يعاقب كل الناس، هناك من سيستطيع الهرب، هناك أيضاً من لم يكسر القانون، لكنه كسر الدولة، أو كسر سلطتها، أو كسر سلطة رئيس الدولة، محرض، عميل، يساري لعين، أو إسلامي إرهابي. شخص تجاوز أحد الخطوط الحمراء، ولا يمكن لأحد أن يتجاوز خطوطنا الحمراء.

نعم، هو ضحية، لا مفر من استخدام الكلمات الصحيحة، وكما تعلم؛ لكل نجاح ضحايا.

يجب تنفيذ مثل تلك العقوبات في قسم الشرطة، بعيداً عن أي كيان قضائي، أيضاً، لا يمكن عقابه في الشارع، لا يمكن تجريسه كما كان يحدث قديماً. تلك العقوبات لا يمكن أبداً إنزالها على الضحية في العلن، أتعرف يا صلاح، يمكنك أصلا ألا تعاقب، يكفيك فقط أن تعلن أن العقوبة "تلك" قد تم تنفيذها، سيسرب أحد المخبرين خبر ضرب

@3abeth

فلان في القسم، أو نفخه أو صعقه. معاقبة "الضحية" داخل غرفة الحجز، داخل السور، بعيداً عن الأعين، وسط أغراب، تحت سلطة الدولة، فوق أرض مجهولة، بين ساديين لا يرحمون، كل هذا، سيثير خيال الناس المريض، سيخيفهم، ستعود للعب على الغريزة الأساسية: الخوف. أما إن عاقبته في العلن، على مرأى من الناس، فستقع في الفخ الذي أسقط امبراطوريات كثيرة، فخ التعاطف مع الضحية.

بالطبع يمكنك إضافة البعد الجنسي للأحداث، المصريون يعشقون الجنس، فكرت كثيراً في مدى ارتباط الجنس بالتعذيب في عقول المصريين، فما وجدت أي روابط. اربط بين هذين: الرعب والجنس، لن ينتصب رجل في سريره إذا ما تذكر ما سمعه – من تعذيب فلان جنسياً- على القهوة قبل ساعتين.

مثلاً: فلان اغتصبوا زوجته أمام عينيه، هذه ممتعة ومؤثرة. مثلاً: فعلا اغتصبوه... لا... هذه قد توحي بشذوذ رجال السلطة، خذ هذه: فلان أدخلوا "أي شيء" في مؤخرته، أهانوه كما تهان النساء. والأكثر إمتاعاً، الأكثر إثارة، والأكثر عبقرية، تلك الشائعة التي انتشرت منذ عدة سنوات أثناء تعاملنا مع وحش الإرهاب التسعيني: فلان حقنوه بدم ملوث بالإيدز. أوف! ضربة معلم يا صلاح! يعني ذلك: ١- سيُحرم الرجل من زوجته إلى الأبد، ٢- سيتم

@3abeth

وصمه بعار المرض القذر طيلة حياته، ٣- سيموت بالتدريج. وحتى إذا لم نحقنه فعلاً بالفيروس، حتى لو كان ما حدث مجرد كلام، من سيصدقه ويكذب الحكومة؟ سيصبح مصاباً بالإيدز حتى لو لم يكن مصاباً به. ضربة قاضية يا صلاح.

كما ذكرت، العقوبة السرية تثير خيال المستمعين، كما أن العقوبة العلنية قد تثير تعاطفهم مع الضحية، وتؤلبهم ضد الحاكم. انتبه يا صلاح، عليك أن تطعن بسيف خفي، لا أن تضرب بخيزرانة مرئية.

@3abeth

إميدج

مدير شركة التأمين لا يرتجل، بل يخطط لعمله بدقة وموضوعية وإخلاص، يعيد قراءة خططه ويدقق في محتواها وخطواتها، يضع خططاً بديلة لكل خطة، لأن فشل خطة أمر وارد، لكن فشل العملية مستحيل، ثم يضع خطوات بديلة لخطوات كل خطة. في النهاية يرسم كل خططه في صورة خريطة شبكية هائلة، هذه طريقة غربيّة تعلمها في الخارج، ولا نفهمها في مصر. يقوم بذلك ليسهل عليه تعديلها وتصحيح مساراتها مع الوقت.

المدير معتاد على مناورة الجميع، عملاء، رؤساء، مرؤوسين، يناور لمجرد المناورة، حتى لو كان الأمر لا يحتمل المناورة، فإنه يناور. حتى الآن لم يتخذ قراراً بخصوص نعيم، يكاد يتمزق من فرط الغضب والغيظ، يعلم تماماً أن نعيم يخدعه، وأن عليه أن يتلاعب وأن يناور حتى يجهض خطة نعيم. المدير غاضب لأن نعيم تجرأ وأقدم على هذا العمل، لكنه يبدو هادئاً وغير مضطرب، يتظاهر بذلك حتى لا يفقد صورته أمام مرؤوسيه، هذا جزء من المناورة التي يمارسها يومياً. تعلم المدير أن الصورة أهم من كل شيء، يمكنه أن يدير الشركة بكاملها

@3abeth

بمجرد الحفاظ على هيئته الخارجية، بمجرد الحفاظ على صورته أمام من حوله. لا يرى أن كلمة "صورة" تنقل المعنى، اللغة العربية قاصرة في هذا الشأن، اللغة العربية لغة وصف وليست لغة أفكار، والصورة التي يقصدها المدير ليست مجرد شكل خارجي، بل هي فكرة في رؤوس الآخرين، لذلك هو يفضل أن ينطقها بالانجليزية؛ يسميها :إميدج، يقول: ماي إميدج، يور إميدج، ذي لوكال إيمدج، ذي جلوبال إيمدج. يقولها في سره، في داخله. لا يعلن للناس فكرة الإميدج أبداً، إميدج المدير قد تُخدش إذا ما أعلن عن فكرة الإيمدج. أيضاً قد يلفت أنظار من حوله إلى الحفاظ على إيمدجهم، إلى الانتباه لأهمية إيمدجهم. وهو ما سيؤدي إلى تنافس إيمدجي قد يكون غير محمود العواقب.

إيمدج المدير مبنية على كمية المعلومات الخاصة به، والتي يعلنها لمرؤوسيه؛ سكنه في جاردن سيتي، الحي الراقي الأصيل، عمارة قديمة بتصميم أرت ديكو، عندما يتسمر الواحد أمامه غير فاهم ما يعني، يشيح بيده ويخبره أنه طراز معماري انتشر في الأربعينات، يصمت قليلاً ويمسك ساعده الأيسر بقبضته اليمنى ويوضح للواحد الغبي الماثل أمامه أن العمارة بنيت عام ١٩٤٧. يصمت وينتهي الكلام في الموضوع، مبرزاً أهمية المبنى والمكان ككل. لكنه لا يعلن أبداً أنه يعيش مع والديه المسنين، خبر كهذا كفيل بتحطيم إيمدجه بشكل كامل. سيارته جديدة دائماً؛ لأنه يبدلها كل عام بسيارة أخرى جديدة. يعلن للجميع أنه اقتنى كل أنواع السيارات، عندما كان الناس يقتنون ال ١٢٨ اقتنى هو الريتمو، ولما بدأت موضة النيسان في الظهور اقتنى هو

@3abeth

البي إم. الآن يفضل السيارات المتوسطة السعر، يبدلها كل عام، يجب أن يفكر بطريقة اقتصادية، فهو مدير على كل حال. موضة ملابسه متوسطة، بين الكلاسيك والكاجوال، في منتصف الطريق تماماً. يستغل إجازاته الكثيرة في سفر كثير إلى أوروبا، لا يسافر إلى الساحل الشمالي أو حتى شرم الشيخ، هذا ليس سفراً، السفر رحلة إلى خارج البلاد.

وعلى الرغم من أن المدير أصبح على يقين من أن نعيم حي، أن وليد يغشه، أن شهادة الميلاد مزورة، وكل شيء ملفق. كل شيء مفتعل. وعلى الرغم من أنه سيناور نعيم ووليد وسيؤكد لهما أن مجرد التفكير في خداعه أمر له عواقب مؤلمة. إلا أنه يريد الاستمرار في التسلسل الطبيعي للأحداث، في النهاية، سيقوم بصرف قيمة التأمين للولد والأخوات والأرملة... يقصد "الزوجة"، فكلمة "أرملة" غير ذات معنى في حالة نعيم.

يحترم المدير هنا قانون الموظفين، هذا القانون الذي يجبر الموظف على كسر كل ما عداه من القوانين. قانون الموظفين مكون من فقرة واحدة: ١- لا تضر زميلك الموظف. يعلم المدير أن هناك موظف سيضار لو صعّد الأمر للنيابة، لو أوقف صرف قيمة التأمين، هناك موظف مُرتش سهّل عملية التزوير، هناك موظف متواطئ مع نعيم ووليد، هناك موظف وقع على تصريح الدفن وهو عالم بأن نعيم حيّ، واحد من هؤلاء سيتم طرده من وظيفته، وربما قد يُسجن، وهو عمل يُرعب المدير.

@3abeth

المدير يؤمن بأن موظف الحكومة ليس أسوأ منه كثيراً، هو العامل في القطاع الخاص، موظف الحكومة يملك عقلاً وملكات وذكاءً مثله تماماً، لكنه اختار طريق الميري، لا سبب معين لذلك، وأفضل ما في الأمر، أنه سيستمر في طريق الميري حتى مماته، لن يدخل في مجموعة المنافسين، جيش الموظفين الذين يحاولون منافسة المدير، والاستيلاء على وظيفته، بفرق الخبرة والتعليم والشهادات والدورات التدريبية، الموظف الحكومي عبء ضخم، لكنه بعيد تماماً عن المنافسة. وعلى سبيل المكافأة، ألا يسمح المدير له برشوة صغيرة، بحفنة من الجنيهات ـ ليست من نصيبه على أي حال ـ لكنها ستفيد الموظف الحكومي؟ المدير الآن لا يتجنب ضرر زميله الموظف فقط، بل هو يعينه على أعباء الحياة، يمرر الرشوة ليظل الموظف الحكومي بعيداً عنه، يتواطأ مع الموظف الحكومي ليظل الموظف الحكومي سائراً في طريق الميري. والأهم من ذلك، يحافظ المدير على قانون الموظفين الأزلي.

لكن المدير لن يستسلم بسهولة، لن يترك التسلسل الطبيعي يتسلسل بسلاسة، سيتسلسل نعم، لكن بعسر وثقل هائل، سيحول السلاسة التي اشتهرت بها الشركة إلى "ثقل في المحتوى والمضمون" إلى عسر هضم وألم في قولون نعيم لن ينجيه منه أي ملينات أو مسهلات أو حتى مضادات للحساسية والالتهاب، حتى الكورتيزون لن ينجيه من ثقل المدير. سيحافظ المدير على إيمدجه بهذه الطريقة، أمام رؤسائه ومرؤوسيه، سيبدو أمام مرؤوسيه في إيمدج المدير الذي لا يرحم، الذي يتعامل مع كرامة الشركة على أنها جزء من كرامته الشخصية. سيتحول

@3abeth

أمام رؤسائه إلى إيمدج البطل الذي يقاوم اللصوص إلى آخر لحظة، ومع ذلك سيحتفظ بإيمدج المدير المحافظ على القواعد والاشتراطات. المحافظ على قانون الموظف. نعم، سيصرف المدير قيمة التأمين، لا جدال في ذلك. لكن بعد تجربة كل أنواع العراقيل.

هو الآن في خضم معركة رهيبة، عليه أن يستخرج من العراقيل ما يعطل به نعيم، طريقة بالغة التعقيد، بالغة الصعوبة، لا يمكن لنعيم أن يفلت منها، إلا بعد شهور من التعب والبحث، لا يمكن لوليد أن ينتهي من الإجراءات الآن، إلا بعد أن ينفق قيمة التأمين كاملة على الأوراق المطلوبة.

بعد طول تفكير، يدرك أن الحل يكمن في البساطة، في تلك الورقة التي سيطلب من وليد استخراجها، المختبئة بين أوراق عديدة، تبدو سهلة المنال لكنها تكاد تكون مستحيلاً رابعاً.

بهدوء وروية، يبدأ المدير في كتابة أسماء مجموعة من الأوراق المطلوبة من وليد، قائمة قصيرة مركزة، لكنها صعبة المنال، كل ورقة منها تحتاج إلى خبير بيروقراطي. وبين الأوراق واحدة يستحيل الحصول عليها إلا بمعارف فوقية. هذه هي الورقة الذهبية، تكاد تكون مستحيلة الصدور.

سيأتي وليد بعد مرور الأيام الخمسة، مقتنعاً أن كل شيء على ما يرام، لكن الموظف سيناوله الورقة الصغيرة ليصيبه بالإحباط. سيقتله خلال دقيقتين، لكن وليد بروحه الشابة سيستعيد الأمل، وهو

@3abeth

يظن أنه سيحصل على كل الأوراق خلال أيام قليلة. أسبوع على الأكثر، ربما سيستغرق وليد أكثر من عدة أيام، من أسبوع، وليد يقترب من الثلاثين، لكن هذا السن لا يعني أي نوع من أنواع الخبرة بالبيروقراطية المصرية. لكن الورقة الأخيرة ستبقى في النهاية، لن يستخرجها إلا عالم فوقي بيروقراطي.

يفكر المدير في مدى احترافه، في قدرته على العرقلة، لكنه يلوم نفسه لأنه استغرق وقتاً أطول من المعتاد في التفكير، فكر كثيراً حتى توصل إلى هذا الحل، ولم يمل إلى جانب البساطة المستحيلة من البداية، على كل حال، هذا لا يهم، فكثرة التفكير لا تضر بالإيمدج، والتيه وسط الأفكار لا يشوه الإيمدج. ها هو قد ارتاح بعد أن أنهى قائمة الأوراق، بعد أن وضع السيناريو الملائم، بعد أن تخيل نعيم ووليد تائهين في متاهة الأوراق. ويعود الآن للتفكير في إيمدجه.

@3abeth

وهيب 2

مع أول أعوام وهيب وهيب وهيب داخل الدكان، قرر نعيم أن يترك الدكان نهائياً.

كان قد سمع عن مئات العاملين في مهن أخرى، النجارة، السباكة، أشغال الحديد. كان يسمع أرقاماً تدير رأسه، يحصلون على أضعاف ما يتلقاه في الدار، وإذا طال عملهم بعد الخامسة مساءً، تلقوا ما يعادل نصف يوم، سهرة. نعيم كان أول من خرج من الدكان من العاملين، وبدا للجميع وقتها أنه مغفل.

حزن فرج كثيراً عندما سمع نعيم وهو يطلب منه السماح بالمغادرة، قال إنه لن يعود، سيعمل نجاراً. لما رآه نعيم حزيناً هكذا طيّب خاطره، قال إن النجارة لا تختلف كثيراً عن التجليد، نحن نجلد الكتب، وهم يجلدون الملابس والكتب والورق والقماش. وكل ما يمكن احتواؤه في الأخشاب. قال إن المُجلد يستخدم الورق والغراء والقماش، والآخر يستخدم الخشب بدلاً من الورق، والمسامير بدلاً من القماش، والغراء عامل مشترك بينهما. لا تحزن إذن.

@3abeth

لكن فرجاً اشترط على نعيم شرطاً واحداً، قال إنه سيبقى في الدكان حتى يجلِّد "نصيحة الملوك" تجليداً كاملاً، لن يقبل بأقل من المستوى الممتاز، سينتظر أيضاً حتى يُباع الكتاب، سيضعه في الواجهة الزجاجية، "الباترينة" كما كان يسميها فرج، وسينتظر الكتاب زبوناً محترماً يدفع ثمنه كاملاً. هذا كتاب نفد من المكتبات منذ مدة، وسعره مرتفع اليوم.

كان نعيم قد جلد الكتاب تجليداً ممتازاً منذ أسابيع قليلة، كانت تسع سنوات قد مرت منذ أن حاول تجليده لأول مرة، اليوم، وهو يسلم الكتاب لفرج، كان واثقاً من رضاه، واثقاً من قبول التجليد، وواثقاً من كلمة "ممتاز" التي ستخرج من فم فرج خلال دقيقة واحدة.

قلب فرج الكتاب بين يديه، وتأكد من كل التفاصيل التي ترفع الكتاب إلى مصاف الكتب الممتازة، حتى "الحمصاية" الصغيرة، تلك الكتلة الدقيقة من الغراء والجلد، والتي تظهر في ركن التجليد الداخلي، لتحجز الزاوية القائمة لورق الكتاب، وتحافظ على الأوراق مضغوطة، حتى لا تفلت من غراء أو خياطة الكعب. صنعها نعيم على أكمل وجه. كانت تلك أحد أسرار فرج، التي لم يخبر بها أحداً طوال الوقت.

أمام وهيب وهيب ونجله وهيب، وضع فرج الكتاب الممتاز في الواجهة الزجاجية، استدار لنعيم، أخبره أنه سيكون حراً في المغادرة حينما يُباع الكتاب الممتاز. أما قبل ذلك، فهو لا يزال صنايعي في الدكان.

@3abeth

بعد أيام قليلة، توقف شاب أمام الواجهة، تأمل ما بها لفترة قصيرة، ثم دخل الدكان ليسلم على الوهبيين، تبادل الضحكات والقبض على الأكف مع وهيب الكبير، وتبادل العناق مع وهيب الصغير، وكأنما هي علاقة ثلاثة إخوة، احتار الصنايعية، هل الشاب صديق وهيب الصغير كما يوحي سنه، أم هو صديق وهيب وهيب. تجول قليلاً بين الطاولات، ثم سأل فرج عن نصيحة الملوك الموضوع في الواجهة الزجاجية، أمسك الكتاب، وأخذ يقلبه، قرأ الفهرس، قرأ جزءاً من المقدمة، ثم ترك المحتوى وأخذ يتأمل التجليد، رفع رأسه لفرج وسأله عن السعر.

قبل أن يشتري الشابُ الكتاب، عندما كان لا يزال يدور في التردد ، أشار فرج للأسطى نعيم، وقال إنه من جلد الكتاب هذا التجليد الفاخر، أخبره أن نعيم عمل به سنوات عديدة حتى يصل إلى هذه النتيجة الكاملة. ابتسم الشاب، قال إن اسمه نعيم أيضاً، وهو - مثل نعيم - حريص على إتقان عمله. كان تشابه الأسماء رسالة من السماء لكلا النعيمين، أنقد نعيم فرج المال المطلوب، صافحه، ثم رفع يده لنعيم الآخر محيياً إياه، بادله نعيم التحية بهزات من الرأس والكف، ثم خرج نعيم حاملاً كتابه. وفي آخر النهار، في يوم من أيام عام ١٩٧٢ ، خرج نعيم إلى ورشة النجارة.

توفي وهيب وهيب بعدما ترك نعيم الدكان بسنة تقريباً، قبع وهيب وهيب في الدكان، كل يوم يأتي في العاشرة صباحاً متأبطاً جريدة، يظل يقرؤها حتى الثانية عشرة، ثم يدور في أرجاء الدكان حول فرج وطاولات العمل ساعة أخرى، ثم يمضي خارجاً في الواحدة

@3abeth

ظهراً. كل يوم، طوال أيام السنة. وهيب وهيب وهيب أكثر من في الدكان غموضاً. لم يهتم يوماً بإدارة الدكان، لم يوص فرج أبداً بالتوفير أو التقتير، ولم يسأله يوماً عن مقدار الإيراد، لم قلّ فجأة، أو لم زاد في الفترة الأخيرة. يأخذ الإيراد من فرج آخر الشهر، مخصوماً منه إيجار الدكان واستهلاك الكهرباء والماء والتليفون، فيدفع له مرتبه، ثم يأخذ الباقي، الذي هو أقل من القليل، ويمضي خارجاً من الدكان. لم يعلم فرج كيف يعيش وهيب بهذا المبلغ القليل، لم يجد فرج إجابات على أسئلة كثيرة؛ هل هو متزوج، أين يعيش، ماذا يأكل، هل هو سكير كعادة القبط؟ ظل فرج لسنوات طويلة يفكر في حال وهيب وهيب وهيب، لكنه في النهاية يأس من محاولة فهم كيفية عيشه. وتركه لحاله.

دخل وهيب وهيب وهيب الدكان عندما كان والده على قيد الحياة، وهيب وهيب كان كتلة من النشاط. يشرف على الصنايعية الأربعة العاملين في الدكان، يستمر في متابعة أعمالهم واستلامها بعد الانتهاء منها، من التاسعة صباحاً وحتى الخامسة مساءً، ويظل متواجداً في الدكان حتى التاسعة، يتلقى الطلبات الجديدة ويسلم الكتب التي تم تجليدها، كان وهيب وهيب مديراً بحق. يرى أن المدير الناجح هو من يتابع العمل خطوة بخطوة، هو الذي يكتشف الخطأ قبل وقوعه، أو على أسوأ تقدير فور أن يقع، لا من يكتشف الخطأ حين يسلم الكتاب لصاحبه. خلال فترة حياة وهيب وهيب، لم تحدث أية أخطاء، إيراد الدكان كان مرتفعاً، أطنان من الورق والمشمع والجلد والقماش كانت تدخل الدكان سنوياً، لتخرج بعد أسابيع في هيئة أغلفة للكتب.

@3abeth

لكن كل شيء تغير مع وهيب وهيب وهيب، كان صامتاً معظم الوقت، لا يفتح فمه إلا ليقول جملاً بليغة لا تحتمل إلا الصدق والصواب، تلك الجمل كانت قليلة ومكثفة لدرجة أن كل العاملين أيقنوا أنه أذكى كثيراً من أبيه، أكثر هدوءاً وتركيزاً، وحين يمر عليهم، يمر وكأن هناك ستار بينه وبينهم، لا يتدخل في عملهم كما اعتاد أباه من قبل، بل يلاحظ فقط ما يحدث، وفي بعض الأحيان، إذا أخطأ أحدهم خطأً قاتلاً، أو إذا أوشك أحدهم على الخطأ، كان يكتفي بهز رأسه أسفاً، أو يقلب شفتيه في امتعاض، ويتجمد في مكانه لبرهة وجيزة. هذه الأفعال كانت تلقي بالرعب في قلوب الصنايعية والصبيان. بدا أن وهيب وهيب وهيب وُلد ليدير الدكان. لكنها إدارة حديثة، من بعيد، تكتفي بالإشارة والنظرة.

مع الوقت، وتدريجياً، تسرب الصنايعية خارج الدكان، يذهب بعضهم للعمل في دكاكين أخرى، يذهب البعض للعمل خارج مصر، أو ببساطة يتقاعد بعضهم حينما تروح قوتهم وتضعف سواعدهم. تسرب الصبيان أيضاً طمعاً في أجر أكبر، في أعمال أخرى تتعلق بالبناء والصناعة والميكانيكا. خلال خمس سنوات من إدارة وهيب وهيب وهيب، لم يتبق في الدكان إلا فرج، تزامن ما حدث مع عزوف الناس عن شراء الكتب و قراءتها ، وبالتالي عن تجليدها، تزامن أيضاً مع إهمال وهيب وهيب وهيب لفكرة تجليد كتب شهيرة ورصها في الواجهة الزجاجية، رأى الصنايعية أن الفكرة لم تعد صائبة في هذا الزمن. وافقوا وهيب وهيب عندما ألغاها.

@3abeth

وفي أحد الأيام، بينما يجلد فرج أحد الكتب، نظر حوله، تطبيقاً لنصيحة مستمرة في ذلك الزمان، فوجد الدكان خالياً ممن سواه، وهو منتهى مراد صاحب النصيحة. ثم نظر إلى كرسي وهيب وهيب وهيب ومكتبه الخاليين، فالساعة كانت تدور في الثالثة عصراً، كان وهيب وهيب وهيب قد غادر الدكان منذ مدة. وكبرق ضرب دماغه، فكر فرج أن وهيب وهيب وهيب حمار.

صمته هذا لم يكن دليلاً على الذكاء والحصافة، لم يكن أحد سمات الإدارة الحديثة، وإنما علامة على الجهل، امتعاضه وأسفه لم يكونا لخطأ من الصنايعية، وإنما كان يفعل ذلك كل حين وآخر، ليوحي لهم بأنه فاهم ما يحدث حوله، صادف الأسف خطأ من الصنايعي أم لم يصادف. إلغاؤه لفكرة الكتب المجلدة كانت أكبر الأخطاء، فالواجهة الزجاجية خالية الآن تماماً، ولا يضع فيها عم فرج إلا كتباً قليلة تم الانتهاء من تجليدها، تنتظر صاحبها. غياب الكتب عن الواجهة لفت الأنظار بعيداً عن الدكان. أو أن الغياب لم يعد يلفت أنظار الناس للدكان.

فكر فرج؛ وهيب هو من أدى بالدكان لمثل هذا الحال، الرجل الكبير يتقلب الآن في قبره، معذباً مما يحدث، وفرج سيروح في داهية قريباً، لن يقبل به أحد في هذا السن، لن يعمل عملاً مرهقاً وقد شاب شعره، راح كل شيء، ولم يدرك فرج ذلك إلا متأخراً جداً.

@3abeth

عزيزي صلاح،

لابد أنك لاحظت، من خلال عملك وقراءتك للصحف، ومن خلال علاقاتك، استجابة الصحفيين ورؤساء التحرير لأوامركم، الأوامر الخاصة بمنع صورة عبد الناصر من الظهور في الصحف. دعني أحدثك قليلاً عن موضوع صورة عبد الناصر.

صورة عبد الناصر مدهشة يا عزيزي، وأنا لا أعلم لم تحمل صورته كل هذا الزخم، هذا سر من أسراره، أنتم تصدرون تعليمات منذ مدة طويلة بمنع نشر صورته، حتى أثناء الاحتفال بعيد الثورة. صورته ممنوعة من النشر، أو على الأقل، تنشر على مضض، بلا اهتمام أو تقدير. تنشر صورة شخصية صغيرة الحجم، ولا تنشرون أي صورة من صوره، بل تلك الصور التي لا تظهر بريق عينيه، وفمه الحازم، وفكه العريض. والموضوع ليس نكراناً لأعمال الرجل، أو تكسيراً لتماثيله كما كان يفعل الفراعنة، لكنه ـ كما تعلم ـ الخوف من قوة الصورة.

هذه القوة التي تفتقدها صورة السادات مثلاً، أيضاً، وكما أجهل سبب تأثير صورة عبد الناصر، لا أعلم لماذا لا تحمل صورة السادات زخماً وقوة. أنا شخصياً أرى السادات أكثر بساطة، أكثر حيوية، صورته ناطقة حية، بينما صورة

@3abeth

ناصر جامدة وكأنها تمثال يفتقد الروح. فكر معي يا صلاح، هل هذا هو السبب؟ الثبات الأزلي؟ فكرة أن صورة عبد الناصر تحولت لنموذج ثابت لا يتبدل ولا يتغير؟ مثال كامل على الأبدية؟

يوم وفاة عبد الناصر فزع الناس. كنت وقتها أعيش في القاهرة، لكن الناس في مدينتي الصغيرة أخذوا يبتاعون الصحف، كل الصحف، يقطعون منها عناوين الأخبار، يقطعون منها صورة عبد الناصر، صدرت الصحف يومها وقد امتلأت صفحاتها باللون الأسود حداداً على الرجل، كانوا يقصون صوره من الصحيفة، مرفقين بها أكبر مساحة من اللون الأسود، إطار عريض قاتم، أو كلمات بحبر أسود ثقيل، ثم يثبّتونها على جدران الغرف، في الصالة، فوق صورهم الشخصية وتحتها، كانوا يؤطرون صورهم المعلقة على الجدران بصور عبد الناصر، تحولت صورة عبد الناصر إلى تميمة تحمي صورهم، تعويذة لتحمي أصحاب البيوت. إذا دخلت بيتاً في مصر في تلك الأيام لوجدت حوائطه مغطاة بالسواد وصور عبد الناصر. بحسب علمي، كانت هذه أول مرة يحزن المصريون على وفاة حاكمهم.

لم يبك أحد عندما قتل السادات، على الرغم من أن وفاته كانت درامية للغاية، محملة باللم وخيانة العهد. كانت قتلاً بدم بارد في يوم عُرس. مع ذلك لم يحزن لموته أحد، ربما

@3abeth

لأن الناس كانوا حزانى أصلاً، أم لأن كل ما يحدث حولهم أصبح تافهاً، أم لأن صورة السادات لم تكن بنفس قوة صورة عبد الناصر؟

أعمال السادات لم تكن تافهة إطلاقاً، لكنها أيضاً لم تكن محسوبة، السادات ـ كما ناصر ـ أدار البلد وحيداً، كانت ردود أفعاله انفعالية في بعض الأحيان، وباقي قراراته كان يخططها في رأسه بدون أنْ يعلم بها أحداً. أعمال عبد الناصر كانت متهورة وانفعالية أيضاً، كان يستمع إلى آراء مجلس قيادة الثورة، يستشير هيكل وآخرين في أمور كثيرة. ثم يضرب بكل الآراء عرض الحائط، لتصبح القرارات في النهاية صادرة منه فقط، لا من المجلس. لكن ناصر كان سَيئ الحظ للغاية، وللسادات حظ عوالم، على الرغم من فرق الحظ، تم تخليد صورة عبد الناصر، بينما ماتت صورة السادات.

أتدري؟ سأعود مرة أخرى لفكرتي الأولى، تلك الفكرة غير المنطقية تماماً؛ ربما كان ثبات صورة عبد الناصر سبباً في خلودها. لم تتغير هيئة عبد الناصر أثناء فترة حكمه كثيراً، لم تظهر آثار السن عليه، على الرغم من الضغوط والمصائب والمرض والمؤامرات، ظل منتصب القامة، ولما شاب القليل من شعره، أضاف الشيب على وجهه مهابة وعظمة. بينما تغضن وجه السادات كثيراً مع الأيام، تحولت الشاشة

@3abeth

التلفزيونية من الأبيض والأسود إلى الألوان، لتظهر بشرة السادات الغامقة للغاية، كان يظهر بوجه أسود على الناس!، ثم تعاظم النحس عندما أصاب الشيب شعره بطريقة عشوائية جعلته قبيحاً، ثم اكتشف الجمهور صلعته، آه من الصلع يا صلاح، الصلع قاتل السياسيين، السياسي الأصلع كالبطة العرجاء. هل تذكر عدد رؤساء أمريكا المصابين بالصلع؟ خمسة فقط، خمسة من بين ثلاثة وأربعين رئيساً. آخرهم آيزنهور، وربما سيكون آيزنهور الأصلع الأخير على كرسي الرئاسة، الآن يستحيل أن يرشح أحد الحزبين أصلعاً لمنصب الرئيس، مهما كانت كفاءته.

الآن، وببساطة يمكنك الإجابة على سؤالي: هل ماتت صورة السادات لأنها تبدلت؟ بكل ثقة سأجيب: نعم.

تم تفادي كل هذا مع الرئيس مبارك يا صلاح، منذ البداية وأنتم حريصون على صورة ثابتة لا تتبدل، ثم جئت أنا ـ وغيري بالطبع ـ وكنت دائماً أطالب بالحفاظ على الصورة بلا تبديل. انتبهوا للون الشعر، انتبهوا لحدوده على الجبهة والصدغين، انتبهوا لطول الشعر، إذا طال الشعر عن المعتاد فهذا معناه الإهمال وعدم الانتظام في قصّه. إذا قصر عن المعتاد فهذا معناه أن الحلاق تغير، أبعدونا عن التغيير من فضلكم، التغيير قاتل الحكام. وتغيير صورة الحاكم قد يوحي بتغيير الحاكم ذاته. حافظوا على الكف المرتفعة دائماً، كررتها

@3abeth

كثيراً وسأظل أكررها دائماً، الرئيس يحكم مصر لأن كفه العريضة السمينة مرتفعة دائماً، الكف هنا رمز للكرم والقوة والعطف والبطش. أنت بواسطة الكف قد تقتل أحدهم، قد تهينه بضربه على وجهه، قد تحمل بها طفلاً رضيعاً، والناس من حولك يقبلونها اعترافاً بفضلك.

أشهروا إصبع الرئيس دائماً، مرة محذراً، مرة ناصحاً، مرة مداعباً. الإصبع في الكف كالوجه في الجسم. هذه الكف سر النجاح، بينما الإصبع المحذر ما هو إلا العلم المشير إلى الكتيبة، رمز السلطة الأبوية القوية والحانية في ذات الوقت. الكف هي الأساس هنا، ليست معروقة نحيفة توحي بالفقر أو الحاجة، وليست سمينة مكورة بلا معالم، توحي بالراحة والكسل والغباء. بل هي عريضة أقرب إلى الامتلاء، توحي بالحزم والإرادة والقوة الناعمة، علامة على الكرم والعطاء.

اهتموا بالملابس، بالبدلة الأنيقة، كانت خطوة موفقة للغاية؛ تركتم البدلة الصيفي القميئة، هذه راحت منذ زمن، انسوها تماماً، هذه مثال الموظف المصري الغلبان، والرئيس ليس موظفاً، وليس غلباناً.

تعرف يا صلاح؟ تجول في خاطري فكرة رائعة، لكنها شبه مستحيلة، آسف لكن أفكاري الأكثر لمعاناً دائماً ما

@3abeth

تكون شبه مستحيلة. لكنها ممتازة لتأكيد مبدأ ثبات الصورة في عقول الشباب.

ستصورون فيلماً للرئيس، فيلماً سينمائياً. طيب... سأوضح أكثر، ستصورون مقطعاً واحداً من فيلم سينمائي قديم، ملابس وديكور وطريقة تصوير ستينية، أبيض وأسود، دقيقة واحدة ستكفي، سيظهر الرئيس فيها كضابط برتبة متوسطة في الجيش، كما كان فعلاً في الستينيات، سيظهر في مشهد واحد مع عمر الحريري، أو كمال الشناوي، أو أي ممثل آخر، فقط يجب أن يكون الممثل شخصية شهيرة، شاب في ذلك الوقت، لا يزال حياً حتى يومنا هذا، وقد ظهرت على وجهه آثار السن بشدة الآن. بالطبع سيظهران سوياً ـ الممثل والرئيس ـ شابين، لكني أريد أن يظهر الرئيس أكثر نضوجاً، أقرب ما يكون من هيئته اليوم. كل من سيشاهد المقطع، سيقارن فوراً بين شباب وفتوة الرئيس المثالية الدائمة، وبين عجز وتدهور صحة الممثل الآخر، لن تكونوا في حاجة لدفع المشاهد للإحساس بهذا، هذه الفكرة ستبرز تلقائياً، بلا محفزات. أيضاً، ستبرز في العقل الباطن، لن ينطقها أحد، ستظل موجودة في لاوعي المشاهد، وربما مع الوقت، سينسى المشاهد وجه الممثل الشاب، الذي تبدل وتغير على مر السنين، بينما سيظل وجه الرئيس مبارك حاضراً في لاوعيه، ثابتاً لا يتغير، جاهزاً ليبرز

@3abeth

إذا ما انتشر خبر عن مرض الرئيس أو أي قصور في صحته. أنتم بهذا تصنعون تاريخاً بديلاً، تخلقون تاريخاً جديداً.

اطمئن، لن يبحث أحد عن أصل المقطع، يمكنكم دائماً أن تدعوا أن المقطع مأخوذ من فيلم "الأجنحة البيضاء"، إنتاج عام ١٩٦١، أو أي كذبة أخرى، صدمة ظهور الرئيس ككومبارس، في فيلم قديم ستنسي الناس التأكد من وجود الفيلم أصلاً. آه... هناك فكرة أخرى، اجعلوا الرئيس صامتاً طوال المشهد، لا... أظن من الأفضل أن يتكلم الرئيس في المشهد، لكن ستغطي الموسيقى التصويرية على صوته تماماً، لا أريد أن أشتت المشاهد بصوت بشري قد يعيق تثبيت الصورة في لاوعيه. في النهاية، سيسأل الناس سؤالاً منطقياً، لماذا مثّل الرئيس مبارك دور الضابط في هذا الفيلم؟ والسبب واضح بالطبع، أراد المخرج أن يعطي مصداقية للشخصية، فطلب ضابطاً في الجيش ليؤديه، ووقع الاختيار – مصادفة - على الرئيس مبارك.

لكن يا صلاح، كل هذا خيال، أنا أرسل لك خيالات، ولا أطالبك بتنفيذها، صباح الخير.

@3abeth

صمت

جلس نعيم متوتراً في انتظار دكتور هيسم، كانت قاعة الانتظار خالية إلا من الممرض، لا أحد من المرضى هنا اليوم، في الخارج، استقرت على باب العيادة لافتة تشير إلى أن اليومَ عطلة الطبيب، كاد نعيم أن يعود إلى بيته حينما رآها، لكنه تشجع ودقَ الجرس. لما فتح الممرض الباب وأشار له بالدخول، أدرك نعيم أن الطبيب خصص يوم إجازته للقائه.

دخل إلى غرفة الأشياء وكله أمل في الشفاء، كان يود أن يضع الطبيب كفه على فمه ليعيد له القدرة على الكلام، أو يضعها على رأسه ليُشفي مخه المصاب بالعطب، تمنى لو كان ذلك ممكناً حقاً. أيامه السابقة لم تكن سلسة أو سعيدة. كانت حياته تتحول بالتدريج إلى جحيم. لهذا انتظر نعيم الزيارة بكثير من الأمل، أمل زائف خلقه نعيم، حينما رأى مستقبله مظلماً. تعثر نعيم قليلاً حينما بدأ الكلام أمام دكتور هيسم، كان يحاول جاهداً النطق بالكلمات الصحيحة، حمد الله لأنه استطاع التمييز بين كلماته المختلة، وبين كلماته السليمة. بين الجمل المركبة تركيباً عشوائياً، والأخرى ذات المعنى. لكن مخه خانه

@3abeth

كثيراً، خادعه، وجد لسانه ينطق بالكلمات الأخرى رغماً عنه، قاوم نعيم لسانه مرات عديدة، حاول إجباره على النطق السليم، على تجاهل الكلمات الأخرى. معارك طويلة دارت بينهما، لم يربح نعيم كل المعارك. وفي أحسن الحالات، ظل يحاول النطق بالكلام الصحيح لدقائق طويلة، لكن الكلمات احتبست، فلم يتحرك لسانه على الإطلاق. ولما تحرك ونطق، صدرت تلك الكلمات المثيرة لذعر نعيم.

أشار دكتور هيسم بكفه، مهدئاً نعيماً، طالباً منه الصبر. طلب منه في البداية أن يخبره حينما يعجز عن فهم كلمات محدثه، متى سيتوقف مخ نعيم عن استيعاب ما يقوله دكتور هيسم باللغة العربية. أراد هيسم أن يعلم مدى تطور الحالة، أخبره بأن حالته قد تسوء، وقد تتوقف عند هذا الحد. قاطعه نعيم في لهفة، أخبره أن حالته تسوء فعلاً، يشعر بالضياع يوماً بعد يوم، في كل جملة أو كلمة ينطقها، أو كل كلمة يعجز عن نطقها. يخجل من بناته، كان يعلمهن الكلام منذ أعوام قليلة، فأصبح الآن يتعثر في الكلمات أمامهن، وهن يضحكن بروح طفولية كلما سمعنه يتحدث بتلك الطريقة. يخاف نعيم أن تتطور ضحكاتهن من الوقت، لتصبح سخرية مريرة منه.

للمرة الثانية، يخبره هيسم، بكل أسف أن لا علاج له حتى الآن. الحمى قتلت خلايا المخ، ولا سبيل لاسترجاعها. يقتل هيسم الأمل الزائف، علم نعيم ذلك من الزيارة السابقة، صارحه الطبيب بذلك، وظل هو يفكر في مرضه عدة أيام، لكنه خلق أمله الخاص في الشفاء، ثم صار يضخمه ويجسده، حتى تحول أمله المختلق إلى حقيقة،

@3abeth

واقع رآه نعيم حادثاً لا محالة، فقط عليه أن ينتظر أوامر الطبيب وتعليماته، تلك التي ستقوده في طريق الشفاء، دواء "يمشي عليه"، طعام سيمنع من تناوله، رياضة سيمارسها، أو عادة سيمنعها أو يعتادها. لكن كل هذا تحطم مع كلمات دكتور هيسم، أفاق نعيم من خيالاته، لما أدرك أنه من خلق فكرة الشفاء هذه. كل لحظة مرت عليه في ذلك اليوم، منذ الصباح وحتى آخر الليل، كانت ذرة تراب في عاصفة مدمرة.

تنهد دكتور هيسم في يأس، وبدأ في مصارحة نعيم بالحقائق، قال إن خلايا مخه لا زالت تموت، لا يعرف لماذا، لا يفهم. لكن تطور وزيادة الأعراض دليل واضح على أن خلايا مخه تعاني من الاضمحلال، تروح بلا رجعه. عزاؤه الوحيد، أن الضرر قد يتوقف عند حدود منطقة فيرنكه، لن يمتد إلى ما حولها. في أسوأ الحالات، ستتأثر قدراته اللغوية فقط، لكنه سيظل حياً، متحركاً.

تماسك نعيم، تماسكاً هو كل ما قد يملكه العاجز، الذي لا يجد ردود أفعال أخرى، أو على الأقل، ظهر نعيم متماسكاً أمام الطبيب، لم يود نعيم أن يثير حزن الطبيب أو غضبه.

في لحظة انتحارية، آمن نعيم أن هذا المرض في صالحه، لن يعمل، سيستريح في البيت طوال حياته الباقية، ويعيش معتزلاً الناس. ثم بدت فكرة ترك العمل شديدة الغرابة، أخذ يتذكر كيف ظهرت من

@3abeth

الأصل، كيف يمكن أن يكون هذا مصيره، كيف خلق مخه المعطوب هذه الفكرة؟

حكى نعيم للطبيب ما حدث في صباح اليوم.

نعيم، في الثامنة والعشرين من عمره، كوماندة، رئيس صنايعية، لا يعمل بيده، بل يشرف على مجموعة من النجارين في موقع بناء. منذ أن بدأ نعيم العمل، وخلال سنوات عديدة من العمل الدقيق، سنوات التدريب القاسي في دكان وهيب، وبعده من خلال عمله كنجار، أصبحت عينه حادة كعين الصقر، يلمح بها كل عيب في مواقع العمل. ميل بسيط في لوح الخشب، انحناءة خفيفة في قطعة خشبية يفترض فيها الاستقامة. حتى الأقواس الخشبية المصنعة، كان يستطيع – بمجرد النظر- أن يتأكد من كمال دوران القوس. كل هذا أصبح عملاً شديد السهولة، ما إن يدخل الموقع حتى تبدأ أخطاء الصنايعية في جرح عينه.

"جرَحتَ عيني"، كان يقولها لكل نجار أخطأ. ثم يشرح له خطأه باستفاضه، وكيفية إصلاحه، وطريقة تجاوزه في المرات القادمة. طعّم نعيم كلامه بالمصطلحات التي لا يفهمها إلا الصنايعية، طعّمه بالنكات والمزاح. ضحك نعيم كثيراً أثناء عمله، كلما حادث واحداً، وأطال معه الحديث، كلما اعتاد على محادثته وصادقه. قال له إن المقاولات سميت بذلك، لأن كل من يعمل بها "يقول" كثيراً. كلها أقوال وأقوال. يقولها نعيم ويستمر في القول.

@3abeth

خلال الأيام الماضية، منذ بداية ظهور الأعراض عليه، تقلصت قدرة نعيم على القول كثيراً، أصبحت أخطاء لسانه، أو أخطاء منطقة فيرنكه، تسبب حرجاً كبيراً له، بعدما كان نعيم مشهوراً بأقواله الكثيرة، أصبح مشهوراً بأقواله المضحكة. في البداية لم يفهم المحيطون به ما يحدث، وخلال يومين بدأ الجميع في محاكاة كلماته الجديدة، بدؤوا في تكرار جمله المكونة من كلمات صحيحة لكنها مرتبكة الترتيب. وخلال يومين آخرين، تحول نعيم إلى مسخرة الموقع بكامله.

في صباح ذلك اليوم، ولأول مرة، بدأ نعيم شجاراً مع صنايعي آخر، لا يعرفه، لا يعمل معه. كلمة جرَت كلمة، قول جرّ قول، كلها أقوال وكلمات تطالب الآخر بإبداء الاحترام اللازم، تقال بحدة وبصوت مرتفع. لكن نعيم في النهاية، وبدون أن يتعمد، سب الآخر الواقف أمامه.

ابتسم دكتور هيسم وسأله ماذا قال؟ نعيم، بعد أن سرد لهيسم هذا الجزء اليسير من حياته، بأخطاء كلام قليلة جداً، كان قد تشجع كثيراً على الاستمرار في الكلام، قال إنه صرخ في وجهه قائلاً: كفاية يا خرشوف.

صُدم نعيم، لما سمع كلمة "خرشوف" تخرج من فمه، وقع في مأزق. كان ينتظر طوال اليوم ليقول الكلمة المسيئة للطبيب، كان يريد أن يكون الطبيب شاهداً على ما حدث، أن يستمع لشكواه وأن يعرف مصيبته، والآن تخونه منطقة فيرنكه مرة أخرى. لم يعلم كيف يوصل

@3abeth

المعنى المطلوب للطبيب، لم يعرف كيف ينقل له الكلمة التي تسببت في إفساد يومه، وربما في إفساد أيام كثيرة قادمة. بهدوء، قال هيسم، إن عليه أن يفكر في الكلمة الأصلية التي أراد أن يقولها له، لا في الكلمة التي خرجت من فمه؛ هذه هي الحبسة يا نعيم، تمنعك من قول ما تفكر فيه، وتخرج بدلا منه كلمات أخرى، المشكلة في المخ يا نعيم وليست في اللسان.

قال نعيم ببطء: كفاية يا معرّص.

في الأحوال العادية، وقبل الإصابة، كان من المستحيل أن ينطق نعيم هذه الكلمة، واصفاً بها واحداً من العاملين معه. ناهيك عن شخص لا يعرفه، مجرد زميل في الموقع المتسع. لكنها خرجت من فمه كالرصاصة، ثقبت آذان المحيطين به، ونشرت صمتاً دام لمدة قصيرة بينهم، تحول فوراً إلى عراك بالأيدي والأقدام. بعد لكمات ورفسات عديدة، بعد ضربات ستحدث كدمات ورضوضاً في نهاية اليوم، أحاطوا به جميعاً، وأقاموا حفلة على شرفه.

كان كل واحد يضربه بكفه، لتسقط الكف بشكل عشوائي على أي موضع في جسد نعيم، كرد فعل دفاعي، أحنى نعيم ظهره؛ وأحاط رأسه بذراعيه، وغطى قفاه ومؤخرة جمجمته بكفيه، وضع شبه جنينيّ، سيستخدمه نعيم كثيراً بعد ذلك. حاول نعيم تلقي الضربات على ظهره وذراعيه، كان خائفاً أن تصيب ضربة طائشة رأسه فتفسد منطقة أخرى غير منطقة فيرنكه، مأساة ما حدث مع نعيم، اتفق

@3abeth

الجميع على ضربه، كونوا دائرة حوله، وصار الضرب مرتباً، يبدأ أحدهم في الضرب، كفين ثلاثة أربعة، ثم يبدأ من على يمينه في الضرب، ثم التالي ناحية اليمين، حتى يتم إغلاق الدائرة ويعود الضرب للرجل الأول. نعيم من ناحيته لم يقصر، تواطأ معهم، وأخذ يدور حول نفسه، منظماً الضربات المنهالة عليه، مستدبراً صاحب الدور في الضرب، بهذه الحركة الدورانية استطاع تلقى كل الضربات على ظهره، كان نعيم سعيداً بذكائه وسرعة تحركه.

لما مل الجميع الضرب، سيطروا عليه، ثم قيدوه إلى أحد الأعمدة الخرسانية، أعادوا ضربه هذه المرة بكل قسوة، بعيداً عن ظهره الذي كان يحميه، ولما تعب الجميع من الضرب، بدأوا في بعبصته.

كانوا يضحكون كلما انتفض نعيم بتأثير البعص، بعبصوه ثم عاودوا ضربه على صدغيه وأنفه وعينيه. نعيم من ناحيته، بدأ في الصراخ وطلب الرحمة منهم، قال في استجداء: كفاية يا معرّص، كفاية يا معرَصين. ولما وجد أنهم لن يتوقفوا أبداً، وأن استجداءه يثيرهم أكثر فأكثر، وأن البعابيص أخذت تنهال عليه من الجميع، قرر أن يسبهم فعلاً، في جميع الأحوال سيضرب ويبعبص، فليأخذ بثأره إذن، صرخ فيهم: كفاية يا خرشوف، كفاية يا خراشيف.

سأل الطبيب نعيماً، هل يستطيع أن ينطق الآن الكلمة الأصلية؟ تلك التي خرجت من فمه ككلمة أخرى. هل يمكنه أن يفكر فيها بكل طاقته، أن يُعمل عقله وينطقها كما يجب أن تنطق؟

@3abeth

جاهد نعيم لدقائق طويلة، فتح فمه، ثم أغلقه، فتحه على اتساعه، كأنه يوشك على القيء، ثم عاد ليغلقه بيأس، فتحه وقال: معرَص معرَص معرَص. سكت، ثم أعاد المحاولة، مع.. معر... مع.... ثم طارت الكلمة "معررررص". أخيراً توقف عن الكلام بعدما أحبط تماماً. الكلمة عالقة ولا تود أن تُنطق، مخه يخدعه، منطقة فيرنكه تعمل، لكنها تعمل بلغة أخرى جديدة. في النهاية، أمسك أحد الأقلام الموضوعة على طاولة الأشياء، ناوله دكتور هيسم ورقة صغيرة، كتب نعيم: "كفاية يا أخي".

لما قرأ الطبيب ما كتبه نعيم في الورقة، قال إن هذا في صالحه، فهو لا يزال قادراً على الكتابة بشكل صحيح، على نقل أفكاره عن طريق الورقة والقلم. وهو ما يؤكد أن جزءاً من منطقة فيرنكه لا يزال سليماً ويعمل. لم تضع اللغة بالكامل من مخه، فقط لا يمكن نقلها إلى لسانه بشكل صحيح.

عاد نعيم إلى البيت في منتصف النهار، كان هارباً من الموقع ومن العنف المفرط ومن لسانه وكلماته المحبوسة. كان مرهقاً للغاية، في طريق العودة، فكر أن كل ما بناه خلال الأعوام السابقة، انهار في دقائق قليلة، العلم الذي تعلمه، الصنعة التي احترفها، الأقوال التي اعتاد قولها، الاحترام الذي فرضه على زملائه والمحيطين به. كل ذلك راح بلا رجعة.

@3abeth

بعد ساعات قليلة، وهو جالس أمام دكتور هيسم، وبينهما طاولة عليها آلاف الأشياء، بينهما ورقة، كتب نعيم عليها: "كفاية يا أخي". تذكر أخيراً، كيف ظهرت فكرة ترك العمل في رأسه.

قرارات كثيرة اتخذها نعيم في ذلك اليوم، قرر أن يترك عمله، لا يمكن الاستمرار في العمل كنجار باب وشباك. قرر أن يعود لعمله القديم، لن يجد في دكان وهيب من يضربه ويبعبصه. قرر أن تكون تلك آخر زيارة للدكتور هيسم، الدكتور يائس تماماً، وزيارته ستحيي أمل نعيم للحظات قليلة، ثم يموت الأمل بعد كل زيارة. قرر أن يتقبل مرضه، أن يستسلم له.

وكقرار أخير، تلى كل تلك القرارات الفجائية، قرر نعيم أن يصمت تماماً. أن يصمت لما تبقى له من أيام في الدنيا.

@3abeth

مُعَرَّصٌ

العَرْصُ: خشبةٌ توضع على البيت
عَرْضاً إذا أرادُوا تَسقيفَه وتُلقى عليه
أطرافُ الخشب الصغار، وقيل: هو الحائطُ
يُجعَل بين حائطي البيت لا يُبلَغ به
أقصاه، ثم يُوضع الجائزُ من طرف الحائط
الداخل إلى أقصى البيت ويسقَفُ البيتُ
كله، فما كان بين الحائطين فهو سَهْوَةٌ،
وما كان تحت الجائز فهو مُخدَع، والسين
لغة؛ قال الأزهري: رواه الليث بالصاد
ورواه أبو عبيد بالسين، وهما لغتان.

(من لسان العرب)

في زمن الخليفة الفاطمي الحاكم بأمر الله. كان أئمة المساجد مأمورين بالدعاء للخليفة في كل خطبة جمعة، لم يكن بالإمكان إهمال

@3abeth

هذا الأمر، بل كان واجباً على كل إمام الدعاء حتى لو لم يتم تنبيهه بشكل شخصي. في النهاية كانت تلك ضريبة صغيرة يدفعها الإمام مقابل الحفاظ على حياته وعمله. على الجانب الآخر شط بعض الأئمة في كيل المديح للحاكم، حتى إنهم كانوا يملأون خطبهم بحجج للدفاع عن الحاكم، وتحليلات كثيرة لتبيان مدى منطقية قراراته وأفعاله، تلك التي بدت في معظم الأحيان غير منطقية. أيضاً كان الفصحاء منهم يتعمدون الاستطراد والتشعب حتى يصلوا إلى حكمة أو درس مستفاد من أفعال الحاكم.

هناك رواية يشترك كل مؤرخي تلك الحقبة في ذكرها، تبدو مثالية للتأريخ اللغوي، تسرد الرواية بداية استخدام كلمة "معرّص" بمعانيها المختلفة. التالي سردٌ للرواية الواردة في كل الكتب المؤرخة لحكم الفاطميين باختصار، بدون الإخلال بأساسيات الرواية، مع حذف الاستطرادات الكثيرة غير ذات الصلة.

تحكي الرواية أن أبا خليل الرملي واسمه محمد بن الحسين، أحضر عروص خشب ووضعها في ناصية حارة برجوان. ثم أقام وثبّت أربعة عروص لتشكل أركان مربع، ثم بدأ في تعريص المساحة المربعة بباقي العروص، وكأنه ينشئ سقفاً لأحد البيوت أو الدكاكين. أثناء ذلك، كان كلما سأله المارة عن فعله قال: أعرّص. إني أُعرّص. لم يجد الناس غضاضة في الكلمة، فلم تكن الكلمة وقتها مسيئة، بل كانت اسماً لمهنة الرجل، لواضع العرصات، المُعرّص كان الرجل الذي يقيم أسقف البيوت من عرصات الخشب. وكان من المعتاد البحث عن فلان

@3abeth

المعرّص لتعريص سقف البيت وما شابه. ما أثار غضب الناس على أبي خليل، وضعه للعروص الخشبية في عرض الحارة، وبلا إذن من الدولة.

في نهاية اليوم، وقبل صلاة المغرب، أتت قوة من طرف المحتسب، وسأل قائدها أبا خليل عن فعله، فرد رده الشهير: أعرّص، إني أعرّص. ولما اشتدوا عليه في الكلام، وقف بكل هدوء فوق كتل الخشب الملقاة على الأرض، ثم سمى وصلى على النبي وآله، وبدأ في إلقاء خطبة.

كانت الخطبة بلا شك قطعة أدبية، مثالا على آداب ذلك العصر، لم تكن خطبة فقط، وإنما تضمنت أشكالاً مختلفة من الأدب، قصيدة ومقامة وسردا لتاريخ. بالإضافة إلى كل ذلك، لم تكن ذات طابع ديني على الإطلاق، أعلن أبوخليل في الخطبة أن ما بناه ههنا في عرض الطريق، هو مسجد أسسه لوجه الله، وسماه مسجد الحاكم بأمر الله، وأعلن أنه – أبو خليل - إمام ومؤذن المسجد والمسؤول عنه.

تضمنت الخطبة استطرادات عدة، قال فيها أبو خليل كل ما عنّ له، حكى عن مدى عظمة وحكمة الحاكم، حكى عن الدروس المستفادة من أفعاله وأقواله، قام بتحليل كل قراراته وخلص إلى أنها كلها بلا أخطاء، بل وربما كانت وحياً من الله لعبده الحاكم بأمره. في نهاية الخطبة، وقبل صلاة العشاء بقليل، أعلن أبو خليل أنه يطلب من الحاكم تشريف المسجد بالحضور، والصلاة فيه. وقال جملته الشهيرة

@3abeth

"عرصت على الحاكم" دون أن يفهم أحد من المحيطين ما عناه أبو خليل في تلك اللحظة.

لكن كل شيء اتضح بعد ذلك بأيام قليلة، يوم أن خالف الحاكم جميع التوقعات، ونزل إلى المسجد، وأمَّ صلاة العصر فيه، كان أبو خليل يقف خلف الحاكم، أذن للصلاة، ثم تبعه كواحد من الذين صلوا خلفه في ذلك اليوم. بعدما فرغ الجميع من الصلاة، صافح الحاكم أبا خليل، وهو يُسر إليه بكلمات لم يسمعها أحد، مضى الحاكم وترك أبا خليل مزهواً بما حدث، قال للناس: ألم أقل لكم؟ عرّصت على الحاكم. فهم الناس أخيراً، أو هكذا ظنوا؛ أقام أبو خليل سقفاً من العرصات فوق رأس الحاكم، عرّص عليه. لكن الناس لم ينتبهوا لخطأ أبي خليل من فرط ذهولهم؛ أخطأ أبو خليل حينما قال: "على"، بينما الصواب أن يقول "فوق". لكن من سينتبه لخطأ لغوي، إذا ورد الخطأ في نبوءة غامضة؟

كان أبو خليل يقصد معنى آخر لقوله "إني أعرّص"، فالتعريص هنا لم يكن مجرد وضع عرصات الخشب "فوق" رأس الحاكم، بل كان أبو خليل دقيقاً حينما قال "على". إن المعنى المجازي أكثر دقة في وصف فعل أبي خليل، فالمقصود بالتعريص هنا تظليل الحاكم وحمايته من كلام وشتائم وسخرية العامة، عن طريق الدفاع عنه وعن أفعاله أيا كانت. وهكذا، فخطب أبي خليل المتكررة بعد ذلك، ولسنوات طويلة حتى وفاة الحاكم بأمر الله، ما هي إلا عرصات يرصها أبو خليل فوق رأس الحاكم، يرصها أبو خليل المعرص. ليقي بعرصاته

@3abeth

– خطبه ـ رأس الحاكم من كلام العامة ونقدهم.

كان الناس يطلقون على أبي خليل لقب "المُعرّص"، نسبة إلى مهنته. واستمروا يطلقون عليه نفس اللقب، حتى بعد أن تغيرت مهنته في اليوم الذي عرّص فيه على الحاكم. أصبح المعرص يخطب خطبة كل يوم، بدلاً من خطبة كل اسبوع، ليمدح الحاكم ويُعلي من شأنه، فيسحر ألباب العامة بلباقته وحسن كلامه، فيجمع المئات حوله كل يوم ليستمعون إلى خطبته، إلى تعريصه.

ثم حدث أول تطور في استخدام الكلمة، أصبحت كلمة "معرّص" تطلق على كل من يقوم بإلقاء الخطب لدعم الحاكم. ثم تطور الأمر لتطلق كل من يمدح الحاكم سواء كان في المجالس العامة أو الخاصة. وكل من يبرر تصرفات الحاكم، وكل من يشرح مقاصده وأسباب أوامره غير المنطقية. فصار الإمام في المسجد معرص، والوزير معرص، والمحتسب معرص، وأمير الجيوش معرص، والمدرس في دار الحكمة معرص، والحلاق معرص، واللحام معرص، والعطار معرص.

على الجانب الآخر، ظل الحاكم صامتاً متابعاً لما يحدث.

مع مرور الوقت، حملت الكلمة صبغة ساخرة، فهي الآن اسم لمهنة قذرة، يعرفها الناس جيداً، وإن لم يكن لها اسم محدد من قبل. لم يمر وقت طويل، حتى أصبحت الكلمة مثيرة لضحك لكل من يسمعها، ضج المُعرّصون الحقيقيون باعتراضات كثيرة، قالوا إن الخلط بين المعنيين إهانة لهم، وإن كل من يطلق عليه لقب معرص الآن شخص دخيل

@3abeth

عليهم، ولا يستحق اللقب المحترم الشريف. لكن كل اعتراضاتهم كانت متأخرة للغاية، كان معنى الكلمة قد تغير بغير رجعة.

في عام ٤٠٨ للهجرة أي قبل اختفاء الحاكم بأربع سنوات، أمر الحاكم بأمر الله بقطع لسان كل من يتفوه بكلمة معرص، وتغريمه بمصادرة كل ما يملك، ثم تطرف الحاكم بأمر الله كعادته دائماً، فأمر بسمل عيني كل من يتفوه بالكلمة بعد قطع لسانه. تم تطبيق الأمر عدة مرات، بإجمالي ٤٥ حالة في القاهرة وحدها. بالطبع، وخلال عدة أسابيع، اختفت الكلمة تماماً من على ألسنة الناس، لكنها ظلت ماثلة في الأجزاء المظلمة من ذاكرة المصريين.

الأمور التالية لم يجد لها أحد من المؤرخين أو اللغويين سبباً منطقياً، لكنها توحي بطريقة تطور اللغة بين العامة. استبدل العامة حرف الصاد بالشين عندما أخذوا يستخدمون كلمة "تعريش" بدلاً من كلمة "تعريص". واستبدلوا الصاد بالقاف وكسروا عين الكلمة، حينما قالوا "عرق" بدلا من "عرص". كره الناس الكلمة وكل مشتقاتها، فبدلوا أحرفاً بأحرف غيرها، وبدلوا حركات أحرف الكلمة ذاتها. وتحولت معاني المشتقات والأصول إلى معاني أخرى مختلفة تمام الاختلاف عن تلك الأصلية. وضاع أصل كلمة "تعريص" إلى الأبد بين الناس، لكن المعاجم والقواميس حفظته لنا حتى الآن.

لكن التطور الثاني في معنى الكلمة لم يكن مفهوماً أو منطقياً، لم يذكر المؤرخون واللغويون كيف أخذت الكلمة منعطفاً جديداً في عقول

@3abeth

الناس. استقرت الكلمة بمعنييها، الأول الأصلي، والثاني المكتسب، في الذاكرة الجماعية، وكان مجرد ظهورها في خيال المرء كفيلاً بتذكيره بعشرات البكم الذين نطقوا الكلمة مخالفين أمر الحاكم بأمر الله، والذين سُملت أعينهم لنفس السبب، كره الناس الكلمة.

قلة الاستخدام تعني موت الكلمة ومعنييها، لكن الكلمة لم تمت تماماً، وإنما ظهرت وهي تحمل معنىً جديداً غير منطقي. هذا المعنى المعروف اليوم، والمتداول بين الناس على نطاق واسع: القواد.

الأكثر من ذلك، ارتبطت كلمة معرص بعد ذلك بالسفالة والقبح، وصارت سبة بين الناس. كان المعنى الأصلي للكلمة قد زال تماماً، ذلك المعنى الذي يدل على مهنة البناء أو الإنشائي الذي يرص قطع من الخشب فوق فراغ لإنشاء سقف. وكاد المعنى الثاني المكتسب أن يروح من ذاكرة الناس، نتيجة قمع الحاكم بأمر الله.

كان ظهور معنى جديد للكلمة وبهذا الشكل القبيح مثيراً للتعجب والريبة. فكلمة "قواد" تكتب وتقال بلا حياء أو خجل، وهي الكلمة العربية المعروفة والمتداولة على نطاق واسع لوصف الفعل المعروف، بينما "معرص" والتي تحولت - بشكل غير مفهوم - لكي تصف نفس الفعل، أصبحت محرمة على الجميع، محرمة في كل مكان، محرمة على الألسن في الأماكن المحترمة، ومحرمة على الأقلام في كل مكتوب.

بكثير من الحذر، يُلقي بعض المؤرخين باللائمة على المؤسسات الحكومية السرية المنتشرة في زمن الحاكم بأمر الله، تلك التي أسسها

@3abeth

الحاكم، أو وجدها عندما رُسّم خليفة، أو استمر خلفاؤه في تأسيسها من بعده. استطاعت تلك المؤسسات سلب عقول الناس، استطاعت السيطرة عليهم من خلال التراوح بين فعلي الثواب والعقاب. استطاعت إلهاءهم عن كل ما هو مهم أو مؤثر في حياتهم، واستمرت ـ إلى جانب المعرّصين ـ في كيل المديح والثناء للحاكم بأمر الله وغيره، بل استطاعت زرع مذاهب دينية جديدة بين المصريين. فليس من المستبعد قدرتهم على تغيير معنى كلمة "معرّص" إلى الأبد، بل وإلصاق معنى بالغ الابتذال بها، وإضفاء وصمة قذارة على الكلمة، لتجعلها محرمة بين الناس نطقاً وكتابة. تمهيداً لمحوها تماماً من الذاكرة الجماعية. يبرر هؤلاء المؤرخون فعل المؤسسات السرية تبريراً منطقياً: التعتيم على معرصي الدولة.

بينما يرى مؤرخون آخرون أن المعنى الثالث للكلمة، خلقه المصريون جميعاً، تم خلقه وتثبيته والاعتراف به بصورة جماعية، لكنها غير واعية. وكأنهم يربطون المعنى الثاني المكتسب لكلمة "تعريص" كما شرحه أبو خليل ذات يوم، بالقوادة، وهي أقذر المهن وأدناها في عين المصري.

وأياً كانت الطريقة التي خُلق بها المعنى الثالث للكلمة. فقد تم وصم الكلمة إلى الأبد، واختفى المعنى الأصلي الحقيقي تماماً، المعنى المرتبط بالبناء والتشييد. واستمرت الكلمة تحمل معنيين بعيدين كل البعد عن معناها الأصلي، أحدهما مجازي، يرتبط ارتباطاً ضعيفاً بالمعنى الحقيقي، والآخر مجازي أيضاً، لا يرتبط بالمعنى الأصلي، وإنما يرتبط بالمعنى الثاني المكتسب.

لا زال المصري حتى اليوم، يستخدم كلمة "معرّص" لوصف اثنين: القواد، ومؤيد الحكّام.

@3abeth

عزيزي صلاح، كيف حالك؟

اتصدق؟ أنا أرى رأي السادات صائباً لأقصى درجة، لأقصى حد، بل إن رأيه ذلك بمثابة قانون لتصنيف المصريين. السادات كان يرى أن قوى الأمة مقسمة إلى عدة أقسام، كلها تقريباً تحت السيطرة، بل هي مؤيدة لمؤسسة الرئاسة مهما حدث. السادات كان يرى أن الفلاحين "في حالهم" لا يشغلهم شيء سوى الزراعة، والأرض والحفاظ عليها. كان يرى أن العمال في المصانع يحركهم الشيوعيون، فإذا تم السيطرة على هؤلاء، استكان العمال وصمتوا، خير مثال على ذلك، أن الرأسمالية الوطنية ـ وهي عماد مصر حتى هذا اليوم ـ سعيدة بالانفتاح الذي خلقه السادات. ماذا عن الجيش؟ تحت السيطرة بالطبع، بل هو سند السادات الأقوى أمام كل المتآمرين. اليوم لا تزال تلك النظرة صحيحة. لم يتغير فيها شيء.

. لكن السادات كان متخوفاً من المثقفين.

السادات كان دائماً يصفهم بالخنية، بالتفاهة، بالعبط، وأوصاف أخرى تسخف أفعالهم وأفكارهم. كان يصفهم بالأفندية، ولو أنهم لا يستحقون كلمة شريفة مثل "أفندية"، السادات نجح في تأليب المجتمع ضدهم، نجح في أن يتخذ رجل الشارع المحترم موقفاً ضدهم، حتى أن رجل الشارع

@3abeth

هذا، سخر من طريقتهم في الكلام، وطريقتهم في النطق والتشدق بالحروف، وسماهم "مسأفين" في معارضة ساخرة لفصاحتهم المفتعلة.

لكن يا عزيزي يجب دائماً أن نقرأ ما بين السطور، السادات، يليه في ذلك رجل الشارع، لم يصف المثقفين بتلك الصفات لأنها تنطبق عليهم؛ لأنها تصف تصرفاتهم وأفكارهم، كل هذه الصفات والشتائم والسخرية كانت مبالغات. في الحقيقة، هذا الهجوم الساداتي والشعبي، يدل ـ في سياق الصراع الدائر بين المثقفين والسادات ـ على تخوف السادات الدائم منهم. كل قوى الأمة التي ذكرها السادات لها ممتلكات ومكاسب وماديات قد تخسرها في خضم الصراع مع السلطة، فالجنود يعلمون أن وجود قائد عسكري في منصب مدني هو أهم إنجاز تم تحقيقه في تاريخهم، وأن استمرار هذا الوجود معناه استمرار الامتيازات الممنوحة لهم بأريحية ورضى من هذا القائد. بينما الفلاح ـ كما ذكرت ـ لا يعنيه إلا حفاظه على الأرض تحت قدميه، وهذا حاصل ودائم، بسبب عشرات الأسباب. والفلاح يعلم تمام العلم، أن أي تبديل أو تغيير في السلطة قد يؤدي إلى تبديل أو تغيير في القوانين الحامية له، مثل قانون استئجار الأراضي الزراعية، قانون وضع اليد، وبالطبع، الأعراف الريفية المتمثلة في استئذان مؤجر الأرض قبل بيعها، واشتراط موافقته ورحيله

@3abeth

قبل إتمام البيع، تلك الأعراف المحمية بالقوانين المعية وبتكاسل السلطة.

لكن المثقفين، للأسف، لا يملكون ما يخسرونه، لا يملكون ماديات، لا يملكون استثمارات، بل لا يملكون بيوتاً، هؤلاء يسيرون في الشوارع بلا هدف، يعملون في أعمال تافهة، بسيطة، غير مرهقة، حتى يتفرغون لـ "الثقافة" و"الفكر" و"الفن" و"الكتابة" و"الشعر" و"النضال" وكل هذا المخراء الذي تعرفه وتسمع عنه. لكن في الحقيقة، ومع فقرهم المدقع، وحياتهم التي تغص بالقحط والمجاعة والملابس المرقعة، مع ذلك هم يمتلكون شيئاً واحداً: المبدأ.

وهو ما يقتلني يا صلاح، أنا لا أفهم كيف يستطيع شخص الحفاظ على مبدئه كما يفعل هؤلاء، بل كيف يستطيع تطوير ذلك المبدأ مع الوقت، وربما تجاوزه إلى ما هو أكثر عمقاً، لا أفهم كيف يستطيعون التفكير بهذا العمق، أنا لن أقع في الفخ الذي نصبه السادات للشعب، عندما سخف المثقفين، وسار الشعب خلفه يسخفونهم. هذا دهاء يحسد السادات عليه، لكن الخدعة لن تنطلي على كل الشعب. هم فعلاً قادرون على التفكير العميق، قادرون على الإبداع، هذا الفعل الذي لا يفهمه الكثيرون؛ ربما لأنهم لن يكونوا مبدعين يوماً، لن يكونوا خالقين لفكرة جديدة. مع ذلك، أنا سعيد بكراهية الشعب للمثقفين، بالتأكيد نحن لا نريد مثقفاً

@3abeth

معارضاً للرئيس مبارك، هذه أسوأ ما قد يحدث لرئيس أو ملك، أتذكر جمال الدين الأفغاني؟ كان كارثة حقيقية. إذا كان وجود المثقف ضرورياً، فيجب أن يكون هذا المثقف مؤيداً للرئيس، مثلي ومثلك.

يبدو أنني أناقض نفسي، أطرح أفكاراً ثم أعارضها، أنا آسف يا صلاح، لكن المثقفين مربكون للغاية. أعترف بهذا صراحة يا صلاح، هؤلاء أخافوا السادات، وأربكوني تماماً. هؤلاء لا تشملهم تنظيمات كما التنظيمات الشيوعية، وبالتالي لا يمكن اختراقهم، كيف يمكن اختراق تنظيم غير موجود أصلاً؟ هؤلاء لا تجمعهم مهنة واحدة، يمكن من خلال النقابة المهنية السيطرة على أعضائها. هؤلاء أفراد مرعبون ومخيفون، هؤلاء أكثر تأثيراً على المجتمع من البلطجية.

هل تذكر الهيبيز في الستينيات والسبعينيات، هؤلاء لم يأخذوا حسنات الهيبيز، وتمسكوا بسيئاتهم.

هؤلاء استقروا في المدن، لم يخرجوا إلى العراء والبرية رافضين العيش في أحضان المدن كما فعل الهيبيز، وبالتالي أصبحوا عبئاً على المجتمع والحكومة، وتمسكوا بالمظاهرات والاعتصامات والأدب والشعر والمعارضات المستمرة وكتابة وتوزيع المنشورات في عهد السادات، وإنشاء المدونات في هذا العهد. وكل هذا الخراء الذي تعرفه حتماً.

@3abeth

أتعرف؟ كلما فكرت في المثقفين أصابني القرف. لن أطالبك بمحاولة ضمهم للصفوف، هؤلاء يستحيل إقناعهم بشيء كهذا، هؤلاء أكثر صلابة من الحجر، ولا يمكن إضواءهم بالمال، من فرط غبائهم، قد يموتون جوعاً ولا يتنازلون عن "مبادئهم" هؤلاء كما كانوا أعدى أعداء السادات، هم أنفسهم أعدى أعداء الرئيس مبارك، ولا حل إلا بتشويه كامل وشامل لصورتهم.

يحضرني في تجل رائع، في تصوير مبهر وتحليل بالغ القسوة، صورة أحمد راتب في فيلم "يا رب ولد". هذه هي الصورة المثالية للمثقف يا صلاح، الصورة التي يجب أن تنتشر بين الناس.

هذه الصورة التي تؤكد جهله، وتشدقه بكلام لا يفهمه، بل لا يفهمه أحد على الإطلاق؛ لأنه يخترع أفكاراً وكلاماً وهميين. هذه الصورة هي وسيلة دفاعية في الأساس، ترسمونها أنتم لتصبح سلاحاً اعتراضياً في يد غير المثقف، في يد الشعب؛ ليطعن بها المثقف طوال الوقت، من ناحية ليساعدنا في تثبيت صورة المثقف في الأذهان، ومن ناحية أخرى لينتقم من هذا الذي يدعي احتكار العلم والثقافة والمبادئ والتحرر والفكر، وكل هذا الخراء. وكما سخر الشعب يوماً من "المسافين" يجب أن تستمر هذه السخرية. ولن تتم إلا برسم صورة المثقف كما نريدها.

@3abeth

لا يستحم، رائحته منفرة، طويل الشعر، لا يحلق لحيته، قذر، لا يبدل بنطاله إلا إذا فاحت رائحته، ويمكنك دائماً أن تضيف بعداً آخراً أكثر سخرية، يرتدي كوفية على الدوام، صيفاً وشتاءً، علامة على كونه مثقف، على تمسكه بالمبدأ والثقافة والفكر والعقل، وكل هذا الهخراء الذي تراه أمامك.

بهذه الطريقة فقط، يمكنك خلق هوة بين المثقف والشعب، أن يخاف المواطن من مجرد مرور المثقف بجانبه، أن تصبح الثقافة سبة يتبادلها الناس فيما بينهم، أن يصبح كل قول يصدر من مثقف مثيراً للسخرية والتسخيف، وبالطبع، كل من قد يتعاطف مع مثقف، أو حتى يستمع لكلامه، سيصبح مثقفاً مثله. تجب السخرية منه كما تجب السخرية من المثقف.

ربما بعد كل هذا المجهود، بعد كل هذه السخرية والحرب الكلامية، سيتنازل المثقفون عن أفكارهم وخهرائهم.

ولا تظن أن المثقف، على الرغم من الهالة الضخمة التي يحيط بها نفسه، لا يمكن السيطرة عليه أو إلهاؤه، كل ما في الأمر، أنه سيعود بعد لحظات من الإلهاء للكلام عن النظام والسلطة والرئيس والديمقراطية. كيف يمكن إلهاؤه؟ بسيطة

@3abeth

جدا، يمكنك دائماً إعادة نشر طبعة كاملة من ألف ليلة وليلة؛ لتثور - للمرة الألف - عاصفة من النقاش حول فكرة الرقابة والحذف وأهمية الحفاظ على النصوص الأصلية بدون تعديل، ثم تأتي الشعارات الأثيرة لديهم؛ الدولة، القمع، حرية التعبير، ذبح الفنون، تدمير الإبداع، كاك كاك كاك، لغو مستمر ونقنقة دجاج. عليهم ينشغلون بتفاهاتهم ويتركونا لنعمل، الأغبياء يدافعون عن ألف ليلة ولم يقرأها أحد منهم، أي تفاهة تلك يا صلاح؟

يمكنكم دائماً تشجيع نشر الكتب التافهة، المستفزة، الكتب الساخرة، ذات المحتوى العقيم، والأسلوب المريض الرث، هناك الكثير من الكتاب الفاشلين، أو قل: من يطمحون لأن يشار إليهم بالأصابع وإطلاق عليهم لقب "الكاتب"، يمكن بالطبع إغراق المكتبات والأرصفة والمحلات بمؤلفاتهم الرخيصة، هذا سيخلق نقاشاً آخر بين المثقفين، نقاش تافه مثلهم، سيسخرون من الكتاب التافه، والمؤلف التافه، ودار النشر التافهة، وصاحبها الجاهل. سيسخرون من جيل التسعينات، والثمانينات، ويغضبون لظهور هذه "الأجيال" من الكتاب والشعراء والروائيين. وسيعلنون في ازدراء للجميع، أن جيل الستينات هو آخر جيل كتاب "حقيقي" في مصر، وأن كل ما تلى ذلك الجيل....... آه يا صلاح، لا أستطيع المتابعة، لا أستطيع تخيل الموقف، هذه

@3abeth

النقاشات المثقفة المريضة تصيبني بالغثيان، هناك ملايين المشاكل في مصر، وهؤلاء يصنفون الكتاب إلى أجيال!!. أنا صادق معك دائماً، أنا أشفق على الجهات الأمنية التي تتعامل مع المثقفين يا صلاح، يجب ألا يستمر الأفراد في التعامل معهم لفترات طويلة، قد يصابون بانهيار عصبي في لحظة نقاش حادة حول "الصورة النمطية الجغرافية في أدب محمد حزنبل" أو " النقد الأدبي البناء في أعمال علي طويل الرداء". أو قد يصابون بأمراض نفسية مزمنة، فبدلاً من محاولة التجسس على مجموعة من المسافين، سنجد أنفسنا نخسر رجالاً شرفاء، ضحايا لنقاش عقيم بين عديم استحمام وآخر ذي كوفية.

لكن ما يجعل التعامل مع المثقف صعباً، ما يجعل إلهاءه شبه مستحيل، أن المثقف يفهم تماماً عملية الإلهاء هذه، بل وينظر لكل حدث على أنه إلهاء له شخصياً، على أنه تدبير موجه للسيطرة عليه؛ إنشاء خط مترو جديد في العباسية؛ مؤامرة على المكتبات والمباني القديمة!. إنشاء مبنى في منطقة القلعة: مؤامرة على صلاح الدين!. عمال يصلحون الطريق؛ مؤامرة على السيولة المرورية وبالتالي مؤامرة على الحالة النفسية للقاهريين!.. حسناً، أعترف أن هذه مؤامرة فعلاً، أعترف أنهم في بعض الأحيان يدركون حقيقة الأمور بمجرد تدبر الشواهد. لكن الباقي نتاج المرض يا صلاح، عزلتهم

@3abeth

تؤجج مرضهم النفسي، وهكذا تتوالى المؤامرات حتى يظن أن أمه تتآمر عليه لصالح المرحوم جمال عبد الناصر. المثقف شخص مصاب ببرانويا مزمنة، لا حل ولا علاج لها. في كل مرة أفكر في كيفية التعامل مع المثقفين يصيبني اليأس يا صلاح، ولا أجد حلاً بديلاً عن إبادتهم تماماً، لكنهم أكثر تفاهة من أن نبذل مجهوداً في إبادتهم. أكثر حقارة من مجرد محاولة... لا ، بل هم أكثر حقارة من مجرد التفكير في إبادتهم. في كل مرة، أعود وأفكر في أن تشويه صورتهم المستمر هو الطريقة الوحيدة الناجحة للتعامل معهم.

أفكاري هذه المرة مرتبكة وغير مرتبة، عذراً، فقد تذكرت صورة مثقف ذي رائحة منفرة يرتدي كوفية وأنا أكتب هذا الخطاب.

@3abeth

باترينة

وصل نعيم إلى دكان وهيب، كان قد تغير كثيراً عن المرة الأولى التي أتى فيها للدكان، لم تبهره شوارع وسط البلد كما حدث أول مرة، لم تبهره الواجهات الزجاجية، والأضواء وزحام المارة. كان دكان وهيب قد أهمل تماماً في الفترة الأخيرة، بينما ظهرت الكلمات البارزة فوق بوابة الدكان حائلة اللون. غطى التراب أركان الواجهة الزجاجية، بدا أن من مسح الواجهة لم يهتم بتنظيف الزوايا والأركان، فقط أمسك بالجريدة المبتلة، وأدارها دورتين أو ثلاث على الزجاج المتسخ. تجمع تراب فوق البوابة الخشبية للدكان، وعلى الرصيف بدا التراب أكثر كثافة، كان كل ما في الواجهة يوحي بفقدان الاهتمام.

أتى نعيم هنا للمرة الأولى منذ ثمانية عشر عاماً، دخل المحل لأول مرة عام ١٩٦٣، كان في أول الطريق، واليوم أوشك شهر اكتوبر من عام ١٩٨١ على الانتهاء، ، شعر أنه وصل للنهاية، وها هو يعود للمقر الأول، ليخطو خطوات "قليلة" باقية من حياته.

في لحظة واحدة، راحت كل آماله، في الواجهة الزجاجية الشهيرة، تلك التي كان فرج يسميها "باترينة"، حيث اعتاد أن يعرض

@3abeth

أعمال الدكان المنمقة، وجد نعيم عدة آلات كاتبة، وعلى واحدة منها تستقر ورقة بيضاء تحمل جملة: للاستعلام اسأل المحل المجاور، وسهم يشير ناحية اليسار. لا كتب مجلدة في الواجهة، ولا أي دليل على نشاط دار وهيب للتجليد. تحول دكان وهيب إلى لوحة إعلانية.

بدا الدكان من خلال الواجهة الزجاجية خالياً من أية حياة، صمت وسكون غلف كل ما بالداخل، شاهد نعيم الأثقال المتعددة، تذكر ملمس البلاطات الرخامية السميكة، وألواح الحديد الباردة، هذه أثقال ضغط الكتب، التي دهش من فرط ثقلها عندما حركها لأول مرة، كلها ضغطت على أصابعه في تلك اللحظة. شاهد أفرخ الورق المقوى، ولفائف الجلد والمشمع. علب الغراء المتعددة، وبكرة خيط حريري. لكنه لم ير أحداً في الدكان. للحظة، فكر نعيم أن عليه أن يعود للبيت، ثم عليه أن يعود لعمله كنجار مرة أخرى، عليه أن يتحمل سخرية المحيطين به هناك، عليه أن يتحمل الضرب والإهانة، تجليد الكتب ليست مهنة من الأساس، تركها قديماً لأنها لا تدر ربحاً كما يتذكر، هي مهنة العاجزين. لكنه قرر أن ينتظر فرج أو وهيب أو أي عامل في الدكان، فربما أتى أحدهم قريباً.

انتظر نعيم طويلاً حتى أتى وهيب، لاحظ تقدمه بالسن، كان نعيم قد ترك الدكان ووهيب يقترب من الثلاثين، كعمره الآن، أثرت السنوات التسع كثيراً على جسده، سقط الكثير من شعره، واختلط سواده الباقي بالمشيب. نما له كرش صغير كأنه كائن منفصل عنه، لكن قامته لا زالت مفرطة الطول. تذكر وهيب نعيماً فوراً، وفوجيء

@3abeth

بصمته غير المعتاد، لم يدرك ما حدث له، وبدا له أن نعيماً قد أصيب في عقله، جنون مؤقت أو ما شابه، صدمته إشاراته غير المفهومة وضحكاته غير المبررة، لكن وهيب رحب به، ودخلا الدكان سوياً. ولما جلسا، أخذ نعيم يكتب على ورقة ما أراد.

نعيم يسأل ووهيب يجيب؛ فرج راح منذ مدة، مات واستراح من كل شيء، من هم الدكان وكسل وهيب وقلة العمل، كان آخر صنايعي في الدكان، الكل غادروا إلى مكان آخر، أعمال أخرى، يقول وهيب إن نعيم بالتأكيد يفهم ما حدث، قام بنفس الفعل منذ مدة، لكن أحداً لم يعد للدكان مثلما يفعل الآن، كلهم نسوا الدكان وأصحابه. اليوم لا عمل في الدكان، لم يعد أحد يجلد الكتب، وحتى لو أتى زبون بكتاب، من سيجلده؟ كان فرج في أواخر أيامه ينظر لوهيب وكأنه يلومه، يقول وهيب إنه لا يفهم لم فعل ذلك، كان فرج يأخذ مرتبه حتى اليوم الأخير من حياته، حتى عندما قل العمل، وخلت الواجهة من أي كتب مجلدة، استمر وهيب في صرف مرتب فرج، ربما كان فرج يلومه على تدهور حال الدكان. يقول وهيب إن للتدهور أسباب أخرى، هذا ليس ذنبه.

رحب وهيب بنعيم، قال إن عودته ستعيد الحياة للدكان، ينتظر وهيب اليوم الذي سيرى فيه الواجهة الزجاجية مليئة بالكتب. طمأن وهيب نعيم، قال إنه سيعطيه نصف إيراد الدكان بعد خصم الإيجار والفواتير، عليه أن يشتري كل ما يلزمه، عليه أن يبحث عن مساعد إذا أراد، هو لا يمكنه أن يساعد بأي عمل، فوهيب لا دخل له بالدكان، كل ما فعله أنه ورث الدكان عن أبيه، ورث الاسم عن أبيه، لكنه لم يرث المهنة.

@3abeth

استمر وهيب في التردد على الدكان كل يوم، منذ أن مات فرج وهو يأتي يومياً، كما كان يفعل قبل موته، يفتح الدكان ويجلس على مكتبه ليقرأ الجريدة، ولا شيء غير ذلك، فإذا جاء زبائن إلى الدكان، يريدون تغليف وتجليد أوراق وملازم وكتب، كان يعتذر لهم مرتبكاً، يطلب منهم أن يعودوا بعد أسبوع، بعد أسبوعين. لم يجد سبباً منطقياً لطلبه هذا، كان من الممكن أن يخبرهم بأن الدكان انتهى إلى الأبد، لكن عهداً منعه من ذلك، وعد قطعه على نفسه. كل يوم بعد غروب الشمس، كان يقف ليتأمل الكلمات البارزة أعلى الدكان، "دار وهيب للتجليد". قرر أخيراً، وبعد تردد طويل، أن يؤجّر الواجهة الزجاجية للمحل المجاور، ليعرض فيها صاحب المحل ما يشاء ، بعد أن امتلأت واجهته بالمعروضات. يائساً من كل شيء، لكنه راض وصابر، شارك وهيب في ترتيب عدد من الآلات الكاتبة في واجهته الزجاجية، رصها رصاً، بدت له قبيحة، رمادية بأزرار متماثلة منسقة، لكنها تبدو عشوائية بلا ترتيب، تأمل الأحرف المطبوعة على الأزرار فلم يجدها مرتبة حسب الترتيب الأبجدي، حاول وهيب أن يجد صلات بين الأحرف وبعضها، حاول أن يجد سراً أو نظاماً لترتيب الأحرف في الآلة الكاتبة، لكنه يأس في النهاية ورأى أن حتى الآلة الكاتبة شر. تلك التي يراها بعضهم أداة عبقرية للكتابة وتسجيل الأفكار، رآها وهيب قباحة رمادية تحمل أزراراً عشوائية. أخيراً، وبعد أن دخل واحد إلى الدكان، وسأله عن سعر ومواصفات القباحة المعدنية، وضع وهيب ورقة تطلب من الواحد الواقف أمام الدكان أن يسأل عن القباحة المعدنية في الدكان المجاور.

الآن لم يعد هناك ما يعكر صفو وهيب وهيب.

@3abeth

عزيزي صلاح،

أنتم محظوظون فعلاً، الرئيس مبارك محظوظ للغاية. الحقيقة، كل حكام مصر كانوا محظوظين.

أحاول أن أتذكر شعباً عبد حاكمه كما فعل المصريون، لكني لا أجد. فمنذ آلاف السنين والحال لم يتغير، للدرجة التي تجعلني أظن أن مهمتي سهلة، بل قل إن كل ما أرسلته لك من رسائل لا لزوم له، مهما فعلتم فسيظل الشعب المصري يعبد الرئيس مبارك، كما عبد الجميع من قبله.

هل يستطيع أحد انتقاد حسني مبارك، هل يمكن أن نكتشف خطأً في خطبته الماضية، أو أن يهتف الشعب ضده في مظاهرة. قد يطلق بعضهم نكاتاً أو مزحات سمجة. لكن هل يمكن أن يعلن المصري رفضه للرئيس مبارك، وهو الذي يطعمنا الخبز؟

لا أفهم تماماً لم تسمونه: الحزب الوطني الديمقراطي. هو وطني نعم، لكنه ليس ديمقراطياً، كلمة ديمقراطي هذه مشينة للغاية. الديمقراطية عيب وتشوه في نظام الحكم، أي نظام حكم. اطمئن تماماً، لا يمكن تطبيق هذه "اللعنة" في مصر، فلو خيرت الناس بين أن يحكموا أنفسهم وبين أن يحكمهم فرعون، فسيختارون الفرعون حتماً. المصريون غير مستعدين لتحمل مسؤولية الحكم، هم أجبن من أن يختاروا رئيساً،

@3abeth

اغبي من أن يختاروا شخصاً من بين علة أشخاص، وأكسل من أن يدلوا بأصواتهم في انتخابات حقيقية. حتى ولو قدر لهم أن يختاروا واحداً لارتعبوا وارتجفوا، قبل أن يختاروا من يرونه طاغية صارما مستبدا، المصريون ينظرون إلى حسني مبارك على أنه مستبد عادل، وأن حكم المستبد العادل هو أفضل حكم.

لكن لا يمكن أن يترك أمر البلاد بلا متابعة أو عناية، هناك نبت شيطاني في كل حقل، هناك خلايا سرطانية في كل جسد. حسناً فعلتم حينما أقصيتم كل من يصلح لقيادة البلاد، الإقصاء المعنوي والمادي، البعد بعداً تاماً عن أي مناصب لامعة أو قوية، إقصاء من يثبت تورطه في جماعة أو "شلة". تلك التي أسماها السادات "مراكز القوى". السادات قضى على كل مراكز القوى حوله، ليصبح هو مركز القوة الوحيد. بينما تطورتم أنتم فخلقتم مراكز قوى تبدو قوية وذكية، لكنها ضعيفة وفاشلة ولا يهمها إلا جمع المال. مراكز قوى تساند الرئيس مبارك دوماً، تجدد البيعة له في كل مناسبة، تحلل خطاباته، تبرز حكمته المتناهية في كل كلمة يقولها، أو كل تصرف يقوم به.

أيضاً، إقصاء مراكز القوى الحقيقية سيرمي بالمصريين في أمان اليأس، سيحتارون إذا دار في أذهانهم السؤال الشهير: من يصلح للحكم غير مبارك؟ فإذا لم يجدوا أحداً صالحاً،

@3abeth

سيتوقفون عن التساؤل، سيعودون إلى الحظيرة، سيتابعون الدوري، سيتابعون المسلسل، سيصمتون إذا تحدث أحدهم في السياسة، وسيكون رئيس الوزراء هدف شتائمهم، مع أن أحدهم لن يربط بين اختيار مبارك له وفشله. شعب كسول كهذا لن يختار الديمقراطية.

تذكر دائماً يا صلاح، أنتم تحكمون شعباً يريد أن يأكل فقط، يريد رغيف الخبز فقط. هذا الذي يسميه المصريون "العيش". تخيل يا صلاح، أن يقرن الشعب أحد أصناف الطعام بالحياة ذاتها. وكأن الحياة ملخصة في جملة شرطية سخيفة: إذا انقطع "العيش" انتهت الحياة.

بالقروش القليلة المنفقة على دعم الخبز، ستتحكمون في الغالبية الساحقة من المصريين، انسوا التعليم والخدمات الصحية والترفيه والسكن، رغيف الخبز هو مفتاح حكم المصريين. وهو مهم كأهمية درونة الشعب المصري، إن الاهتمام بالصحة والعلاج أمر لابد أن ينتهي، فترك المصريين عرضة للموت بسبب الأمراض أفضل طريقة لتطوير المجتمع جينياً، ليصبح خالياً من أصحاب الجينات الضعيفة، وحملة الأمراض الوراثية والمزمنة. ولا يمكن أيضاً أن نطعم الشعب طعاماً كاملاً مثالياً، بل علينا أن نطعمه مقداراً محدداً، فقط ما يكفيه بلا زيادة، مقدار من الطعام يتيح له العمل والحركة والقدرة على التناسل، لكن لا يسمح له بالتفكير خارج

@3abeth

صندوق العمل والحركة والتناسل الضيق. سنمنحه مقدار الحرية الذي يسمح له بالعمل، لكن ليس بالمقدار الذي يتيح له الاعتراض أو التظاهر أو حتى الإضراب مطالباً بأكثر مما يتلقى. وبالطبع المقدار الذي يمنعه من الثورة أو الانقلاب على مبارك. فالبهائم قد ترفس إذا ما تحسنت صحتها يا صلاح. يجب أن يفهم قطيع المصريين أن ما يتلقونه من طعام منحة من مبارك، هبة، فضل، زيادة يتركها مبارك لهم على الأرض، أفضل كثيراً من رميها في البحر. وليس حقاً أو واجباً من واجبات مبارك. فكرة الفرعون المعبود يجب أن تظل حاضرة في أذهان المصريين إلى الأبد.

وقطيع البهائم في حاجة إلى كلب، إلى قطيع صغير جداً من الكلاب، حيوانات مثلهم تماماً، بلا عقل أو تفكير أو رأي. لكنهم لا يعملون مثل القطيع، لا ينتجون لبناً أو عجولاً لتذبح. بل قطيع من الكلاب لتساعد الراعي في تحديد مساحة امتداد القطيع، لتساعد الراعي في السيطرة. هؤلاء هم الشرطة.

ويجب عليكم إقناع قطيع البهائم بأن الكلاب موجودة لحمايته من الذئب، الذئب الذي لم يره أحد من قبل، أو ربما رآه أحدهم منذ سنوات عديدة، وحكى للقطيع عن أنيابه وعينيه الناريتين، لكنهم سيرون جثث أعضاء القطيع الممزقة بأنياب الذئب، هؤلاء أعضاء القطيع الشواذ، الذين قرروا

@3abeth

في أحد الأيام أن يتركوا الحظيرة والمرعى المحدود الآمن، أن يخالفوا أوامر الراعي الصالح، أن يكسروا حاجز الكلاب الحامية لهم. راكضين في البرية، وراء التل، لينتهوا بين أنياب الذئب.

حتى لو لم يكن هناك ذئب، لو لم يكن هناك وحش خلف التل ينتظرهم ليلتهمهم، يجب عليكم خلق ذئب وهمي ينتظرهم هناك وراء التل. وإذا شذ أحدهم وترك القطيع، ثم لم يجد الذئب الذي أعلنتم وجوده، فيجب إطلاق الكلاب عليه لتفترسه، ثم يجب عليكم عرض جثته المتفرسة أمام باقي القطيع، والإعلان عن موته بين أنياب الذئب المتوحش، وأن ذلك لم يكن ليحدث لولا أنه شذ. صعدوا المشهد الدرامي، وادعوا أن أحد الكلاب أصيب وهو يحاول الدفاع عنه، قولوا لهم التالي: الكلاب تحميكم يا بهائم. الكلاب تحمينا يا صلاح.

سيقول بعض عجول القطيع إن الكلب يعمل لخدمة الراعي، الكلب يتآمر علينا لمصلحة الراعي، هو حيوان مثلنا، لكنه خائن لحيوانيته. والراعي ليس صالحاً كما يقال، بل هو شرير وفاسد ومستبد، ولا يريد إلا مصلحته. هؤلاء هم قلة يا صلاح، هؤلاء هم المصنفون: اليساريون والديمقراطيون والليبراليون والإخوان المسلمون والسنّة، كل هؤلاء "المصنفون" سيفهمون أن الراعي شرير، أن الفرعون

@3abeth

بشر ولا يمكن أن يُعبد كإله. سيثيرون القلاقل بين باقي بهائم القطيع. لا تخف يا صلاح، هؤلاء لا وزن لهم، هم شواذ، مندسون، عملاء، جواسيس، يعيشون عالة على باقي القطيع، يسيرون في منتصف القطيع تماماً، يستغلون حركة القطيع الجماعية، ولا يبذلون إلا أقل مجهود ليتحركوا معه، هؤلاء شر القطيع، وهم أجبن من أن يظهروا على الأطراف، حيث خطر الذئب، ونبحة الكلب، وعصا الراعي الصالح. لذلك فإن باقي القطيع سيكذبهم، سيؤكدون أن الراعي صالح، الراعي حكيم، الراعي ربان ماهر يقود السفينة في بحر متلاطم. والكلب يحمينا من الذئب، الكلب يضحي بحياته، وقد يموت بعد معركة شرسة مع الذئب ليحمينا من شروره. هؤلاء الشواذ عملاء الذئب، البهائم الضالة عملاء الذئب. وقد يقوم باقي القطيع فعلاً بطردهم خارج القطيع، خلف التل، حيث يستقر الذئب ليتغذى عليهم.

لكن كل هذا مرهون بالمرعى، بالكلأ المتاح مجاناً للبهائم، برغيف العيش.

طالما كان الخبز متوفراً أمام المصريين فلا تقلق، كل مشكلة يمكن حلها إلا مشكلة "العيش"، تذكر يا صلاح، رغيف الخبز هو قرص الدواء الذي يعالج كافة أمراض المصريين. مهما فعلتم لا ترفعوا الدعم عن الخبز.

@3abeth

محـاولة

يعلم كل من يحاول استخراج أوراق حكومية مدى استقلالية تلك المحاولة، فهي بمثابة "عمل" أو "شغل" مستقل، وليست جزءاً من مهمة أكبر غايتها تركيب تليفون أو رفع دعوى قضائية أو ما شابه. هذا عمل له تحضيرات وبداية ونهاية وإجراءات وسيطة. وهو عمل يمثل في حد ذاته خبرة حياتية تزيد من معرفة صاحبها وقدرته على فهم الناس والتعامل معهم. تبدو "المحاولة" وكأنها رحلة أوديسية لا تتكرر إلا نادراً. "المحاول" ؛ من يقوم بالمحاولة، مهما كان صبوراً أو عليماً، سيجد نفسه في النهاية أمام نشاط ممل ومدمر للأعصاب. قد يضيع بسببه في متاهة اليأس والإحباط، أو قد يصل في النهاية إلى المخرج، وهو الورقة المطلوبة.

أحد أهم خواص المحاولة كونها قابلة للنجاح أو الفشل. تماماً مثل العمل أو الوظيفة أو التمرين الرياضي أو أي نشاط بشري يقوم به المحاول. لكن نجاح المحاولة غير مقيد بالاجتهاد أو المواظبة أو السعي، مثلها مثل باقي أنشطة المحاول، بل هي مقامرة تعتمد كلياً على حظ المحاول، فلا نتائج متوقعة على الإطلاق، بل إن كل ما يتعلق بها يعتمد

@3abeth

على الصدفة فقط. محاولة المحاول "على كف عفريت" كما يقولون، لا نتائج مضمونة، ولا خطوات واضحة أو صريحة. قد يستطيع المحاول بعد أيام أو أسابيع من بدء المحاولة الانتهاء من كافة الإجراءات والحصول على الورقة المطلوب إصدارها، وقد لا يستطيع. تصبح في ذلك الحين المحاولة فاشلة، وقد يعيد الفاشل المحاولة مرة أخرى، يتوقف ذلك على مدى أهمية الغرض الذي يحاول إصدار الورقة من أجله، وعلى مدى صبره.

هذه المحاولة كأنها كائن يظل محلقاً فوق رأس المحاول. يطفو فوقها ويظللها، قد لا يتخذ هذا الكائن شكلاً محدداً، وقد يتخذ أشكالاً محددة أو متغيرة. وقد يبدأ كسحابة صغيرة بيضاء فوق الرأس، وذلك عندما يعلم المحاول أن عليه استخراج ورقة ما من مكان ما، حالما يصل إلى المكان ويكتشف الزحام المتوتر على بوابته تتحول السحابة إلى كائن آخر كثيف ذي لون، لا يزال طافياً محلقاً فوق رأسه. قد يتغير لون الكائن تبعاً لشخصية وعمل وثقافة المحاول، فهو رمادي عند المحامين والصحافيين ومذيعي التلفزيون والراديو، أحمر فوق رؤوس الجزارين وسائقي سيارات النقل والطيارين والعسكريين، أزرق عند المسيحيين وباعة الذهب والعاملين في السينما. في الأحوال العادية سيطلب أحد الموظفين من المحاول مجموعة من الأوراق، أو نسخاً من أوراق أصلية، أو نسخاً من أوراق أصلية معتمدة – النسخة وليس الأصل – ويطلقون على تلك النسخة المعتمدة، صورة طبق الأصل.

@3abeth

في تلك المرحلة، التالية لعلم المحاول بعدد الأوراق المطلوب استخراجها لاستخراج الورقة المطلوبة في النهاية، يصل حجم الكائن المحلق إلى أقصاه، يصل لونه المتغير دائماً الى أقصى درجات الوضوح والعمق. الآن يتكون الكائن من كتل صغيرة ملونة، كل كتلة تقابل ورقة من الأوراق المطلوبة، كتل أخرى ضخمة تمثل الساعات الضائعة لاستخراج كل ورقة، كتل أخرى كثيرة تمثل طريقة الانتقال إلى الأماكن المطلوبة لاستخراج الأوراق. هنا يجب علينا التمييز بين الأوراق، سنسمي الورقة الأخيرة والأصلية، الورقة المطلوب استخراجها في النهاية بالورقة الأم. بينما الأوراق الأخرى المطلوب استخراجها لاستخراج الورقة الأم، سنكتفي بتسميتها "أوراق". في معظم الأحوال، سيُطلب من المحاول استخراج عدة أوراق، وذلك لاستخراج الورقة الأم.

بحد أقصى، وكحالة عامة تطبق على كل البيروقرطيات المؤسسة تحت رعاية أو المتفرعة من البيروقراطية المصرية العريقة، سواء في دول الكومنولث البريطاني أو الدول التي كانت تحت السيطرة الانجليزية، أو الولايات المتحدة. هناك ست درجات من الأوراق. بحد أقصى، قد يطلب أحدهم منك أن تستخرج أوراقاً لتستخرج أوراقاً لتستخرج أوراقاً لتستخرج أوراقاً لتستخرج أوراقاً لتستخرج أوراقاً لتستخرج ورقة واحدة هي ما تريده بالفعل. كان البيروقراطيون المصريون الأوائل يعتقدون أن وصول المحاول للدرجة السابعة من استخراج الأوراق ستؤدي حتماً الى حدوث معجزة إلهية، كأن تصدر

@3abeth

الأوراق ذاتياً بدون مجهود من المحاول، أو كأن يجد المحاول ورقته الأخيرة في بيته، مستقرة هادئة مختومة موقعة بعدما أكمل الدرجات السبع. أو الأكثر من ذلك، أن يتم عقابهم عقاباً إلهياً على انتهاك الدرجة السابعة، كأن يصعقهم البرق أو تنتشر الأوبئة بين أولادهم. وهو ما يلقى الضوء على المعتقدات الدينية للبيروقراطيين المصريين الأوائل. صدّر البيروقراطيون المصريون هذه الفكرة إلى بيروقراطيي العالم أجمع، خوفاً منهم على اندثار البيروقراطية التي أبدعوها.

يصدِّر المصريون حديثهم دائماً بذكر اختراعين، يختالون بهما على العالم أجمع. يقول المصريون إنهم أول من اخترع الحكومة والبيروقراطية، وأن العلاقة بين الاثنين سرمدية لا سبيل لكسرها أبداً.

يؤمن بيروقراطيوا مصر بآرائهم إيمانهم بالله، ويتساوى نقد البيروقراطية المصرية عندهم بنقد الأديان والأنبياء، كلاهما تجديف وكفر. ومجرد التفكير في التملص من خطوة من الخطوات، أو العبور فوق ورقة من ضمن الأوراق يعتبر فعلة بشعة، مهينة لصاحبها ولمن حوله، تمس شرفه وشرف من حوله، ويجب عدم الحديث عنها من فرط بشاعتها. ويُرد على تلك الفعلة بالجملة الصارمة المعتادة "يجب أن يطبق النظام".

في الحالات القصوى والتي يضطر المحاول لاستخراج ست درجات من الأوراق، يتضخم المخلوق ليصل إلى حجم هائل، ينحني ظهر المحاول تحت ثقل الكائن. يظهر ذلك عليه أثناء سيره في الشارع

@3abeth

وأثناء دخوله إلى أماكن استخراج الأوراق، يظهر في نظرة عينيه أثناء طلبه الأوراق من الموظف المسؤول، يتعامل معه الجميع على أنه ميت. وأن ضربه عدة ضربات أخرى لا يؤثر في جسده أو في حجم الكائن المحلق فوق رأسه.

كلما استطاع المحاول استخراج إحدى الأوراق، نقص حجم الكائن بمقدار، ذلك أن الكتل الملونة المقابلة للورقة المستخرجة تختفي، تتلاشى، تضيع، بملحقاتها من الفراغات الأخرى المقابلة للمواصلات وأيام الإجازات الضائعة، والساعات المهدرة، كل ذلك يتلاشى حينما يمسك المحاول الورقة.

لكن التلاشي قد يكون زائفا، قد يستخرج المحاول الورقة فعلاً، ثم يجد أنها غير صالحة، وأن عليه استخراجها مرة أخرى. التلاشي الحقيقي يحدث عندما يقبل الموظف المخول تلك الورقة، هناك عشرات الموانع التي قد تمنع الموظف من قبول الورقة، فقد يكون الختم غير واضح، قد ينقص الورقة توقيع أحد الموظفين، قد تكون تلك الورقة غير مطلوبة أصلاً. ببساطة سيمد الموظف يده بالورقة إلى المحاول، يخبره بطريقة هادئة أو عنيفة - تبعاً لمدى سلطته - بالخطأ الواضح أمامه، وقد يتعجب كيف لم يلاحظ المحاول هذا الخطأ. عندها يتضخم الكائن مرة أخرى، يعود إلى حجمه السابق، تتكون الكتل مرة أخرى، مع كتل إضافية ملونة بلون عميق، تمثل الذكرى السيئة لكل ما مر به المحاول أثناء تنفيذ محاولته السابقة الفاشلة.

@3abeth

الآن يحلق فوق رأس نعيم كائن هائل، ما إن يمد نعيم بصره إلى الأفق حتى يلاحظ حدود كائنه. يمسك نعيم بالورقة الصغيرة التي كتبها مدير شركة التأمين، التي ناوله وليد إياها للتوّ، ثم ينظر في عينيَ وليد، منتظراً رد فعل، أو قول. كان هناك مخلوق يحلق فوق رأس وليد، لكنه لم يعلم بوجوده بعد، هذه أول "محاولة" عظيمة لوليد، ونعيم يشاركه المسؤولية فقط، سيكتب نعيم لوليد كيفية التعامل مع الأوراق الحكومية، سيخبره بأماكن الهيئات الحكومية والسجلات المدنية، سينصحه بالطريقة المثالية للتعامل مع الموظفين، سيعلمه بكيفية عرض الرشوة على الموظف، سيدله على الطريق. أدرك نعيم أن وليد يقف في أول المتاهة، وأن عليه الدخول فيها عازماً على إيجاد الطريق والخروج من مخرجها الوحيد، وأن عليه أن يشتت ويقتل ويمسح كائنه المحلق فوق رأسه.

@3abeth

عزيزي صلاح،

دعني أرفه عنك هذه المرة، ترفيها يحوي فائدة، لا تقلق فلن يضيع وقتك سدى.

سأحكي لك حكاية قديمة، حكاية صديق عرفته منذ مدة طويلة، بدأت العلاقة عندما بحثت عنه لعدة أسابيع، وقتها لم يكن صديقاً بعد، بحثت عنه بدون سابق معرفة، فقط لأسدي خدمة لصديق آخر قديم، ولما وجدته تعارفنا وصرنا أصدقاء، سيرة حياته غريبة للغاية، لا يمكنك تخيلها، مثيرة وكلها تقلبات ومصائب، لكن هذه السيرة غير مهمة بالنسبة لك، سأحدثك عن جزء صغير جداً من حياته، مكرر وممل، وربما شاهدته في فيلم سينمائي، أو قرأته في كتاب، أو ربما حدث لأحد معارفك.

"ألف" و"باء" صديقان مخلصان، "جيم" صديقة ثالثة، الثلاثة أعضاء في خلية يسارية سبعينية مسالمة، الثلاثة تعاهدوا بالدم - تعاهد المراهقة - على الوفاء والتضحية إلى الأبد، على الإخلاص للقضية، وعلى صداقة ستدوم حتى الموت. "باء" و"جيم" تربطهما علاقة حب، طهارة أوائل السبعينيات، تلك التي أذنت بنهاية رومانسية الستينيات. أنت تعلم عم أتحدث! ثم لسبب ما - والسبب هذا ما أود الحديث عنه - قام "ألف" بتبليغ الأمن عن نشاط "باء" اليساري،

@3abeth

أخبرهم بكل التفاصيل، العناوين، الأصدقاء والأقارب، وأماكن الهروب، كل ما يمكن أن تتخيله من معلومات أصبح تحت يد الأمن. الأكثر من ذلك، أنه فور بدء ملاحقة "باء" أمنياً، قام "ألف" بإعلام "جيم" بكل هدوء بما حدث، اعترف لها ببساطة بفعلته. وقتها كان "باء" تائهاً في ممرات هروبه المتصلة والمتشابكة.

حتى اليوم، وقد مر على تلك الحادثة ما يقرب من أربعين عاماً، لا أجد سبباً منطقياً على الإطلاق لما فعله "ألف"، ظل "ألف" حتى اليوم كاتباً يسارياً ثورياً مخلصاً لأفكاره، أعرف ذلك لأني أتابع كتاباته المنشورة من وقت لآخر في الصحف المصرية والعربية. لم يتقرب "ألف" من "جيم" على الإطلاق، لم يخطفها من صديق عمره، أو ينافسه على حبها، بل هاجر خارج مصر وتزوج من أجنبية. من ناحية أخرى، استطاع "باء" - بشكل ما - أن يعيش حياة طبيعية، لكن حياة "جيم" تم تدميرها تماماً. كل ما أعرفه أنها عاشت في مصحة نفسية لسنوات طويلة، ولا أعلم شيئاً عنها منذ مدة طويلة جداً. ربما ماتت، ربما انتحرت، لا أخفي عليك، فعل "ألف" الشاذ أصابني باكتئاب عندما حكى لي "باء" الرواية لأول مرة. ولا يزال يصيبني بنفس الاكتئاب حينما أطيل التفكير في أسبابه ودوافعه، فما بالك بالرفيقة الرقيقة؟

@3abeth

كل ما ستقترحه يا صلاح من أسباب لهذا التصرف لا معنى له، أكاد أتخيل الأفكار تتدافع في رأسك بغزارة، أيضاً أراك تقصي كل فكرة ضعيفة أو غير منطقية، لتبقى فكرتين أو ثلاث، ستقصيهم أيضاً لأن أياً منهم غير منطقي، وبالتأكيد غير حقيقي.

أنت تفهم ما أعنيه حتماً، عندما تعمل طويلاً في جمع المعلومات عن الأشخاص، عن الأفراد، المواطنين، عن الشركات، الجمعيات الأهلية والهيئات الحكومية ومعارض السيارات ونوادي القمار والبارات ومحلات الأحذية والملابس والبقالين. ستعلم أن تحركات الأشخاص غير عشوائية أبداً، بل هناك دائماً أسباب لهذه التحركات، ودائماً ما تكون أسباباً منطقية، على الأقل بالنسبة لصاحبها، لكنك ستصاب بالحيرة حينما تعجز عن إيجاد دوافع لتحركات أحدهم، وستقع في الخطأ الرهيب الذي قد يسقط أي باحث أو جهاز أمن، أن تبدأ في تلفيق أسباب منطقية.

وقد تظل تبحث، إلى ما لا نهاية، تستعين بالصبر والبقاء في المنصب، لا ريب أنك بحثت عن معلومة أو رابط بين اثنين، أو خبر تائه، أو مجرد ورقة ستحل الكثير من مشاكلك، بحثت لسنوات وسنوات قبل أن تجد شيئاً مهماً. وقد تجد في أحد الأيام، وبصدفة خارقة للطبيعة والعادة، علاقة، رابطاً ما بين أمرين، بين شخصين، بين رجل

@3abeth

وامرأة، بين ولد وأبيه، ليس سراً، أو علاقة مشبوهة أو غير شرعية، وإنما مجرد معلومة، خبر صغير، أو فكرة تربط بين اثنين، مجرد معلومة بسيطة جداً، لكنها ستكون كفيلة بحل كل مشاكلك السابقة التي نسيتها، كل السنوات تلك راحت في انتظار هذا الرابط أو تلك المعلومة، ساعتها ستصبح تحركات الأشخاص منطقية، أشخاص طبيعيون لهم دوافع وشهوات. لكني يا صلاح وعلى مدى سنين طويلة، لم أجد سبباً واحداً منطقياً لتبرير فعلة "ألف".

هناك تبرير يدور في عقلي طوال الوقت، غير منطقي، غير علمي، ويستند إلى الحدس والظن، إلى قراءة عامة في نفسية البشر، وهي كلها دلائل وطرق غير عملية وتؤدي إلى نتائج هزلية إذا ما طبقناها على عملنا، لكني لم أجد تبريراً سوى هذا.

"ألف" وبرغم صداقته الوطيدة ب "باء" استسلم لرغبة داخلية قاهرة، رغبة لا يمكن إدراكها أو تفهمها يا صلاح، رغبة تفريغ الشر المتراكم بداخله، لتفريغ أقصى طاقة شر قد يولدها في حياته، هذه الطاقة لن تخرج ولو قتل أطفال مدرسة مر عليها في يوم صحو، لكنها خرجت حينما قرر إبلاغ الجهات الأمنية عن صديق عمره، فعل هذا لتفريغ طاقة الشر المتراكمة داخله، ولا شيء سوى هذا.

@3abeth

هذا ما أفعله أحياناً، أقضي وقتا طويلا في جمع المعلومات والكتابة عن أحدهم بمجرد الإبلاغ عنه، ربما لم أكن أعرفه إلا من خلال التلفزيون أو الصحف، وربما لا أعرفه على الإطلاق، لا أعرف صوته أو لكنة حديثه أو عاداته في المشي والأكل والحياة، لكن معلومة ما تفتح باب الشر عندي، ولا أجد مفراً من كتابة خطاب طويل لك طالباً القبض عليه، أو التشهير به.

ستجد الكثيرين ممن يولدون طاقة الشر الخاصة بهم كل يوم، بعضهم يكتفي بتكسير زجاج سيارة في الطريق، أو سرقة واحد لا يعرفون اسمه، بعضهم يولد طاقة هائلة، تجعلهم يرفعون دعوى قضائية على واحد لمجرد أن صورته تظهر في الصحف من وقت لآخر، أو يرفعون دعوى على راقصة، مغنية، ممثلة، لمجرد أنها ترتدي ملابس كاشفة. هؤلاء -وأنا معهم- ينفسون رويداً رويداً عن طاقاتهم المحبوسة، هذا خير من الكبت والغضب المكنون.

هذا تصرف صحي يا صلاح، أنصحك به، عليك من حين لآخر أن تخرج طاقة الشر من داخلك لتدمر أحدهم، لا لتعظ باقي الناس كما أشرت عليك من قبل، لا لتعاقبه على فعل كما أخبرتك من قبل، بل لكي تقلل طاقة الغضب الكامنة لديك. لتمتع نفسك، ولتثبت لنفسك أنك قادر على الأذى.

@3abeth

والتخلص من طاقة الشر يؤدي في النهاية إلى توليد كميات أكبر منها وبسرعة أكبر، فجوة الشر في كل منا تُملأ تلقائياً، الدعاوى والبلاغات وجمع المعلومات يفرغ الشر ليخلقه أضعافاً مضاعفة.

طاقة الشر هذه وقودي النووي، الذي سيستمر حتى موتي، والذي سيستمر ليُلهم الكثيرين ويولد فيهم طاقات الشر الخاصة بهم، حتى بعد وفاتي. فكلما تعرّف أحدهم على أفعالي غير المسببة، سيفهم ـبعد قليل من التفكيرـ أني قمت بذلك تلبية لنداء الشر في داخلي، سيقوم بمثل فعلي، أنا أورث للناس علماً نافعاً، أعلمهم كيف يتخلصون من طاقة الشر الكامنة في قلوبهم، وأعلمهم أيضاً كيف يولدون طاقة جديدة. تماماً كما تعلمت من "ألف" الذي لم أقابله يوماً، ولا أعرف عنه سوى القليل.

يمكنكم دائماً تطبيق هذه الفكرة على من تشاؤون، نظرية التخلص من طاقة الشر يمكن تطبيقها على نطاق الدولة المتسع أيضاً، هناك المثال الشهير الذي سيتابعه الناس بكل شغف: وزير، وكيل وزارة، رجل أعمال، قاضي أو مستشار، أستاذ جامعي شهير؛ باختصار، أي شخصية عامة مشهورة، مقربة من الحكومة، محسوبة على الحزب والنظام، تعمل كثيراً وتتكلم كثيراً، وبالتالي، احتمالات وقوعها في الخطأ كثيرة، المهم هنا انتظار هذا الخطأ؛ رشوة، جريمة

@3abeth

سرقة، جريمة قتل، تورط في تهريب مخدرات، أي مخالفة قانونية يا صلاح، لا يهم نوعها، فقط عليكم انتظار مثل هذه المخالفة من صديقنا وحليفنا المذكور. وبعد ذلك، هل تظن أن عليكم مساندته، هل يجب عليكم دعمه والتغطية على جريمته؟

بالطبع لا يا صلاح، عليكم بإسقاطه تماماً، حطموه ودمروه، استخدموا كل طريقة ممكنة، من خلال إعلامكم الموجه، من خلال أجهزة نشر الشائعات، من خلال كلام السيدات في النوادي، ثم عليكم بالضربة القاضية، القضاء التام بواسطة القضاء التام. عليكم تدميره من خلال قضاء مصر الشامخ، عليكم فعل ذلك بيد المقدس الأعظم، القاضي. ألم يقل مبارك يوماً "لا تعليق على أحكام القضاء"؟ ساهم مبارك في خلق ديناصور القضاء، ساهم في تعظيم القاضي، الذي لا يحكم إلا من خلال الأوراق المرسلة إليه من النائب العام، المعين من قبل مبارك! هل رأيت حلقة أكثر إحكاماً من تلك يا صلاح؟

منظومة "القضاء" ستساعدنا في "القضاء" على كل "فاسد" أو "مجرم" في مصر. المنظومة التي تبدأ من النائب العام وتنتهي عند مصلحة السجون. دعهم يتشدقون بضرورة استقلال القضاء، امنح القضاة استقلالاً جزئياً أو حتى استقلالاً كاملاً، لكن السيطرة على النائب العام ضرورة لا

@3abeth

ضي عنها، يمكن لأي نائب عام أن يصنع هيكلاً وهمياً لقضية زائفة، يمكنه أن يخلق ملفاً مليئاً بشهود الزور والأدلة الضعيفة والمستندات التافهة، حتى إذا ما وصل الملف لهيئة المحكمة، وتيقنت من ضعف الأدلة وتلفيق القضية برمتها، حكمت مطمئنة بالبراءة. يمكنكم لعب نفس اللعبة بطريقة مختلفة، يمكنكم تلفيق قضية صارمة قوية ضد أحدهم، ثم إرسالها إلى القاضي، الذي سيدين المتهم لأن الأوراق أمامه تؤكد إدانته، حتى وإن كان متيقناً من براءته.

والحقيقة أنكم تضربون عدة عصافير بحجر واحد بمحاكمة المقربين منكم؛ فمحاكمتهم ستوحي للناس باحترامكم للقانون والقضاء، هذا الذي وضعناه وخلقناه، كما ستوحي بنزاهتكم وطهارتكم وصدق الرئيس ونظافة يده، وفي نفس الوقت، ستتخلصون من شريك سخيف ضعيف تافه، وستعيدون تقسيم نصيبه من الكعكة على باقي الشركاء، والسبب الأهم، أنكم ستتخلصون من فائض طاقة الشر لديكم، ثم ستولدون طاقة شر جديدة طازجة. هذا كفيل باستمرار عملكم إلى الأبد.

@3abeth

زيـــارة

استقر نعيم في الدار أخيراً.

أيام طويلة مرت بلا زبائن على الإطلاق، لا زوار، لا أحد يود تجليد كتاب قديم، لم يدخل كتاب واحد إلى دكان وهيب. ظن نعيم أن هذا نحس أصاب الدكان لما عاد إليه. يأتي وهيب كل يوم عند الظهر، يتحدثان بالكتابة والإشارة، ثم يملان كل شيء، يتناول وهيب جريدته ويقرأ، ويعود نعيم إلى ركنه في الدكان، يجلس صامتاً، منتظراً إشارة من وهيب لفتح باب الحديث، إشارة لن تحدث إلا نادراً جداً. يخرج نعيم أحياناً ليقف أمام الدكان، يمشي على الرصيف بضعة خطوات، لا يبتعد عن الباب، ينتظر أحد الزوار، ويحاول مساعدة عجلة الوقت.

دخل الرجل بثقة إلى الدكان، حمل حقيبة جلدية سوداء، وضعها على الطاولة الكبيرة، وأخرج منها ثلاث كتب مهترئة، أمسك الكتب بين يديه، تصفحها بهدوء، وضعها واحداً تلو الآخر على الطاولة الكبيرة، وأخذ يبحث في حقيبته. رفع نعيم كفه حتى رأسه محيياً الرجل، حرك الكرسي تحته حتى يلتفت الرجل لصوت الكرسي، لكنه

@3abeth

ظل مستغرقاً في البحث داخل حقيبته. ارتجفت كف نعيم المرفوعة إلى جوار رأسه لأن الرجل أهمله، هكذا، استقبل نعيم أول زائر للدكان.

أخرج الرجل من حقيبته السوداء دفتراً صغيراً، أمسكه بأصابع رفيعة طويلة، عنكبوتية الحركة، وأظافر مدببة أنيقة نحيلة، كأنها أصابع مصاص دماء أنيق. فتح الرجل الدفتر الصغير، تصفحه، حتى وصل إلى إحدى صفحاته، بدا أنه سيبدأ في القراءة، وقف الرجل وكأنه لا يلحظ نعيم، حتى الآن نعيم غائب عن عيني الرجل، نعيم غير موجود، جزء من فراغ الدكان، كرسي من الكراسي.

أخرج الرجل من جيبه علبة مخملية صغيرة، ثم أخرج منها عدسة مستديرة، رفع الرجل العدسة ووضعها أمام عينه اليسرى، استدار ليواجه نعيم بشكل كامل، فوراً، ظهرت عين الرجل اليسرى أمام نعيم، كانت مستديرة، دائرة مثالية، بينما كانت الأخرى عيناً لوزيةً عاديةً تماماً. لم يلحظ نعيم العين المستديرة عندما دخل الرجل، طوال ذلك الوقت كان الرجل حريصاً على عدم مواجهة نعيم، على تأجيل صدمة اللقاء الأول بالعين المستديرة، وها هي الصدمة تصيب نعيم أخيراً. يحدق الرجل في دفتره قليلاً، يحضر نفسه للكلام، ثم بطريقة مسرحية، بحركة سريعة للذراع، يخفض العدسة، فتبدو عينه المستديرة وكأنها عين صناعية تم تركيبها بدلاً من عينه الطبيعية. قال الرجل: "يوسف سرمدي".

فوراً، بدأ يوسف سرمدي يعدد لنعيم مواصفات الغلاف،

@3abeth

وكما اعتاد نعيم قديماً، أخذ يسجل المواصفات في ذاكرته، واحدة تلو الأخرى، الألوان، أنواع الجلد، زوايا حديدية لامعة صغيرة، كتابة بحبر فضي على الكعب، اسم الكتاب واسم المؤلف وجملة "مكتبة يوسف سرمدي" يخزن نعيم كل الطلبات في ذاكرته. ثم وبلا أي مقدمات، طفت ذكرى غريبة إلى جانب نعيم.

ربما لأن نعيماً أثار ذاكرته لأول مرة منذ مرضه، منذ تركه عمله بصفته نجاراً، أو ربما، منذ أن نزل إلى القبر ليضع اللفافة في حلق الميت. كان نعيم مشغولاً طوال تلك المدة، تعطلت ذاكرته، وها هي الآن تُبعث من جديد.

على ارتفاع متر من الأرض، قليلاً ناحية اليمين، طفا سطح غير محدد المعالم إلى جانبه، جزء من كرة، أو جزء من سطح مستدير مشوه قليلاً، يصلح لأن يكون قناعاً للوجه، أو ربما غطاءً لجسم كروي. احتار نعيم في وصف الذكرى، ما هذا؟ ما هذه؟. ظهرت ذكرى السطح رغماً عن نعيم، كان محتاراً بين تأمل الذكرى، وبين تخزين ما يقوله يوسف سرمدي. يود ألا تفلت من ذاكرته تفصيلة مما يقوله الرجل، ويود أن يتذكر أين رأى السطح أول مرة. يختفي السطح ويعاود الظهور ليشغل نعيم أكثر فأكثر. بعد دقائق من ظهوره إلى جانب نعيم، اختفى فجأة. زفر نعيم زفرة راحة، وعاد يلتفت لما يقوله يوسف.

كان يوسف سرمدي قد أنهى حديثه، عدد مواصفات كثيرة

@3abeth

لتجليد كتبه، أخيراً، بعد أن فشل نعيم في تسجيل كل ما قاله يوسف. أغلق يوسف دفتره، وناوله لنعيم، قال إن كل المواصفات مسجلة في الدفتر، وعلى نعيم أن يكون دقيقاً في عمله، عليه أن يحافظ على الدفتر والكتب، أخبره بأنه سيعود بعد مدة ليأخذ الدفتر والكتب.

لم يتفقا على سعر محدد، لم يتفقا على ميعاد محدد، استدار يوسف سرمدي وخرج من الدكان. تاركاً نعيم ممسكاً بالدفتر.

***

يبدأ الهوس كأنفاس رقيقة خارجة من أنف رضيع نائم، لا تكاد تُلحظ لفرط خفتها، لكن الهوس يتعاظم مع الوقت، يتغذى على الرؤية المستمرة، على العرض، يتعاظم كلما فكر الواحد فيه، ويصل إلى القمة حينما يجد المرء نفسه عاجزاً عن التفكير فيما سواه. يصبح حينها هوساً حقيقياً، كاملاً، بلا أقنعة أو مجاملات، يسيطر تماماً على صاحبه. الهوس يصيب الناس كلها، وعلى الرغم من عدم منطقية الأمر، هناك علاقة طردية بين تفاهة الغرض، وشدة الهوس. ربما لأن التوافه سهلة المنال، كلما نالها المهووس زاد هوسه، وكلما سيطرت الرغبة على المهووس كلما ارتبط بها.

هناك فرقة ناجية، تؤمن بأن الهوس يدل على الضعف، أفراد الفرقة يكرهون الهوس، يرونه ضعفاً. هم كانوا مهووسين في أحد الأوقات، ثم وجدوا أن هوسهم قد سيطر عليهم، حول مسارات حيواتهم، فقرروا أن يقتلوا الهوس، أن يعرضوا عن كل عادة حتى لا

@3abeth

تتحول هوساً، عادات مثل شراء الصحف اليومية وغسل الأسنان وتمشيط الشعر، عادات كهذه ستتطور إلى هوس إن استمرت لأيام قليلة متتالية، يرون أن كسر العادة أفضل طريقة لقتل الهوس المترقب، تطور العادة إلى هوس يرعبهم، هم مهووسون بمقاومة الهوس.

***

أوراق دفتر يوسف سرمدي رقيقة، خفيفة وشفافة بدرجة ما، منفذة للنور بدرجة ما، إذا دقق الواحد نظره للمح أسطر الصفحة التالية تظهر رقيقة من خلال الصفحة المواجهة لعينيه، قطع الأوراق صغير، لم يتمكن نعيم من تحديد المقاس، هو مقاس متناسب مع حجم جيب بنطلونه الخلفي، وضع الدفتر الصغير في الجيب، ثم تحرك، مشى وجلس ووقف واستدار، يختبر وضعية الدفتر في جيبه، لم يشعر بثقل، بل بضغطه جافة بالغة الخفة على ردفه، أعلمته الضغطة أن الدفتر هناك، موجود ومتصل بجسده، هذه ضغطة تأكيد الوجود، فبدلاً من لمس الدفتر المختبيء في الجيب بأطراف الأصابع كل عدة دقائق، للتأكد من وجود الدفتر وعدم سقوطه أو سرقته، يكتفي صاحب الدفتر بتلك الضغطة الخفيفة. تجليد الدفتر بسيط للغاية، غلاف مصنوع من البلاستيك، مشمع يلتصق بأول وآخر ورقتين، من أول وآخر ملزمتين، وبينهما عدة ملازم أخرى رقيقة، الدفتر مرن للغاية، الغلاف والورق الخفيف يكونان في النهاية جسماً صلباً لكنه مرن، طري، ينثني بين الكفين، ويوحي بضعف ورقه، الدفتر اداة للتدوين،

@3abeth

ولا يفترض فيه غير ذلك، لكن هذا رقيق للغاية، يجبر نعيماً على التلطف أثناء الإمساك به، على معاملته برقة ودماثة، يجبر نعيم على الهوس به.

بدأ هوس نعيم في الشراسة حينما وجد أنه توقف عن العمل، هذه أول مجموعة كتب يعمل عليها منذ مدة طويلة، خشونة الورق المتكدس ذكرته بسنوات طويلة بعيدة، لكن الدفتر كان يأخذه من الورق والكتب والعمل برمته، ظل نعيم يسعى بين رغبتين، تجليد الكتب والدفتر. كانت رغبته في الدفتر غامضة، لم يعلم نعيم ماذا يريد، الاستيلاء على الدفتر؟ الادعاء بأنه ضاع، احترق، حينما يأتي سرمدي بعد مدة سيسأل عن الدفتر، سيطلبه حتماً، إذا سيطر الدفتر على نعيم بعد أيام قليلة من القرب، فما حال يوسف سرمدي؟ المشكلة تكمن في سيطرة الدفتر على سرمدي، لو كان الدفتر دفتراً عادياً، لن يغضب سرمدي حينما يدعي نعيم فقدانه، لا يحوي الدفتر أي معلومات مهمة، صفحات قليلة تحوي ما يتعلق بالتجليد، أما باقي الصفحات، فخالية تماماً من أي كتابة. يوسف سرمدي سيغضب حتماً لأنه سيفتقد سيطرة الدفتر عليه، لن يهدأ له بال طالما غاب الدفتر عنه.

في كل ساعة، كان نعيم يمسك بالدفتر، يفتح صفحاته الواحدة تلو الأخرى، يتفحص بعناية الغلاف البلاستيكي المرن، يتأمل كلمة "الشمرلي" المحفورة على الغلاف، حولها خط يرسم شكلاً بيضاوياً غير كامل، بيضة غائرة في الغلاف تحوي اسم الدفتر، هذا اسم المصنَع، الرجل يخلِّد اسمه على كل ما ينتجه، لم يكن نعيم في حاجة

@3abeth

لتخيل مدى انتشار الاسم، دفاتر صغيرة كثيرة، أجندات سنوية في آلاف الجيوب، كشاكيل مدرسية وجامعية مع ملايين الطلبة، يميز الجميع الغلاف المشمع المرن، طبقة بلاستيكية رقيقة، كل الغرض منها احتواء ملازم الأوراق، لا تحميها بقدر ما تجمعها، يعلم الشمرلي أن تلك الرقة ستجبر صاحب الدفتر على الاهتمام به، على العناية به، سيمشي الواحد حاملاً الدفتر في جيبه الخلفي، ثم يجلس ليتذكر فوراً الدفتر الخفيف، يتذكر أنه ينبعج الآن تحت تأثير استدارة إليته، وشد قماش البنطلون، سيخرج الدفتر فوراً، سيبدأ في ثنيه برقة وببطء في اتجاه معاكس، يحاول معادلة تأثير ما حدث للتو، وكلما طاوعه الدفتر، كلما انحنى مع ضغط كفيه، كلما خف الضغط ورق، فلا يريد الواحد أن يزيد التأثير حتى يفسد دفتره بيده.

وضع نعيم الدفتر في جيبه الخلفى ومشى، عائداً إلى البيت، خلال المسافة من عبد الخالق ثروت إلى الفجالة تمزق نعيم بين رغبات ومشاعر عديدة؛ هذه سرقة، يأخذ دفتر أحد الزبائن ويضعه في جيبه ويمشي وكأنه يملكه، دفتر نعيم وليس دفتر يوسف، نعيم يفسد سمعة الدكان تماماً، لو كان وهيب وهيب حياً لما سمح بذلك، فرج كذلك كان سيعنفه بشدة، أخرج نعيم الدفتر لأنه نسي لون غلافه، تأمله ثم انزلق الدفتر مرة أخرى في جيبه الخلفي، أخرجه ليختبر وزنه، ثم انزلق مرة أخرى، أخرجه ليتفحص الورق الخفيف الشفاف، ثم انزلق مرة ثالثة، ما ان اقترب نعيم من البيت حتى أدرك أن عليه العودة إلى الدكان، ليترك الدفتر هناك، هذا ليس دفتر نعيم، هذه سرقة، سار

@3abeth

نعيم متعجلاً، غاضباً من نفسه ومما فعله، كره فعله غير المسؤول، هذه حماقة لا تصدر من رجل عاقل مثله.

على الرغم من إدراك نعيم لسيطرة الدفتر عليه، لبدايات هذه السيطرة، المتمثلة في التعلق به وتأمله لمدد قصيرة لكنها عديدة، لكن نعيماً لم يكره دفتر يوسف سرمدي، فكر نعيم مثلما تفكر عطيات، لا يجد تفسيرات منطقية لما يراه في بعض الأحيان، فيحلل الأمور كما تحللها عطيات، يسخر منها في كل وقت، لكنه مع ذلك يحشو فم الميت باللفافة، ويعيد أسباب السيطرة إلى سحر عمله يوسف سرمدي. ربما كان يوسف ساحراً، ربما كان الدفتر حجاباً أو طلسماً، يحوي كتابات بحبر سري، ليسيطر يوسف به على كل من يمسكه، لهذا تركه بين يدي نعيم إذنا، ليسيطر على نعيم ويحركه على هواه، الله يخرب بيت عطيات!

أدرك نعيم أن الدفتر قد سيطر عليه تماماً.

الاسم الغائر، البيضة الحاوية للاسم، الغلاف المرن، ثم أخيراً، ما أصاب نعيم في مقتل، أيام طويلة وهو يتفحص الدفتر لكن هذه التفصيلة غابت عن عينه الفاحصة؛ إطار من مربعات صغيرة غائرة، يحدد الغلاف الطري، هذه حيلة يعرفها نعيم جيداً، تقوي الغلاف، تحدده، إعادة تشكيل حدود الغلاف المرن ليصبح أقوى، تشوية متعمد لكنه منتظم، يجمع بين خامة الغلاف المرنة، والصلابة المحدودة الناتجة عن إعادة تشكيل السطح المستوي للغلاف، هذا الإطار

@3abeth

هو ما قتل نعيم، كيف لم يلاحظه والدفتر بين يديه لأيام كثيرة، يتأمله لساعات طويلة للغاية، تأخر يوسف سرمدي، كل هذا شجع نعيم على اختلاس ساعات من عمله ممسكاً بالدفتر يتأمله، لكن الإطار صدمه بمجرد أن لاحظه.

مرت أيام طويلة على نعيم وهو مستلم تماماً لغواية الدفتر، يسير كالميت من بيته للدكان كل يوم، يحمل الدفتر في جيبه الخلفي كأنه يملكه، هو دفتر نعيم وليس دفتر يوسف سرمدي.

عاد نعيم للفجالة في آخر اليوم، كان في أقصى حالات هوسه، مذبذب ومتوتر، نمل يسير في رتابة داخل فمه، لا يؤلمه، لكنه يشغله عن كل ما حوله، يدور تحت لسانه، يرفع نعيم لسانه حتى يسمح للنمل بالمسير، ربما هداه الله وخرج من فمه تاركاً نعيم في حاله. لكن الهوس كان قد امتلكه أخيراً. اليوم قرر نعيم أن يبتاع دفتراً من دفاتر الشمرلي، سيلقي بنفسه أخيراً بين يدي الدفتر تماماً، سيستسلم للهوس وربما سيستمتع به، الآن لن تكون ملكية يوسف سرمدي للدفتر عائقاً، سيمتلك نعيم دفتراً، أو أن دفتراً سيمتلك نعيم.

بدلاً من العودة للبيت، أخذ نعيم يمر على دكاكين الوراقين والأدوات المكتبية في الفجالة، واحداً واحداً، يُخرج الدفتر من جيبه ويسأل بإشارات اليد والأصابع: هذا موجود؟ أين أجده؟ بكم؟ كان يقابل بالرفض في كل مرة، قالوا إن الدفتر نفد، ربما يجده في مكتبة كذا، أو المكتبة الواقعة على الناصية القادمة، في أول الشارع، في

@3abeth

آخره، كلما وصل نعيم لمكتبة تخلو من دفتر الشمرلي، كلما زاد توتره، أخرج دفتر يوسف من جيبه وتشبث به كطفل يتشبث بدمية، أثناء سيره أشفق نعيم على روحه، إشفاق استمر لثانية واحدة، عادت بعدها الرغبة في الاستسلام للدفتر ملحة لا يمكن مقاومتها. راح الدفتر من السوق؟ قديم؟ توقفوا عن تصنيعه؟ سيذهب إذن للمصنع، سيسأل التاجر التالي عن عنوان المصنع.

الآن أول أشهر العام، قال التاجر له إن الشمرلي ينتج الآن الأجندات السنوية، هذا موسمها، والدفتر هذا سيصنعه في الأشهر القليلة القادمة، ثم يمر بمدة طويلة من الهدوء، ليبدأ بتصنيع الكشاكيل المدرسية والجامعية مع بدء الدراسة، ثم يعود مرة أخرى للأجندات، هكذا تدور سنة الشمرلي، عليه أن ينتظر قليلاً.

لم ييأس، لا يزال يدور بين الدكاكين، يدله واحد على محل نجمة الفجالة للأدوات المكتبة، دكان يقع في آخر حارة، تغص بالناس والدكاكين والورق، هذا ليس دكاناً عادياً، بل هو موزع ضخم للورق والأدوات المكتبية. في منتصف الدكان يجلس كهل، ببدلة كاملة، مشغول بحسابات وأوراق، وأمامه تتحرك بعجلة فتيات كثيرات، تتابعن الزبائن، تسأل الواحدة عن طلب الزبون، ثم تغيب في الداخل لتأتيه بما يطلب، خلية نحل، المشهد أكد لنعيم أن دفتر الشمرلي هنا حتماً، يقبع في رف في الداخل، يختبئ بين دفاتر كثيرة، بين أوراق، هذا آخر دفتر شمرلي لدى الموزع، لدى الدكان، ولو راح ولم يأخذه نعيم، لكان عليه أن ينتظر أشهراً أخرى حتى يبدأ الشمرلي في تصنيع

@3abeth

الدفتر مرة أخرى.

أخرج نعيم الدفتر من جيبه الخلفي، وضعه على الطاولة الخشبية أمام الفتاة، نظرت الفتاة في وجهه، ثم غابت داخل الدكان، اختفت عن نظر نعيم، الذي أخذ يتابع الزبائن والفتيات والبضاعة المرصوصة على الأرفف.

فجأة ظهرت الفتاة أمامه، ووضعت قالباً ملفوفاً ببلاستيك شفاف، اثني عشر دفتراً.

لثوان قليلة، لم يتمكن نعيم من التنفس، تصلب حجابه الحاجز، توقفت رئته، وانقطع كل صوت عنه، وتحولت الدنيا لكادر سينيمائي ضخم، لا يشغله إلا المكعب الموضوع أمامه.

أفاق أخيراً على صوت الفتاة وهي تخبره بالسعر، وضع أمامها عملة ورقية وأخذ الباقي وانصرف، خرج من ظلام الحارة المنار بضوء صناعي أصفر، إلى نور الله في شارع الفجالة.

***

جالساً على أرضية الدكان، أدار الرزمة المتماسكة بين يديه بوله، تأمل كل ركن فيها، ثم كالمحموم، أخذ نعيم يمزق الغلاف البلاستيكي الشفاف، أمسك بالدفاتر، اثني عشر دفتراً بأغلفة متشابهة شكلاً، لكنها تختلف في الملمس واللون، أغلفة خشنة، أخرى ناعمة، وثالثة بين بين، يفتح نعيم الدفاتر واحداً تلو الآخر، يتصفحها، يقلبها

@3abeth

بين يديه، يبدأ في استنشاق رائحتها، يميز رائحة بعيدة جداً لغراء شفاف، يعرفه تمام المعرفة، هذا غراء خفيف، يصلح للصق دفاتر من هذا النوع، يتجمد إذا سكن، يجف إذا تركته للهواء، أما إذا فركته بين اصبعيك فلن يجف مطلقاً، سيظل هكذا طرياً إلى الأبد.

رائحة حبر!، هذه لم تكن متوقعة بالمرة! توقع نعيم أن يميز رائحة ورق، لكن رائحة حبر يعبق بها ورق فارغ!

أذهل الغلاف المشمع نعيماً، الغلاف ذو شكل واحد، كلمة الشمرلي في منتصف أسفل الغلاف، كلمة "مذكرتي" غائرة بخط رقعة في المنتصف تقريباً، والإطار المكون من مربعات صغيرة غائرة ثابت ولا يتغير، البلاستيك مادة مطاوعة للغاية، لكن ما يراه نعيم الآن جديد تماماً، لم يره طوال سنواته السابقة.

كل الدفاتر جديدة، بلا ثنيات قبيحة في منتصف الملازم، الناتجة عن طول حمل الدفتر في الجيب الخلفي للبنطلون، وطول الجلسة المسببة لتشكل الدفتر، طراوة الدفتر تتيح فعل ذلك بلا حرج أو ضيق لصاحبه، لكنها تشوه الدفتر يوماً بعد يوم.

أوشك نعيم على استعادة هدوئه، استسلم للهوس، تملكته الدفاتر أخيراً، ونسي تماماً دفتر يوسف سرمدي، هادئاً، مطمئناً لكل ما يحدث، تمدد على الأرض، واستسلم للنوم، لكن قليلاً من القلق كان لا يزال يسيطر عليه.

@3abeth

عزيزي صلاح،

هل تذكر حينما حدثتك عن وجه رؤساء التحرير المكشوف، نفاقهم الواضح؟ ساوضح لك اليوم أهمية الغموض في حياة المواطن المصري، كيف أن الوضوح مصيبة قد تودي بنا إلى كارثة حقيقية. وبالمناسبة، لم يتغير أي شيء بخصوص رؤساء التحرير الأغبياء، يبدو أن كلامي لم يعجبك يا صلاح.

ألا تظن أننا أصبحنا مكشوفين أكثر من اللازم، ألا ترى أننا نفتقر اليوم إلى الغموض؟

لكن ماذا يحدث الآن؟ يمكن ببساطة لطالب جامعي، أن يدرك بدون توجيه من أحد، شخصية المسؤول عن حادث القطار، أو غرق العبارة، أو انهيار منزل أو مبنى. هذه المسؤولية كانت غامضة وملتبسة منذ عشر سنوات، كان لابد من انتظار رأي الحكومة بهذا الصدد، الحكومة هي من تلقي اللوم على فلان أو علان، وليس الناس.

والحقيقة أني لا أعرف من المسؤول عن زوال هذا الغموض والتخبط، كنت أريده أن يستمر ماثلاً إلى الأبد بين المصريين. لكن تأكدوا أن هناك الكثير من العوامل والأسباب التي أدت في النهاية لإزالة غموض المسؤولية في مصر؛ زيادة وعي الناس، زيادة وقت الفراغ، التخفيف من الأعباء

@3abeth

والواجبات الدراسـية للطلبة، التخفيف من أعباء الموظفين. أتذكر الآن ملحوظة مهمة، زيادة الواجبات والأعباء في كلية التجارة لا معنى له، كره الطلبة للكلية وحبهم لزميلاتهم كفيل بشغلهم سنين عديدة، الخوف يكمن في طلبة كليات الهندسة والطب، لابد من زيادة الأعباء بلا حد أقصى، لابد من الضغط حتى ما قبل الانفجار، لكن لا خوف منه في الواقع، طلبة هندسة وطب يعشقون الضغط ويتأقلمون معه.

أنا أتشعب وأستطرد، آسف لكن الأفكار تنطلق بدون قصد مني. يجب أن يعود غموض المسؤوليات يا عزيزي. لا أعرف كيف يمكن تحقيق ذلك، لكني سأفكر في حلول، هذا موضوع أكبر من أفكر فيه في أيام قليلة. أعتقد أن رفع حالة الغموض تم بدون قصد منكم، تم بشكل تدريجي غير ملحوظ، مر الأمر تحت أعينكم بدون أن تشعروا به.

بالطبع ما زال هناك نخبة من الناس يتمتعون بجهل رائع، هو أقصى ما يتمناه أي رجل دولة في العالم.

دعك من الظروف المحيطة، لكني قابلت رجلاً يوم السادس من أبريل الماضي، يوم اللعنة الحقيقية على مصر، كان في طريقه للدخول إلى محل عمله، موقع تشييد كان خالياً تماماً من العمال، ولا أعلم إن كان ذلك بفعل الإضراب أم أن غياب العمال كان مجرد صدفة. لما حادثت الرجل عن

@3abeth

الإضراب، وعن أسباب "إضرابه" عن الإضراب، لم يرد بمبررات مثل أكل العيش أو أهمية العمل، أو تأييده للحكومة، أو مثلاً إيمانه بأن المضربين كسالى وأفاقون، لكنه قال: أعلن وزير الداخلية أنه سيعاقب بالحبس والغرامة كل من لم ينزل من بيته يوم ٦ إبريل.

عودة الروح! لا يزال هناك أمل في هذا الشعب يا سيدي، هذا الشعب خيرة الشعوب، وهنيئاً لمن يحكمه. تأمل معي كمية الأخطاء في جملة الرجل القصيرة، لا بد أن الأخطاء أكثر من عدد كلمات الجملة يا عزيزي، فلنحص الأخطاء معاً. ١ـ أعلن وزير الداخلية: خطأ، لم يعلن الوزير أي شيء. ٢ـ سيعاقب بالحبس والغرامة: خطأ، الوزير لا يمكنه من الناحية القانونية والفعلية معاقبة ذبابة بالحبس أو بالغرامة. ٣ـ كل من لم ينزل من بيته، خطأ، حتى مع فرض صحة ظن الرجل، كيف يمكن أن يعاقب الوزير المريض الراقد في بيته، أو المحال على المعاش، أو الطفل الرضيع في مهده؟ لا أخفي عليك أني كنت خائفاً من مشهد الشوارع الخالية في هذا اليوم، الدالة على نجاح الدعوة للإضراب، لكن هذا الرجل أعاد لي الأمل.

لكن كلام الرجل ذكرني بأداة مهمة للسيطرة على الناس، مختلفة تماماً عن الأدوات التي أحدثك عنها طوال

@3abeth

الوقت؛ ربما لا تزال العصا مهمة للتعامل مع الناس يا عزيزي.

كبداية، أود أن يعود غموض الدولة إلى عهده السابق، أريد أن يظن الناس- كما يفعل هذا المواطن الصالح- أن بإمكان وزير الداخلية القبض على أي شخص وحبسه وتغريمه. أود أن يصمت الناس عند أي ذكر للدولة، عند أي ذكر للحكومة أو الإدارة أو المؤسسة أو الرئاسة أو المخابرات أو أمن الدولة أو الأمن العام أو الأمن الوقائي أو الأمن الصحي أو الأمن الغذائي أو حتى كير سيرفيس. هذا الصمت الكئيب قاطع الأنفاس.

لقد عاش المصريون زمناً رائعاً من قبل، كان ذكر اسم صلاح نصر كفيلاً بإصابة سامعه بالرعب لبقية أيام الأسبوع. ثم جاء زمن هدد الناس فيه بعضهم بعلاقاتهم بالمخابرات، أبي يعمل في أمن الدولة، أخي يعمل في المخابرات الحربية، ثم جاء وقت ملعون راحت فيه هيبة كل أجهزة الدولة. الأكثر من هذا، أصبحت مهمة ومسؤولية الأجهزة معروفة للكثيرين، أو هكذا يظنون.

غياب الغموض هو أحد أهم أسباب اعتياد الناس على انتقاد الحكومة، هم الآن يعرفون المسؤول عن الخطأ، من يجدر بهم انتقاده، ومن يجب عليهم تأييده أو مهادنته.

@3abeth

يجب أن نطور المجتمع المصري، أن نعيده إلى سابق عهده. ولا أنكر أن إنجازاتكم التي تحققت خلال السنوات الماضية بالغة العظمة، هائلة ولم ينجزها أي حاكم مصري على مر التاريخ، لكن الرغبة في الوصول للكمال يجب أن تظل الرغبة الأساسية المحركة لكم. أنتم أوصلتم الشعب المصري إلى مرحلة الانبطاح، وهي أفضل ما توصل إليه حاكم مصري من قبل، لكني أريد أن أطور المرحلة، أريد أن أتجاوز مرحلة الانبطاح، لا يمكن للمصري أن يظل منبطحاً طوال الوقت، أريدكم أن تصلوا بالمواطن المصري إلى مرحلة الفلقسة، أن يتخلى المصري عن انبطاحه وأن يفلقس، أن يرفع مؤخرته منتظراً نصيبه. أن يرضى بوضعه مفلقساً، أن يغري الآخرين المحيطين به، أن يستعد لنزواتهم المترتبة على وضعه كمفلقس دائم، كمفلقس مخلص لوضعه.

@3abeth

خالدين

صحا نعيم من نوم ثقيل، كان قد ترك كل شيء، ونام في الدكان، لم يشغل باله بعطيات والبيت، كانت عطيات مشغولة بأشياء كثيرة، بحملها، بالبنات، بصمت نعيم الجديد، لم تكن قد اعتادت على صمته بعد، كانت لا تزال تسأله وتسأل نفسها عن أسباب الصمت، كان قد اعتاد على البيات في الدكان ليوم أو يومين، لم تقلق بالأمس عليه، أدركت أنه سيبيت ليلته في الدكان، لكنها لم تعلم بأن نعيم استسلم للهوس لأول مرة في حياته.

خرج نعيم من الدكان مبكراً، ابتاع الأهرام وإفطاراً بسيطاً، عاد إلى الدكان وهو متلهف للإمساك بالدفاتر، لتنشق رائحتي الحبر والغراء، لرفع الدفتر فوق رأسه، والتطلع إلى المصباح الكهربائي عبر الورقة نصف الشفافة. أقفل نعيم باب الدكان عليه، وأخذ يحصي الدفاتر، أخذ يتفحصها للمرة المائة، مسح بصماته من على الأغلفة، رص الدفاتر بترتيب معين على الطاولة الكبيرة، ثم غير الترتيب وأعاد الرص، رصها في كومة هرمية عشوائية، ثم على شكل عمود قصير، ثم وضعها وكأنها كتب على رف مكتبة. فكر للحظة عما سيفعله بالدفاتر

@3abeth

الاثني عشر، لكنه لم يجد لها أي فائدة.

بعدما أرضى نعيم رغبته، أخذ استراحة وتصفح الأهرام، كان قد هدأ كثيراً، وصار مزاجه رائقاً تماماً، استمتع بالصفحة الأخيرة ومقال أنيس منصور، قرأ صفحة الحوادث كاملة، يحب نعيم الإثارة المختبئة بين السطور في تلك الصفحة، قرأ إعلانات المسرحيات الكوميدية، إعلانات الملاهي الليلية، إعلانات الرقاصات والمغنين، قرأ صفحة الرياضة، لفت نظره خبر عن فريق الهوكي، قرأ أحوال الوزراء والمحافظين، وقرأ صفحة التحقيقات، في النهاية، عاد لما يعتقد أنه أصدق صفحات الجريدة؛ الوفيات.

ها هي الأمنية تتحقق أخيراً، سينشر أحدهم صورته في الأهرام، يتمنى الجميع ذلك، في صفحة التلفزيون، في الاجتماعيات، في التحقيقات، في الحوادث لو كان وكيلاً للنيابة أو ضابطاً وذكره الخبر ذكراً حسناً. لكن بعضهم لا تتاح له تلك الفرصة إلا بعد موته، لا بأس، لن يرى الصورة صاحبها، سيراها الأب والابن والأخت، الزميل في العمل سيعرف، البائع في المحل والحلاق والقريب والصديق، كل منهم سيعرف أن صاحب الصورة قد مات. هذا أهم حدث قد يحدث لإنسان، أن يموت. وعماله يعلن الميت عن موته، واضعاً صورته المفضلة أعلى الإعلان. سيتذكر الواحد كل الأسماء وهو يكتب نص النعي، سيكتب أسماء كل أقربائه، كل صلاته، سيبذل جهداً حتى لا ينسى اسماً واحداً، أيضاً سيتذكر مهنة كل شخص، مورده رزقه وأكل عيشه. علي بوزارة العدل، تلك ستكون مسبة، لأن علي غالبا ما

@3abeth

سيكون ساعياً في الوزارة، ولو كان محاسباً لكتب: علي محاسب بالعدل. لكن كل هذا غير مهم، أهم ما في النعي، صورة المتوفى.

في الصفحة اليسرى، وجد نعيم صورة لرجل مسن، ضخم الرأس، صلعته لامعة، وتتعلق بمحجره الأيسر عدسة تامة الاستدارة تظهر عينه اليسرى تامة الاستدارة هي الأخرى، فوق الصورة قرأ اسم الرجل: يوسف سرمدي.

مات يوسف، وترك مجلداته ودفتره، فكر نعيم؛ لن يكون عليه أن يتم تجليد الكتب، لن ينقده يوسف أي مال الآن.

قرأ نعيم بقية أخبار الموتى، تأمل الصور كثيراً؛ الابتسامات، الوجوه الصارمة، تصفيفات شعر السيدات، الأسنان المتساوية ناصعة البياض، عمامة ضخمة على رأس أحدهم، صورة كبيرة "للمقدس"، تظهر رقبته عريضة كما أنفه، صعيدي أسمر، لابد وأنه هاجر للقاهرة منذ مده وأصاب قدراً كبيراً من المال، إعلان كهذا ثمنه آلاف، تحية أخيرة من أهل الميت للميت، فخر بموته وإنجازاته في الحياة، ودعم للدولة والصحافة القومية.

وضع نعيم الجريدة جانباً، وانتقل إلى الطاولة الكبيرة، تابع ما أنهاه بالأمس من عمل، كان مطمئناً، ها هو عمل سينتهي على درجة كبيرة من الاتقان، لا وقت محددا لتسليمه للعميل، عليه أن يبدع كما كان يبدع منذ عشر سنوات.

كان نعيم يستريح كل ساعة، يجلس، يمسك بدفاتره، يعيد

@3abeth

طقوس شم الحبر والغراء، يقلب الأوراق، ثم يعود للعمل.

في آخر النهار، بعد يوم طويل هادئ تماماً، خال من إفرازات الأدرينالين التي أرقت نعيماً في الأيام الأخيرة، رتب نعيم أوراقه ومعداته ومجلداته، مسح سطح الطاولة، كنس أرضية الدكان، ورص دفاتره داخل أحد الأدراج. لاحظ انبعاج غلاف أحد الدفاتر، الدفتر النبيذي اللون، كره نعيم اللون لما رآه أول مرة، وأهمل الدفتر متحججاً بلونه المائع، وسطّ بين ألوان كثيرة.

حاول نعيم ثني الدفتر بالكامل في الاتجاه المعاكس لاتجاه الثني، ظل الغلاف على حاله، فتح الدفتر، وأخذ يثني الغلاف وحده مفلتاً باقي الأوراق حرة، قرر أن يقوم الغلاف وحيداً ليعيده إلى حاله الأولى. في الصفحة الأولى للدفتر، وجد نعيم صورة يوسف سرمدي.

كانت صورة تشبه ما رآه في أهرام اليوم، ذكرته بصورة الأهرام، بسرعة، فتح نعيم الأهرام وطالع صفحة الوفيات، طابق بين الصورتين، وجد أن الصورة في الدفتر مطابقة تماماً لما في الصفحة، هي نفسها الصورة المطبوعة على الصفحة اليوم، قُصت بمقص من إحدى نسخ الجريدة، وألصقت بالدفتر.

توقف نعيم كثيراً أمام صورة الدفتر، نسي الدكان، والعمل، والكتب، كان قد تعود على نسيان المرض وفيرنكه وعطيات والبنات طيلة أوقات العمل، كان قد استسلم لهوس الدفاتر، وللدكان المعزول عن الشارع، لكن ما وجده للتو كان مبهراً. بعد دقائق من السكون،

@3abeth

عم الضوء كل شيء.

لم تكن الدفاتر هوس نعيم، لم يأت يوسف سرمدي لكي يجلد كتبه، ولا يهمه إن أكمل نعيم تجليدها.

أدرك نعيم أن القدر أوقع كل ذلك في طريقه لتنفيذ مهمة طويلة، شاقة، ستشغله لباقي أيام عمره، حتى مماته، سيتابع أداءها بصبر وإصرار. أدرك أن يوسف سرجي ترك دفتره متعمداً، كان يعلم أنه سيموت قريباً، وأن نعيم سيقع في فخ هوس الدفتر، وأنه سيبتاع دفاتر شبيهة، وأن نعيماً سيخلده بعد ذلك.

بحث نعيم عن مقص حاد، تناول زجاجة غراء شفاف خفيف، أخذ يقص صور الموتى من صفحة الوفيات، ثم بهدوء، أخذ يلصق الصور في صفحات الدفتر النبيذي اللون، صورة لكل صفحة، لما انتهى نعيم، كان قد ملأ خمسة عشر صفحة من الدفتر، خمسة عشر صورة، لخمسة عشر ميتاً.

أغلق نعيم الدفتر وقد اعترته حالة من السكينة، أخيراً، عرف نعيم مهمته في هذه الدنيا، وسيؤديها بعد ذلك بكل إخلاص؛ سيملأ مئات الدفاتر خلال السنوات القادمة بصور وفيات الأهرام، كل يوم سيشتري الأهرام، سيقص من صفحتي الوفيات صور الموتى، سيقطع الصورة فقط، بدون الاسم المنشور، بدون النعي المنشور. سيقص الصورة فقط ويلصقها بالدفتر، سيجمع صور الموتى ويلصق العديد منها في صفحة واحدة من الدفتر، أحياناً سيتوسع ويلصق كل صورة

@3abeth

في صفحة، سيكون هذا سجله الخاص لموتى مصر. لن يعنيه الخجولين الذين رفضوا وضع صورهم الشخصية فوق النعي، لن يعنيه أيضاً الخائفين من العقاب الأخروي، فلم ينشروا نعياً، فقط من تحلوا بالشجاعة وطبعوا وجوههم في الأهرام، هؤلاء من سيخلدهم نعيم في دفاتره.

@3abeth

نظرية تأثير برميل الفيل

في ١٤ يونيو ٢٠٠٤ استقل خالد بدير علي سيارته متجهاً إلى عمله، سار في طريقه اليومي المعتاد من جاردن سيتي إلى المهندسين، سائراً في شارع عائشة التيمورية حيث يسكن، متجهاً لتقاطع عائشة التيمورية والزعيم غاندي وخليل أغا واتحاد المحامين، عندما وصل إلى التقاطع، فوجيء بوجود عمال يقطعون الأسفلت في قلب التقاطع، مغلقين الشوارع الأربعة تماماً، فوجيء أيضاً بما اعتبره كوميديا سوداء، ستة براميل حديدية تسد الشارع تماماً، وتمنع الوصول إلى العمال، كُتب عليها: شركة الفيل للإنشاءات.

ضاعت عدة دقائق في محاولة فهم ما يحدث، بعدها نظر خالد خلفه ليرى إمكانية رجوعه بالسيارة إلى الخلف، فوجد أن هناك عدة سيارات تقف خلفه، خُدع سائقوها مثلما خُدع.

حالما خرج خالد من جارن سيتي وشوارعها الملتوية، فوجيء بزحام سيارات غير عادي في شارع قصر العيني، وزحام بشر مهول على رصيفي الشارع، كانت الساعة تدور في السابعة صباحاً،

@3abeth

وبحساب بسيط، أدرك أنه سيتأخر اليوم عن عمله، وبالفعل، تأخر خالد ساعة كاملة في ذلك اليوم.

تشبع اليوم بروح التشتت وقلة التركيز والغضب المكبوت، لم يقم خالد بعمله على أكمل وجه كما اعتاد، كان عزاؤه الوحيد زملاؤه الذين شاركوه القرف في ذلك اليوم، كان الجميع محبطاً، وشاركهم المدير روح العبث واليأس التي سيطرت عليهم.

عاد خالد إلى البيت، متأخراً أكثر من ساعة عن ميعاد وصوله المعتاد، وجد والدته تجلس في مواجهة والده، هو على كرسيه الوثير، وهي على كرسي خفيض بجانبه، تحاول إطعام الرجل المسن ببطء. سألته والدته عن سبب تأخره، لكن خالد لم يجد سبباً منطقياً، اكتفى بأن أخبرها بقطع العمال لشارع عائشة التيمورية هذا الصباح، ذكر لها أن البراميل الحديدية الصدئة أصابته باليأس أول ما رآها.

في المساء، أثناء جلوس والده أمام التلفزيون، سأله بكلمات متقطعة: هل قرأ على البراميل جملة "شركة الفيل للإنشاءات"؟ متعجباً من سؤال والده، رد خالد بالإيجاب. أسند الرجل المسن مرفقيه على ذراعي الكرسي الوثير، رفع كفين مرتجفتين بفعل أمراض الشيخوخة، احتوى قبضته اليسرى داخل راحته اليمنى، أغمض عينيه، ثم أخذ شهيقاً عميقاً.

استمر العمل في الطريق شهراً كاملاً، وفي كل يوم، كان خالد يسلك نفس المسلك، مع أمل في أن يجد الشارع وقد فتح للسيارات، وفي كل يوم، يخدعه رد العمال الثابت: غداً ننتهي، وانحناءة الشارع

@3abeth

التي لا تظهر منتصفه للواقف في أوله.

تصاعدت أزمة الزحام المروري في القاهرة خلال ذلك الشهر، تصاعدت معها أزمة الحكومة التي كانت قد استمرت لشهور طويلة ماضية، كان الناس في انتظار حكومة جديدة، وقد طال انتظارهم كثيراً، فمل الجميع الحديث عن الحكومة وأدائها السيء، واستسلموا تماماً للإرهاق الناتج عن اليأس المتواصل، وأخذوا يروحون عن أنفسهم بالسخرية من رئيس الوزراء صاحب العينين المنتفختين، الفاشل والمشهور بشرب الخمور.

***

في ١٨ يناير ١٩٧٧ استقل بدير علي سيارته متجهاً إلى عمله، سار في طريقه اليومي المعتاد من جاردن سيتي إلى المهندسين، سائراً في شارع عائشة التيمورية حيث يسكن، متجهاً لتقاطع عائشة التيمورية والزعيم غاندي وخليل أغا واتحاد المحامين، عندما وصل إلى التقاطع، فوجيء بوجود عمال يقطعون الأسفلت في قلب التقاطع، مغلقين الشوارع الأربعة تماماً، فوجيء أيضاً بما اعتبره كوميديا سوداء، ستة براميل حديدية تسد الشارع تماماً، وتمنع الوصول إلى العمال، كُتب عليها: شركة الفيل للإنشاءات.

***

في ١٤ يوليو ٢٠٠٤، استقل خالد بدير علي سيارته سائراً في طريقه المعتاد، تخيل السيناريو اليومي، سيجد شارع عائشة التيمورية

@3abeth

مسدوداً بالبراميل الستة لشركة الفيل للإنشاءات، سيبتسم العمال له وسيقولون إنهم سينهون العمل غداً إن شاء الله، سيهز رأسه موافقاً وسيحاول العودة إلى الخلف مضيعاً دقائق ثمينة من الصباح.

لكن كل هذا لم يحدث، وجد خالد بدير الشارع خالياً من البراميل والعمال، استمر في سيره، معوضاً عدة دقائق كانت تضيع من وقته كل يوم خلال الشهر الماضي، خرج إلى شارع قصر العيني ليجده قد عاد إلى طبيعته، السيارات تسير بسلاسة وسرعة متوسطة، وصل خالد إلى عمله قبل الميعاد الرسمي بعشر دقائق كاملة. وجد أن كل الزملاء قد وصلوا إلى العمل مبكرين مثلما فعل اليوم، كان الجميع سعداء، عمهم التفاؤل وأتوا وكلهم حماس للعمل، كان الممر المفضي للشركة مملوءاً بهم، مملوءاً بطاقة إيجابية ضخمة، وقفوا يتبادلون الضحكات الصباحية والسجائر والنكات، شاركهم خالد الضحك، وحالما جلس على مكتبه، عاد إلى نشاطه السابق المعروف على مستوى الشركة بالكامل، استمر العمل في ذلك اليوم بسلاسة وهدوء وتركيز، كانت الشركة عبارة عن خلية نحل متعاونة نشيطة ومتفائلة. عاد خالد إلى منزله قبل ميعاده المعتاد بعشر دقائق، بعد شهر كامل من التأخير اليومي.

دار باب الشقة حول المفصلات بسرعة، ثم انغلق مصدراً صوتاً مرتفعاً، كان خالد في أقصى حالات سعادته منذ مدة طويلة، بعد شهور كثيرة قضاها وهو في قاع منحنى اليأس.

سمع والده يقول بثقة: أزالوا البراميل.

@3abeth

عزيزي صلاح،

خلال الأعوام السابقة، توصلنا لوضع قلما يتكرر في مصر، ربما لم يتكرر منذ سنوات طويلة للغاية، لا أذكر آخر مرة تمتع فيه المواطن المصري بالأمان والاستقرار كأيامنا هذه.

امتلاك المواطن المصري المتوسط لسيارة وبيت وشاليه، وتمكنه من تعليم أولاده تعليماً راقياً، حلمٌ كان يراوده منذ مدة، تحقق هذا الحلم في السنوات الأخيرة فقط، هذه الملكيات هي طلب المواطن المصري المتوسط الحقيقي، ويجب الحفاظ عليها وتأمين استمرارها إلى الأبد. يجب أيضاً إفهام المواطن أن هذه الملكيات هي كل ما سيستطيع الحصول عليه في حياته، لن يكون بالإمكان الحصول على شيء آخر، لن يتمكن المواطن من استردادها إذا ما راحت منه، إذا ما خسرها لو لم يتمكن من سداد الديون، فيجب عليه العمل والاستمرار في العمل من أجل سداد الديون، لن يتمكن من استردادها إذا ما سرقت منه، فيجب حراسة هذه الممتلكات بواسطة جهاز الشرطة. وهذه الحراسة تقتضي تخلي المواطن عن بعض حرياته، أو قل، كل حرياته. المواطن المصري سيتخلى عن كل حرياته في مقابل الحفاظ على سيارته.

الخوف من الفقد هو مفتاح التحكم بالطبقة المتوسطة. والخطوة القادمة، تطوير الخوف عند الطبقة المتوسطة، أن

@3abeth

يخاف المواطن المصري خوفاً مجرداً، خوفاً من المجهول، من المستقبل، من كل ما يحيطه، وليس خوفاً من فقد ممتلكات تافهة فقط.

الخوف هو أشهر محفز للناس، أو قل في حالة المواطن المصري المتوسط هو أشهر "مثبط" للناس.

الخوف من الموت قد يكون دافعاً للإنسان العادي لمقاومته، بالهرب مرة وبمواجهة الخطر مرة أخرى، سيقوم الإنسان العادي بذلك في حال وضوح الخطر المحدق به، حينما يتأكد أن الخطر القادم نحوه قد يودي بحياته. لكني لا أود أن يهرب المصريون من الخطر، وبالطبع لا أود أن يقاوم المصريون الخطر، بل أود أن يستسلموا للخطر، وأن يكون رد فعلهم متمثلاً في فعلين، الصمت والسكون. ولكي نصل إلى هذه النتيجة، يجب أن تكون أسباب الخوف عند المصريين عديدة، أخطار هائلة العدد تواجه الطبقة المتوسطة المصرية.

دعك الآن من الفقراء، هؤلاء يسهل التحكم بهم، كما ذكرت لك، رغيف العيش كفيل بإسكاتهم إلى الأبد.

أرى أنه من الجيد استغلال الأحياء الفقيرة لإثارة الخوف، سيقول الكثيرون إن الفقر لا يدني من مرتبة الفقير، لذلك أود أن أسمع عن تعبير جديد لوصف الأحياء الفقيرة: الأحياء العشوائية. العشوائي كلمة مناسبة للغاية، فهي توحي

@3abeth

بعدم احترام النظام القائم، وتوحي أيضاً بالاعتياد على عدم الاحترام هذا. من المطلوب تنمية الأحياء العشوائية في المدن الكبيرة، دعك من القرى والمدن الصغيرة، أنا أتحدث عن القاهرة والإسكندرية، فهما قبلة المهاجرين من القرى، وهما أيضاً تحت مجهر الإعلام طوال الوقت، كل الأخبار المنشورة والمحكية تتناول أحداث القاهرة أو الإسكندرية، وأفضل الأخبار ما يحكي عن أحيائهما العشوائية، وما يشير إلى انتشار الفوضى بالأحياء العشوائية، وما يؤكد على ضرورة تنمية هذه الأحياء. وتنمية الأحياء العشوائية لا تكون بتنظيمها، بل بجعلها أكثر عشوائية، بتقليل التواجد الأمني بها إلى أدنى درجة، بإكسابها سمعة سيئة، ونشر شائعات توحي لسكان المدينة بالكامل بتلك السمعة، كأن تكون مستقرا للصوص أو قطاع الطريق، أو تجار المخدرات، أو البلطجية، أو حتى مأوى للمعارضين السياسيين، تأكد من هذا يا صلاح، كل من هو مخالف للأغلبية الهادئة الصامتة هو عدو لها. يجب أيضاً تحديد تلك الأماكن بحدود شديدة الوضوح، كأن تحدها شوارع واسعة معروفة. هذا التحديد الغرض منه الفصل التام بين الأحياء العشوائية والأخرى الراقية. والفصل هنا يؤدي إلى زيادة مشاعر الخوف والكراهية بين سكان الحيين. بينما إزالة الحدود والتلاحم بين الحيين قد تؤدي إلى تبادل الحوار بين السكان، وهو حوار مرفوض تماماً.

@3abeth

وكلما اقترب الحي العشوائي من الحي الراقي زادت جرعة الخوف، فالشارع الفاصل بين مدينة نصر وعزبة المجانة أقصر وأسهل عبوراً من النيل الفاصل بين الزمالك وإمبابة.

وإذا كان ساكن الحي العشوائي لصاً وقاطع طريق ومدمن مخدرات، وبالطبع، ينفق ما يقوم بسلبه لابتياع المخدرات والملابس المسروقة، فيجب عليك أن تحذر ساكن الحي الراقي منه كثيراً، وذلك لأنه – كمواطن متوسط يسكن حياً راقياً- مطمع العشوائي. فالعشوائي قد يسرق ساعتك وسيارتك وبيتك ومالك، وقد يتحرش بأختك أو بزوجتك أو بابنتك. هذا بالإضافة إلى أنك لا تعلم شيئاً عن الفقر المدقع الذي يعيش فيه العشوائي، وعن العائلات العديدة التي تعيش في شقة واحدة صغيرة المساحة، وعن الفواحش المنتشرة بينهم، تلك التي تؤدي حتماً إلى انعدام الأخلاق الراقية بينهم تماماً.

واحرص يا صلاح على أن يكون التأثير متبادلاً.

عليك أن تزرع فكرة أخرى في عقل ساكن الحي العشوائي، فالراقي حصل على سيارته وساعته وبيته وزوجته لأنه في الحقيقة لص، يسرق بأناقة، يسرق بالورقة والقلم، يأكل الربا، ويستعين بالوساطة في كل ما يفعله،

@3abeth

وهو أيضاً يتعلم في مدارس أجنبية، وجامعات أمريكية، ليصبح مسخاً أجنبياً فاسداً. وبالتالي فسرقته حلال. لكن انتبه، فالراقي يملك سلاحاً نارياً مرخصاً لا تملكه أنت، وهو يملك ما هو أقوى منه أيضاً، الشرطة، تلك التي ستقف إلى جانبه ضدك طوال الوقت، وفي حال النزاع بينك وبينه، ستكون أنت الخاسر الدائم. ثم إنك لا تعلم شيئاً عن بيوتهم الفارهة الواسعة، تلك القصور المنشأة في التجمع الخامس، والشقق الضخمة في مدينة نصر ومصر الجديدة، حيث هناك بار صغير في كل شقة يحوي خموراً، حيث العلاقات الجنسية الخفية منتشرة بين الشباب، حيث الخيانات الزوجية سائدة، كل امرأة تنام مع أصدقاء زوجها، وهو يعلم ذلك ولا يعترض. وبالطبع، كل تلك الموبقات تجعلهم عرضة لغضب الله.

مشاعر الخوف والكراهية المتبادلة، هي التي ستجعل الجميع مشغولين بمعاداة بعضهم بعضاً، العداوة الاجتماعية القائمة بين المصريين ستجعل من الصعب توحيد صفوفهم في مواجهة مبارك، وبالطبع في مواجهة أي حاكم. وكما أنتم حريصون على اختيار وزراء يعادون بعضهم بعضاً في نفس المجلس الوزاري، كونوا حريصين على خلق حالة عداوة مماثلة بين فئات الشعب المصري.

@3abeth

تذكر أن السادات كاد أن يسقط حينما توحد الشعب ضده عام ٧٧، وتراجع عن قرارات قد اتخذها، وهو شيء لا يمكن أن يتكرر مع مبارك على الإطلاق، فالعناد صفة اكتسبها مبارك ببطء على مدى سنوات طويلة، بالطبع لا أحد يتحدث عن عناد الرئيس، هذه صفة غير معلنة، لكنها صفة مرتبطة بمبارك في عقل كل مصري، وإلى جانب أسباب أخرى كثيرة، هي سبب لتلافي الشعب أي احتكاك مع الرئيس.

ولا يمكن للرئيس أن يتراجع عن قرار سبق وأن اتخذه، من ناحية، لن يحدث هذا لما ذكرته من عناده الشخصي، ومن ناحية أخرى لأن التراجع كسر لتلك الصفة الدائمة الراسخة في أذهان المصريين، والتي تتحطم أمامها العزائم والإرادات. السادات وقع في هذا الخطأ لأنه لم يهتم أبداً بخلق تلك الحالة من العداوة، التي كان يمكن أن تكون سبباً لفرقة المصريين أمامه، ولكي أكون محقاً، ربما لم يسعفه الوقت لخلق تلك الحالة، فلا يمكن لأي جهاز أو شخص خلق العداوة في شهور أو أيام، وإنما عليه أن يبنيها خلال سنوات طويلة، ومن خلال خطة منهجية مدروسة.

الوحدة بين صفوف المصريين هي العامل الوحيد الذي قد يكسر عناد مبارك، احذروا تلك الوحدة.

@3abeth

وكما تحكم الأنظمة المحترمة شعوبها بالخوف، يجب أن يُحكم المصريون بالخوف.

فالغرض من إثارة مخاوف الشعوب لم يكن فقط تفريق صفوفهم، وإنما كان لشغلهم بشكل عام عن تحركات الحاكم.

فكما الإرهاب والانهيار الاقتصادي وزوال الحلم الأمريكي المتمثل في الرخاء والحرية والديمقراطية، مخاوف لدى المواطن الأمريكي، تكاد تصل به إلى التخلي عن الرخاء والحرية والديمقراطية. يجب أن تخلق مخاوف شبيهة للمصريين، الخوف من التطرف الإسلامي والحرب مع إسرائيل والفوضى الداخلية، وأضف طبعاً الانهيار الاقتصادي.

يجب أن يخاف كل مصري على ما حققه من نجاحات، تلك هي إنجازات عمره، التي تتمثل في الشقة والشاليه والسيارة ومدارس الأولاد الأجنبية، تلك هي المكتسبات التي حققها خلال سنوات عمره، والتي سيظل يسدد ثمنها لسنوات أخرى قادمة من عمره، والتي ستظل مكاسباً سيرثها أولاده من بعده. ولن تصدق كيف سيدافع المواطن المصري عن تلك التفاهات، لا أدعي أنه سيقاتل من أجل سيارته المستقرة في الشارع إذا حاول العشوائي سرقتها، بل على

@3abeth

العكس، سيبقى في بيته مرتعباً، وهو يعلم أن هناك من يسرقها الآن، سيظل على الدوام صامتاً ساكناً، هارباً من المواجهة. إذا حدث هذا يا صلاح، سيكون المواطن المصري قد فقد كل ما يملكه من شجاعة لمواجهتكم. أنتم نجحتم في تقليص طموحات المصريين إلى سيارة وشقة وشاليه وتعليم خاص. وما عدا ذلك كل ذلك من تمثيل سياسي أو حريات سياسية أساطير نسيها المصريون تماماً، وهذا نجاح عظيم لم أكن أتوقعه. حافظوا على هذا النجاح يا صلاح.

@3abeth

ورقـــة

يجلس وليد على السفرة مكتئباً، كل شيء راح، والمجهود الذي بذله في الأيام الأخيرة كأنه لم يكن، وليد لا يستطيع الحصول على الورقة الأخيرة.

في الورقة الصغيرة المهترئة، التي كتبها مدير شركة التأمين، تدرجت صعوبة استخراج الأوراق تصاعدياً، حسب تسلسل الأوراق. حصل وليد على الورقة الرابعة بعد ثلاثة أسابيع من المحاولات المتواصلة، لكن الورقة الخامسة والأخيرة كانت غامضة تماماً. كتب المدير: شهادة وفاة وردية.

في البداية ظن وليد أن المدير أخطأ وهو يكتب الكلمة الأخيرة، خط يده لم يكن حاسماً، في الحقيقة، كان المدير على درجة من الوضوح تنفي أي شك. بنى وليد شكه على عدم فهمه لكلمة "وردية"، احتار بين معنيين، هل يقصد بها وصف لون الشهادة، أم شيئاً آخر؟ تخيل وليد شهادة وفاة وردية اللون، نهاية وردية لحياة الإنسان، هل يسخر المدير منه؟

سأل وليد كل من قابله أثناء استخراج الأوراق الأربعة

@3abeth

السابقة، كان الجميع يردون بالنفي، لا أحد منهم يعلم مكان استخراج شهادة الوفاة الوردية، سخر الشباب منه، ظنوا أن وليد أبله أو معتوه، بينما تعامل المسنون معه بتعاطف ظاهر، كانوا يخاطبونه بلهجة متعاطفة آسفة، معلنين أنهم لا يعرفون أي شيء عن تلك الشهادة، أحدهم قال لزميله بعد مغادرة وليد: بعد أربعين عاماً من العمل في السجل المدني، لازالت هناك أوراق لا أعلم عنها شيئاً.

يرص وليد الأوراق على السفرة، أمام نعيم، ويخبره أنه فعل كل ما في وسعه، حصل على كافة الأوراق، أربعة أوراق، أربعة مستندات رسمية، اضطر لاستخراج ثلاثمة وأربع وستون ورقة، حتى يحصل على الأوراق الأربعة، حصل عليها بعد ثلاثة أشهر من العمل والبحث والمحاولات اليومية، لكن الورقة الأخيرة استعصت عليه، شهادة الوفاة الوردية لا يمكن الحصول عليها، لا أحد يعلم مكان استخراجها، في الواقع، لم يعثر وليد على واحد رآها من قبل.

جالساً في مواجهته، على نفس السفرة القديمة، كان نعيم يتمزق من الغضب، لم يغضب نعيم منذ مدة طويلة، منذ المعركة التي نشبت بينه وبين زملاء العمل، معركة المعرض، هزم نعيم في المعركة، وظل مهزوماً حتى اليوم، أغضبته حالته التي وصل إليها، ميت ولا يمكن لابنه صرف بوليصة التأمين، لم مات إذن، لكي يحتار وليد بين الأوراق والسجلات المدنية والمحاكم. وماذا بعد الآن، ماذا بعد الموت؟ لا مال ولا عمل ولا خروج للشارع. لكن نعيم رجل البيت، مهما حدث، مهما أصابه من مصائب على يد الناس وعطيات، سيظل

@3abeth

دائماً رجل البيت. كل شيء ينهار أمامه لأن ورقة تحول بينه وبين المال، نعيم لا يريد المال لنفسه، مات نعيم ولن يعود للحياة أبداً، المال لوليد والبنات. مرة أخرى، البنات سبب كل المصائب.

اليوم أيقن نعيم أن عليه أن يتم مهمة أخيرة، عليه أن يتخلص من خوفه، وأن ينزل إلى الشارع، عليه أن يسأل كل معارفه عن شهادة الوفاة الوردية، سيسأل الجيران، سيسأل أصحاب محلات الورق، سيسأل أصحاب المكتبات في الفجالة، المارة في الشوارع.... ثم كومضة ضوء، تذكر وهيب.

@3abeth

وصاخة

تعلم نعيم مع مرور السنين أن صمته ليس حلاً؛ الصمت في عرف المصريين إعاقة، المصريون يعتبرون الصامت واحداً مجنوناً، أو مصاباً بتأخر عقلي، يقولون: متخلف عقلياً. لم يفهم نعيم العلاقة بين الصمت والتأخر العقلي أبداً، لكنه آمن ـ كواحد مصري ـ بتلك العلاقة، وظل يؤمن بها حتى بعد إصابته بالحبسة، مع ذلك، كان نعيم ينفي عن نفسه صفة التأخر العقلي، يستطيع نعيم الكلام إذا أراد، المشكلة في جزء صغير من مخه، تسبب في عطل لسانه.

حاول نعيم طوال الوقت الظهور بمظهر الحاذق الفاهم لما يحدث حوله، احتفظ دائماً بدفتر وقلم، يخرجهما حينما يود أن يشرح لأحدهم شيئاً، يكتب بسرعة في الدفتر جملاً قصيرة، ثم يريه للواقف أمامه، تمر دقائق من الصمت والتفكير، حتى يفهم أخيراً الواقف أن نعيم ليس متخلفاً، فقط رجل أبكم.

تعجب الكثيرون من قدرة نعيم على الفهم مع انعدام قدرته على الكلام، لكن الأغلبية ممن تعامل نعيم معهم أيقنوا أنه متخلف

@3abeth

عقلياً؛ هذا رجل يرد على الكلام بالكتابة، مجنون متحذلق، يتعفف عن الكلام ليبدي لنا سعة علمه.

أزمات مالية متتالية مرت بنعيم، الأولاد في حاجة للمال، المرا لا تكف عن الشجار، تواظب على سبابه يوماً بعد يوم، حتى أصبح الأمر عادياً بالنسبة له، حتى ضعف سمعه لا يساعده على الهروب، صوتها العالي يصله حتى يخرج إلى الشارع هارباً، عطيات أكبر كارثة أصابته، ربما أكبر من الحبسة، هكذا يظن.

مع بداية مرضه، حاول نعيم شرح طبيعة المرض لعطيات، لكنها كانت عملية شبه مستحيلة، تعلمت عطيات القراءة في سن صغيرة، ثم نست كل شيء، راح كل العلم رويداً رويداً. حتى إن نعيم لما كتب لها شارحاً مرضه، ضربت صدرها وظنت أنه يكتب طلاسماً في ورقة، كان الخط مقروءاً، لكن المعاني تشابكت، ومع تكرار كلمات مثل: المخ، حبسة، فيرنكة؛ أيقنت أن نعيم ساحر وقد تمكن الجن منه أخيراً، لبسه عفريت حضّره، والآن سيترك عمله في النجارة تماماً ليتفرغ بعد ذلك في كتابة الطلاسم وأعمال السحر والشعوذة. ولما ترك النجارة فعلاً وأخذ يعمل في دكان وهيب، قالت إن الحجاب مكشوف عنها، تنبأت بالتحول وهاهو قد حدث. وقتها مصمصت شفتيها وقالت إن عمله هذا جيد على الرغم من سمعته السيئة، فالرجل سيقيها ويقي أولادهم شر السحر والحسد أخيراً، والأموال ستجري بين يديه، الناس يدفعون أجراً عالياً هذه الأيام.

@3abeth

لكن عمل نعيم في سحر الكتب ـكما أسمته عطياتـ لم يمنع وقوف حال البنات، ستدرك عطيات بعد ذلك أن البنات لن يتزوجن أبداً، ستنبت شوارب فوق شفاههن، وستتركنها من شدة اليأس، البنات خلقهن الله ناشفات مثلها، لسن نحيفات كالبنات الأجنبيات، لكنهن ناشفات كعيدان القصب، عدة بوصات بين عدة عقد، تعرف عطيات أن نعيم يكرههن، يظن أنهن سبب بلائه وتعاسته في الحياة، نعيم الوصخ لم يذكر أسماءهن قط، فقط يقول: البنات، الله يخيبك، أنجبتهم وحدي!؟ ثم انكتم وانشل لسانه بفعل الجني، فلم يعد ينطق على الإطلاق، أحسن، الله يلعنك.

حتى الولد لم يسلم من نحس نعيم، إصابات متعددة أصابته وهو صغير، أمراض لا حصر لها، ثم داء الوصاخة الغريب، رائحة لا تطاق، وشمع يسيل من أذنيه، ونفس كريه، الولد تعقد وأصبح كالفتيات، أضعف منهن، سيكبر ليصير خولاً لا ولداً. كل هذا بسبب نعيم وسحره وصمته.

أما المصيبة التي لم تستطع عطيات تقبلها أبداً، كانت تدهور الحال، أتى على نعيم وقت كان يسرق أشياء من البيت ليبيعها في الشارع، ولا تعرف عطيات كيف دبر نعيم كل هذه الوصاخة! وجدته يوماً واقفاً على ناصية الشارع، حيث يسكنان، أمامه قفص صغير لا تعلم من أين سرقه، يستخدمه كطاولة منخفضة للعرض، رص عليه ماكينة حلاقة قديمة، أمواس حلاقة مستعملة، وردة بلاستيكية، فازة صغيرة أهدتها إياها صديقة، عدة بكرات خيط تخصها، مقص قديم،

@3abeth

دبابيس شعر، ثم ..الوصخ.. وضع لباساً قديماً يخصها، ابتاعه حينما كانا شابين، وحمالات صدر مهترئة، ولولب قديم كانت قد ابتاعته منذ مدة. الوصخ اختار أشياءً لن تشعر باختفائها، قديمة مهملة، جن الرجل ليبيعها على ناصية الشارع، أم أنه يعلم أنها ستمر قريباً وستراه، يريد إغاظتها واستفزازها؟

في الأعوام الأخيرة، زاد الضغط على أعصاب عطيات كثيراً، عمل نعيم بالسحر كان بلاءً عليهم جميعاً. يعمل نعيم بالسحر، نعيم ساحر، لكنه فاشل في عمله، لا يأتيه زبون إلا وخسره، مرة لأنه لا يجيد عمله، يكتب طلسماً أو يصنع حجاباً ليزوج هذا من هذه. فينتهي الأمر بهما في فضيحة جنسية يتكلم عنها الشارع لسنين طويلة. وقبلها أرسلت عطيات له إحدى الجارات فانتهي الأمر بها إلى الخروج من الدكان صارخة من فرط الرعب، بعد أن أخذ نعيم يحدثها غاضباً بلغته الغريبة، محاولاً إفهامها أنه لا يعمل هذه الأشياء. ترسل له صديقة فتجلس معه لساعات طويلة، ثم يجد الجميع أسرارها ومصائبها مكتوبة في ورق كثير ملقى في الشارع.

اتخذت عطيات السباب وسيلة للتعبير، كل يوم تسب نعيم، تتفنن في اختراع سباب جديد في كل مرة، تظل طوال اليوم تفكر في مجموعة جديدة من الشتائم طوال النهار، حتىَ إذا ما دخل نعيم بدأت في السباب، شلال ينهمر بلا انقطاع، وكان صمت نعيم وعدم استجابته سبباً في فورات غضب تصيبها كل حين وآخر، فتبدأ عطيات في الطرق على الطاولات، ومحاولة كسر ما يمكن كسره ـ لم يتبق شيء

@3abeth

قابل للكسر في النهاية ـ تبدأ في الخروج إلى الشرفة والصياح ولعن كل من في الشارع، عالم وصخة، تعود إلى البيت وتخرج لتقف على السلم وتبدأ في شتم الجارات.

اعتبرت عطيات أن غباء وخرس وصمم نعيم منح وعطايا من عند الله، الرجل لا يسمع شتائمها، لكنه يسمع غير ذلك، رجل وصخ، أصابتها الغيرة، حسدت نعيم على ما أنعم الله به عليه. نعيم نصف أصم ولا يسمع شتائمها، غباء نعيم يمنعه من تحمل المسؤولية، وبكمه يمنعه من إفناء طاقة جسده في الكلام مثلما تفعل، كل هذه منح وعطايا من الله تعالى لنعيم. بحثت عطيات كثيراً عن عطايا الله لكنها لم تجد شيئاً، تبحث عن ميزة خاصة، عن نقص هو كمال في جوهره، عن خيبة قد تتحول إلى نجاح في النهاية، بؤس حقيقي سيطر عليها، ثم اكتشفت أخيراً عطية الله الخاصة بها.

تقضي عطيات يومها في التنصت على كل من يعيش في العمارة، بمرور الأيام، بدا لها أن ما فقده نعيم من سمعه اكتسبته هي، تسمع دبة النملة، أو هكذا ظنت. تأكدت عطيات من ذلك حينما سمعت حركة محمومة آتية من مدخل العمارة في أحد الأيام، غموض شديد غطى على الصوت، لهاث؟ خربشة؟ عواء منخفض الصوت؟ خليط من كل هذا، فتحت عطيات باب الشقة ونزلت على السلم بخطوات هادئة.

ركزت عطيات قدراتها السمعية عند باب كل شقة تمر عليها،

@3abeth

سمعت تجشؤاً كاد أن يثقب أذنيها، آتياً من غرفة نوم عبدالله الوصخ، الذي يمشي يتمايل وكأنه جمل من فرط ضخامته، الرجل ابن الوصخة يمشي في الشارع ويده لا تكاد تفارق ذكره، يحركه يميناً ثم يحركه يساراً، يريد أن يعلم الناس أنه يملك خرطوماً، عطيات تفهم هذه الألاعيب جيداً، مالك الخرطوم سيخفيه يا ابن الوصخة، أما مالك الشفت مثلك فسيظل يعبث به حتى يلفت أنظار الناس، على العموم، ستختبر عطيات قدراته قريباً جداً، ستنصت له حينما يعتلي زوجته الوصخة، وستعرف حجم ما يملكه فعلاً. سمعت نفس ولد صغير يأتي من الشقة المقابلة، الولد ابن حرام بالتأكيد، أمه وصخة وأبوه كذلك، ما اسم الولد؟ الواد الوصخ الصغير، لا تذكره أبداً، ضائع من ذاكرتها من فرط وصاخته، هذه عائلة وصخة فعلاً، الوصاخة هنا ليست مجازاً، هؤلاء لا يستحمون، كل ما يعرفونه عن الماء أنه قابل للشرب، وشكل آخر منه يترل عبر الخراطيم، أما الاستحمام والوضوء والطهارة فهذه أشياء لا يفهمونها. سمعت صوت مشط يتوغل في شعر كثيف لجارة وصخة، رانيا الوصخة، الشباب في الشارع يسمونها: رانيا إيدز، يا خرابي على رانيا إيدز، يا وصخة، الحرامي لا يسرق في حيه، والشرموطة لا تعمل في شارعها، استحى يا وصخة وارحمي أهلك، وصاخة فوق وصاخة، اللهم ارحم عطيات. رانيا إيدز تمشط شعرها لتعرضه على الناس في الشارع، تجرجر به الزبائن يوما بعد يوم، زانية على قديمه، الزانيات الآن لا يعملن بشعورهن يا وصخة، شعرك سيسقط حتماً عندما يتوغل الإيدز.

@3abeth

أرهفت عطيات سمعها، أغمضت عينيها، توقفت تماماً أمام باب شقة فاطمة، قامت بعزل كل ما حولها من أصوات، أخذت تنصت لما بداخل الشقة من حركة، صمت تام وسكون يهيمن على كل شبر، لكن في الداخل، من بعيد، في آخر غرفة تطل على الشارع، سمعت صوت قطرات قليلة، عدة قطرات مرت، صوت ناعم، قطرات ماء كثيف تمر، دم يسري بهدوء، قطرة وراء الأخرى، يعلو الصوت حينما تحتك قطرة الدم بفوهة البئر، ثم يسقط أخيراً على القماش الناعم، الولية فاطمة الوصخة عبرت الخامسة والخمسين ولا زالت تحيض!

في مدخل العمارة، في ذلك النهار، وجدت عطيات تفسيراً لما سمعته من فوق خمسة أسقف، ما وصل لأذنيها من لهاث وخربشة وعواء ونباح، كانا كلبين في حالة غرام. وصاخة الطوابق الخمسة تنتهي بنجاسة كلاب.

تأكدت عطيات أن قواها السمعية تضاعفت، أيقنت أن سمع نعيم راح وأخذته هي، تذكرت الليلة التي عاد فيها نعيم من الترب ساخناً، محموماً، نام بجانبها ونقل إليها سمعه، جزءاً كبيراً من سمعه، وهي الآن تكتشف هذا بعد سنوات طويلة، أخذت عطيات تتذكر، تتأكد من صحة نظريتها، هل أصبح سمعها حاداً هكذا قريباً، بالطبع لا، منذ مرض نعيم وهو يزداد، لكنها لم تلاحظ، كانت تسمع الأشياء فتقول إنها هلاوس، تسمع صوت أحدهم وهو يبصق في ورقة، تسمع صوت لعابه يصطدم بالورقة، عمل حضّرته واحدة وصخة، لعاب

@3abeth

ثقله شيخ قذر على ورقة بأمر من الولية الوصخة، ورمته أمام عطيات أثناء مشيها لتخطو فوقه، طلسم كتبه آخر وصخ، سمعت خربشة القلم فوق الورق، سمعت صوت الورق أثناء طيه، سمعت صوت الطيات الكثيرة، وسمعت صوت الخيط يمر في القماش مكوناً حجاباً يحوي الطلسم. الوصخ الذي صنع الحجاب وضعه بطريقة مريبة تحت سريرها. هذه وصاخات لا طاقة لها بها. وصاخات تحيطها، لكن عطيات الآن ستوجه سمعها لتعرف من يقوم بتحضير تلك الوصاخات.

غاضبة، خرجت عطيات من العمارة، كانت عازمة على تغيير حياتها في ذلك اليوم، أقسمت على أن تستغل سمعها الخارق هذا لتكدير وإحباط كل من حولها.

وقفت عطيات أمام العمارة تنادي الجيران، كل واحد باسمه حتى يستمع لكلامها، خرجوا واحداً تلو الآخر، ولما اختفت فاطمة ولم تخرج إلى الشرفة نادتها عطيات بأمها الوصخة، ثم أخذت تعدد وصاخات كل واحد، رانيا إيلز الوصخة، الحاج عبد الله أبو شفتة، فاطمة الوصخة، المارة تجمهروا حولها متأكدين من تحول درامي في مجرى أحداث ذلك اليوم، انطلقت عطيات بلا قيود هذه المرة، أخذت تردد: يا ولود الوصخة... يا ولود الوصخة. ثم بدأت تنغم الجملة: يا عالم يا وصخة... يا ولود الوصخة. تماماً كمشجعي الكرة، تعلمت النغمة من ألتراس الأهلي. اندمجت تماماً وقد بدأت تصفق، ثم أخذت ترقص رقصة البرجل، تفرد ساقاً في الهواء، وتستند على الأخرى، ثم تقفز وتبدل الساقين وتستمر في التبديل بينهما، تقف على واحدة وتفرد

@3abeth

الأخرى في الهواء، ترقص على إيقاع صقفتها وتردد: يا عالم يا وصخة... يا ولود الوصخة. ترفع وجهها إلى الجيران، تلاحظ الأفواه المنفتحة والحدقات المتسعة، تضحك وهي تشهر بهم في الشارع.

أخيراً، قام المتجمهرون حولها بمشاركتها أداءها الراقي، تدريجياً اشترك الكل في الغناء والرقص والتصفيق؛ يا عالم يا وصخة... يا ولود الوصخة. تستدير عطيات لتواجههم وهي لا تزال ترقص، هذه المرة تهتف قاصدة إياهم؛ يا عالم يا وصخة... يا ولود الوصخة! بينما كل واحد منهم يغني بسعادة لا مثيل لها، يصفق بحماسة ويهتف، مواجهاً من يراه "ابن وصخة" ممن حوله، واجه بعضهم سكان عمارة عطيات وهتف، كانوا يرون أن سكان هذه العمارة أوصاخ فعلاً، واجه آخرون أمين شرطة واقف على الرصيف الآخر وهتفوا، كانوا يرونه أوصخ من في الشارع، ثم أخذ الأمين نفسه يرقص مواجهاً إياهم وهو يهتف، هو يؤمن بأنهم شعب متخلف ولا يمكن حكمه إلا بالسوط، واجهت الأغلبية ميكروباصاً متوقفاً على جانب الطريق وهتفت، يعرفون صاحب الميكروباص ويعرفون سائقه، كلاهما وصخ. بعد عدة دقائق، كان سكان ومرتادي الفجالة والعاملين بها يرددون هتاف عطيات، وكل منهم يقصد شخصاً بعينه، أصبح هتافاً وطنياً عزيزاً على الناس؛ يا عالم يا وصخة...يا ولود الوصخة.

@3abeth

فلقسة

خلال السنوات السابقة، حرص نعيم على إيجاد مسارات آمنة للتنقل بين البيت وبين العمل، المسافة بين بيته في الفجالة وعمله في عبدالخالق ثروت قصيرة للغاية، بالنسبة لنعيم، المشي لمدة نصف ساعة لمرتين يومياً عمل هين، إذا ما قورن بارتفاع أجرة التاكسي، وانعدام خطوط وسائل المواصلات في هذه المنطقة. لكن الخطر الرئيسي كان يقف بالمرصاد، هذا الخطر جعل نعيم يغير مساره اليومي عدة مرات، حتى استقر في النهاية على مسار آمن، أو مسار نصف آمن، فهو لم يطمئن يوماً خلال سيره بين الفجالة ووسط البلد.

تظل الحادثة الأولى مثار حنق نعيم، كلما تذكرها ألقى باللائمة على نفسه، رد فعله في ذلك اليوم لم يكن مناسباً على الإطلاق.

في أحد الأيام، أثناء ذهابه إلى العمل، اصطدم به فتى صدمة عنيفة، كان يسير مع زملائه متجهين للمدرسة، انفعل نعيم وصرخ في وجهه غاضباً، كانت غضبة تلقائية، وكان كلاماً تلقائياً، وبالطبع غير مفهوم. تسمر الفتيان لبرهة، محاولين فهم ما يقوله نعيم، أرادوا

@3abeth

اختباره، فأثاروا غيظه مرة أخرى بحركات كثيرة، رموه بحجارة صغيرة متناثرة على الطريق، فرد هو غاضباً بكلام آخر غير مفهوم، وحاول الركض خلفهم بعد أن تفرقوا. وصلوا لليقين الخاطئ الذي سيعذب نعيم وسيسعدهم لسنوات كثيرة قادمة؛ نعيم مجنون.

انتهى اليوم بهجوم الفتيان عليه، بعبصه الجميع، وأسقطوه أرضاً، ثم أخذوا يركلونه بعنف، استمر الركل لدقيقة كاملة، بعدها هرب الجميع راكضين نحو المدرسة، هربوا بعد أن صرخ المارة فيهم بغضب، بعد أن سبوهم ولعنوا أمهاتهم. كان بعض المارة قد تجرأ وحاول القبض على واحد من الراكضين، لذلك قرروا الهرب. قام نعيم من مكانه متألماً وغاضباً، صرخ بكلمات أخرى غير مفهومة، أراد أن يسب ويلعن، وكالعادة أخطأ في الكلام، كان هذا في البداية، بعد مرور أقل من عام على إصابته بالحبسة، لم يكن قد اعتاد على الصمت بعد، كان يصمت معظم الوقت، لكن الكلمات كانت تفلت منه أحياناً. قبل أن يرحل نعيم، وصل كل المحيطين به من تجار وأصحاب دكاكين وسكان ومارة إلى اليقين الخاطئ الذي سيعذب نعيم وسيزيد إهمالهم له لسنوات كثيرة قادمة؛ نعيم مجنون.

وهكذا، استمر نعيم على هذه الحال، يقوم الفتيان يومياً بامتهانه، بضربه وبعبصته، وهو يقوم بالصراخ في وجههم، والإصرار على مواجهتهم، وربما إلقاء الحجارة عليهم، وشتمهم بلغته الخاصة، ومحاولة ضرب أحدهم، بدا لكل المحيطين أن الطرفين يستمتعان بالحدث اليومي.

@3abeth

حتى أمسك نعيم أحدهم، طرحه أرضاً، وأخرج كل طاقة الغضب المخزنة داخله، ضرب الولد.

لم يكن نعيم يعرف اسم الولد، كان يسمع صرخاته ضعيفة بسبب ضياع جزء من سمعه، لكن الصرخات الضعيفة لم تشفع للولد، وظل نعيم يضربه حتى فارق الوعي. تركه نعيم ومضى إلى عمله، كان ينظر إلى الباقين الذين تجمعوا في مكان بعيد، بعدما فشلوا في تخليص زميلهم من قبضة نعيم، بعدما خافوا من ضربات نعيم العنيفة، تأكد نعيم أنهم لن يقتربوا منه بعد الآن.

في اليوم التالي، فوجئ نعيم بوابل من الحجارة ينهال عليه، مصيدة وقع فيها نعيم بدون أن يدري، كل من الأولاد يحمل حصوات كثيرة في حقيبته المدرسية، أخذو يلقونها بحماسة على نعيم حتى انبطح أرضاً، انبطح نعيم خائفاً من وابل الحجارة، كان يحمي رأسه بكفيه، وأنفه مغروس في تراب الشارع، فوراً، تراكم الفتيان على نعيم، كل منهم يركله في بطنه وجنبيه، بعضهم يطأ قدميه وساقيه ويعذبه بوزنه، محاولاً تحطيم عظامه، استسلم نعيم في النهاية وضم فخذيه إلى صدره، تحول إلى الوضع الجنيني المفضل لديه، لكنه لم يكن مستلقياً على جنبه، كان ساجداً، فلقس نعيم أخيراً.

الأحداث التالية حدثت في لحظات قليلة، هي تبدو معقدة وطويلة لكنها تمت بترتيب وتدريب مسبقين، وبدقة وحرفية عالية جداً. استطاع أحدهم أن يمرر يده تحت بطن نعيم، استطاع أن يفك

@3abeth

إبزيم حزامه بمهارة، قام اثنان بإنزال بنطلون نعيم إلى فخذه، كشفوا عن مؤخرته، ولما حاول نعيم القيام من فلقسته، انهالوا على رأسه ضرباً حتى عاد إلى وضعه الأول، كانوا قد فهموا أن نعيم يخاف على رأسه، وسيضحي بمؤخرته لينقذ رأسه، أو ما تبقى منها. بسرعة، بصق كثيرون على مؤخرته، بسرعة أيضاً، تقدم أحدهم حاملاً قرن فلفل حار أحمر اللون، وغرسه في إست نعيم، وكأي متفان ومحب لعمله، غرس الولد إظفر إبهامه في قاعدة قرن الفلفل، ثم كسره بثنية مفاجئة، ساعده في ذلك طزاجة القرن، ثم بنفس الإبهام ضغط على القرن حتى غاب في مستقيم نعيم. فوراً هرب الجميع من حول نعيم، تركوه مفلقساً في منتصف الشارع، عاري المؤخرة.

لم يدرك نعيم سبب ركضه في دوائر، كان يرفع بنطلونه ويجري لأمتار قليلة، ثم يسقط بنطلونه فيتعثر ويقع، ثم يقوم ليجري مرة أخرى، توقف نعيم محاولاً إخراج قرن الفلفل من مؤخرته، لكن الأمر كان صعباً للغاية، نار اشتعلت في مقعدته، وكل لمسة من أصابعه كانت تزيد النار اشتعالاً، بدأت الدموع تسيل من عينيه، تجمعت المهانة ونظرات الناس وضحكاتهم على نعيم، وكلامهم المتناثر عن كونه رجلا أهبل وعبيط، لكن كل هذا لم يكن سبب دموع نعيم، كانت النار المشتعلة هي سبب الدموع. جرى نعيم في دوائر ومنحنيات متلافياً الناس والمارة والباعة الجائلين، كان محتاراً؛ هل يمسك ببنطلونه، أم يتركه ويحاول إخراج ما في جوفه، كلما توقف كان الألم يعصف به ويهزه هزاً، وبدا له أن الجري يريحه قليلاً،

@3abeth

فأخذ يجري حتى وصل إلى شارع رمسيس، وانطلق يجري في بحر الطريق مع السيارات.

أدرك نعيم أن السيارات لن تسخر منه، لن تبعبصه، قد تصدمه لينتهي من كل هذا القرف، أخذ نعيم في ذلك اليوم يجري في الشوارع المحيطة بالمنطقة وسط السيارت، جرى عاري المؤخرة، يمسك بينطلونه، ويستخدمه كأداة تهوية لمؤخرته، يهزه ليجمع الهواء البارد ويوجهه نحو مؤخرته.

كان قرن الفلفل قد سقط أثناء ركضه، لكن نعيم لم يشعر بسقوطه إلا بعد مدة طويلة من الجري، حينما خف الألم وراحت النار، ضاع النهار كله ذلك اليوم.

@3abeth

عزيزي صلاح،

أتعرف متى انتهى الملك فاروق؟ لم يكن هذا عام ٥٢ كما تظن، راح الملك فاروق عام ٤٨، بعد حكاية الأسلحة الفاسدة، التي كانت سبباً في هزيمة ٤٨، وسخط العامة على الملك. لكن هل انتهى فاروق بسبب الأسلحة الفاسدة؟ لا أيضا، انتهى بعدها، يوم أن داس طلبة جامعة القاهرة صورته بأحذيتهم.

حتى الآن، أنا مغتاظ لأقصى درجة، لا أصدق أنهم داسوا صورة الرئيس مبارك بأحذيتهم، لا أصدق أن واحداً التقط صورة فوتوغرافية لكل ذلك الحشد وهو يطأ الصورة ويتقافز عليها. والصورة كانت ضخمة، اتسعت مساحتها للكثير من الناس. كان الأمر مهيناً يا صلاح.

المشهد كان قاسياً للغاية، في عمق الصورة، وحتى الأفق، الآلاف ينتظرون دورهم للوقوف فوق صورة الرئيس، مشهد مرعب يا صلاح، أحد أكثر التعليقات إثارة للتأمل كتبها معلق اسمه "حوكشة"، السيد حوكشة قال "ظللت يوماً وليلة غير مصدق لما حدث، التاريخ يصنع الآن". فعلاً يا صلاح، الغوغاء يصنعون التاريخ بينما نقف نحن صامتين نراقب ما يحدث.

@3abeth

أتذكر علاء سيف؟ الولد الذي رفع وسطاه قبل ذلك أمام صورة الرئيس؟ صور زميله ذراعه المرفوعة أمام صورة الرئيس مبارك، وكان يرفع وسطاه تحت وجهه مباشرة، ثم وضع الصورة على موقعه الإلكتروني، نشرها على العامة، شاهدها الجميع، كان هذا ولد فاسد مجنون عشوائي شوه صورة الرئيس، ووجبت محاكمته على هذا الفعل. وحاولتم محاكمته فعلاً، على تهمة سخيفة لا أذكرها، لكنه أفلت في النهاية بسبب ثغرات القضاء الكثيرة.

لكن صورة الدهس بالأقدام أسوأ ألف مرة من صورة علاء ووسطاه المرفوعة، الواحد أهون كثيراً من المئات، الصورة انتشرت كالنار في مواقع إنترنت، ثم وضعها في عشرات المواقع، رآها آلاف الأشخاص، ربما الملايين، وحتى الآن، عدد الذين يطالعون الصورة في تضاعف مستمر، لن ينتهي الأمر أبداً، وستظل الصورة للأبد متاحة للجميع، فلا يمكن إزالتها أبداً. لكن يمكنكم التعامل مع أهل المحلة الكبرى بكثير من الحزم، عليهم أن يدركوا أن دعس صورة الرئيس بالأقدام لن يمر مرور الكرام.

الولد كان شوكة في الخاصرة، وتلفيق تهمة زائفة له كان أمراً حتمياً، كما أن تكدير وتأديب سكان المحلة الكبرى واجب وحتمي، لا يمكن السكوت على تشويههم ووقوفهم

@3abeth

على صورة الرئيس يا صلاح، يجب عقابهم كي لا يتكرر الأمر في مدن أو محافظات أخرى.

ولا توجد حلول أخرى، سوى المزيد من التضليل، التشتيت والإلهاء.

أتعرف، بعد أيام قليلة فقط من أحداث المحلة، أيام تعد على الأصابع. وجدت صورة أخرى على إنترنت، تبين صورة للرئيس موضوعة كغطاء لكشك صغير، عليه لافتة تحمل اسم "مصر للتأمين" وتعليقات لا تنتهي على تلك الصورة. السادة المحترمون المسؤولون عن الكشك، ربما احتاجوا غطاءً يقيهم حر الشمس، فوضعوا الصورة الخشبية فوق الكشك، متأكدين أن أحداً من المارة لن ينتبه. لكن واحداً من الساكنين في العمارة المقابلة للكشك انتبه، صور الكشك بما فوقه، رفع صورته على إنترنت. وكانت الفضيحة.

لك أن تتخيل حجم المفارقة، اللوحة الخشبية تحمل صورة الرئيس، تعلوها جملة بسيطة "حلم مصر" والصورة أسفلها ليست مطبوعة، بل مرسومة باليد، لو رسمها طفل في الحضانة لأنجزها بإتقان أكثر من ذلك، حلم مصر، مصر للتأمين، صورة رديئة للرئيس، لوحة خشبية ملقاة بإهمال فوق كشك حكومي، هذا كثير جداً يا صلاح.

@3abeth

طيب، من داسوا الصورة بالأقدام أفاقون ولصوص وقطاع طرق وبلطجية، ماذا عن السادة الجالسين في الكشك؟ موظفي مصر للتأمين؟ هؤلاء موظفو حكومة، مؤيدون للرئيس بكل جوارحهم، أدلوا بأصواتهم في الانتخابات السابقة كأي مواطن صالح، أعطوا أصواتهم للرئيس كأي مواطن صالح أيضاً. كيف يقومون بمثل هذا العمل؟

المضحك يا صلاح، أن الصورة الموضوعة على الكشك بغرض تغطيته، هي نفسها الصورة المستخدمة في الحملة السابقة، حملة ٢٠٠٥ ، أتذكر الصورة التي تكلمنا عنها قبل ذلك؟ هي نفسها، الصورة التي بحثنا كثيراً وتناقشنا طويلاً حتى صدرت بتلك الهيئة التي تعرفها، تم تشويهها بواسطة رسام مبتدئ، أخفى الكف والجذع، أبقى على الرأس والصدر، الرجل لم يرسمها برداءة فقط يا صلاح، لكنه زور وحذف. ثم ألقيت اللوحة كلها فوق الكشك، لتزيد الطين بلة.

هذا يوم حزن يا صلاح، عمل الشهور والسنوات الماضية انهار في أيام قليلة.

@3abeth

لغة

شرح نعيم لوهيب كل ما حدث، حكى له تاريخ حياته منذ أن ولد حتى اليوم، وهيب من ناحية أخرى كان مغرماً بحكاية لنعيم، كان يستمتع بالكلام والحكايات، لكنه كان مجبراً على قراءة حكاية نعيم مكتوبة.

لما شرح نعيم مرضه، استوعب وهيب ما يعنيه بسرعة، تساءل إن كان هذا مرضاً حقيقياً، أم أنها مجرد خدعة من خدع الأطباء، بعد ذلك بأيام، بدأ يبحث عن المرض في قاموس طبي صغير، وتأكد من وجوده وندرته. تفهم وهيب مرض نعيم تماماً.

لكن مسألة الكتابة هذه ضايقت وهيب كثيراً، أراد وهيب أن يتحدث مع نعيم، لا أن يقرأ كلمات نعيم المكتوبة، حاول وهيب مساعدة نعيم على استعادة الكلام الصحيح مرة أخرى، لكن نعيم رفض، كان قد مل محاولات كل من حوله لإرجاعه إلى حظيرة العربية.

في أحد الأيام، دخل وهيب الدكان في صمت تام، فوجئ

@3abeth

بصوت نعيم المرتفع وهو يقرأ الأهرام، لما اقترب منه وجده يقرأ صفحة الوفيات، كان نعيم يقرأ أسماء الموتى وأسماء الأقارب ودرجات القرابة بصوت مرتفع، قرأ بلغته الخاصة غير المفهومة، ترك وهيب نعيم مستغرقاً في القراءة، تعجب كثيراً حينما سمع كلمات بعينها تتكرر خلال حديث نعيم، لاحظ أن لغة نعيم مرتبة، ليست عشوائية كما كان يظن.

على إحدى الأوراق، كتب وهيب عدة جمل بخط واضح، اقترب من نعيم، الذي فزع حينما ربت وهيب على كتفه، وطلب منه القراءة، في البداية خجل نعيم، لكن وهيب طمأنه قائلا: لا لوم عليك، اقرأ.

خلال القراءة، لاحظ وهيب أن نعيم يستبدل الكلمات بطريقة منظمة للغاية، لاحظ أن كل كلمة لها مرادف صوتي واحد فقط، يختلف في المعنى والطول وتركيب الحروف عن الكلمة الأصلية، لكنه لا يتبدل مطلقاً، ويظل لصيقاً بالكلمة الأصلية دون غيرها.

في ورقة بيضاء، أخذ وهيب يكتب مجموعة من الكلمات، اختار ما ورد على ذهنه بشكل عشوائي، ثم طالع صفحة الوفيات واختار منها عدة أسماء، واختار منها أفعالاً وأحرف جر بشكل عشوائي، قرأ في الأعلى صدق أو لا تصدق، ونقلها كاملة، مجزأة إلى كلمات منفصلة، كتب كل كلمة منها في سطر منفصل مستقل، في النهاية أصبح لديه عمود طويل من الكلمات.

@3abeth

وضع الورقة أمام نعيم، وأشار إلى الكلمة الأولى، لم يفهم نعيم ما يود وهيب فعله، ظن للحظة أن وهيب يريد أن يتسلى، ثم لما رأى علامات الاهتمام على وجهه، اعتقد أنه يريد أن يعرف المزيد عن مرضه. نطق نعيم الكلمة الأولى، وكتب وهيب ما نطقه بجانبها، ثم الثانية، والثالثة، حتى انتهيا من قراءة وكتابة الكلمات كلها.

طوى وهيب الورقة طولياً طيتين، بحيث اختفت المرادفات التي أملاها نعيم عليه عن الأعين، واختار وهيب هذه المرة الكلمات بشكل عشوائي، يشير لكل كلمة طالباً من نعيم قراءتها، ونعيم ينطق المرادف، ثم يكتبه وهيب بجانب الكلمة، في الجزء الباقي من فراغ الورقة، أنهيا كتابة المرادفات في وقت قصير.

طوى وهيب الورقة طيتين أخريين، كان يرتعد وهو يفعل ذلك، اختلس النظر لعمودي كلمات نعيم فارتعد، أعادا العملية بالكامل للمرة الثالثة، بعشوائية وسرعة، أخيراً، فرد وهيب الورقة على الطاولة بينهما.

شاهدا سوياً أربعة أعمدة مكونة من كلمات عديدة، عمود مختلف، وثلاثة متطابقة، كان نعيم لا ينطق كلاماً عشوائياً، لكنه كان يحول الكلمات العربية إلى كلمات أخرى، إلى لغة أخرى من صنيعه، تحتفظ بهيكل اللغة العربية؛ الأفعال بأزمانها المختلفة، الضمائر المتصلة والمنفصلة، الحروف، المذكر والمؤنث، المثنى والجموع، كل هذه القواعد احترمها نعيم وهو يكون لغته الجديدة.

@3abeth

جلس الرجلان يفكران؛ يدرك نعيم أن الحياة لا تزال طويلة، ووقت الفراغ في الدكان قاتل، والعمل ذاته يتيح أوقات طويلة من الانتظار. ووهيب من ناحيته لا يفعل شيئاً طوال النهار، فالعمل لا يثقل على نعيم ليضطر إلى مساعدته، وحتى إن كان العمل كذلك، وهيب مجرد مالك للدكان، ولا علاقة له بالعمل أو تفاصيله.

أخرج نعيم دفتراً من دفاتر الشمرلي، ناوله لوهيب، كان يعلم أن وهيب سيقع في دائرة سطوة الدفتر تدريجياً، سيصاب وهيب بهوس الشمرلي كما أصابه منذ أشهر قليلة. كتب نعيم لوهيب؛ عليه أن ينقل الكلمات للدفتر، عليه أن يدون ويحفظ لغة نعيم.

كتب نعيم؛ على وهيب أن يؤسس قاموساً يحوي لغته، يشرحها ويورد المرادفات، والفوارق بين اللغتين. يكتب الكلمة العربية، وبجانبها يكتب النعيمية، عليه أن يبحث عن صلة بين كلمات اللغة العربية واللغة النعيمية.

أخذ وهيب ينقل الكلمات الى الدفتر، العربية والنعيمية، كل واحدة تجاور الأخرى، انتهى من عمله الذي سيصبح نواة قاموسهما المشترك، قاموس نعيم - وهيب، اعتقد وهيب في البداية أن هذه مهمة مستحيلة، وأنهما لن يستطيعا إكمال القاموس أبداً، سيغوصان معاً في بحر العربية، وربما سيغرقان سوياً. لكن لا مفر من المحاولة. ولكي يطرد وهيب أي شكوك تراوده بخصوص لغة نعيم، أخذ يكون جملة من الكلمات التي كتبها للتو في الدفتر، كونها بلغة نعيم قاصداً اختباره.

@3abeth

طوى صفحة الوفيات، ليفصل الاسم عن صاحب الصورة، ثم أشار إليها، وسأل نعيم بلغته: شن يكروب برا سرات؟* رد نعيم بنفس اللغة: برا عكتور رانيه شف عنسيفتور، ومر تتن سنحين.**

تلقى وهيب الكلمات برهبة، كتبها بسرعة متعرفاً بصعوبة على الكلمات المنطوقة، قارنها بتلك الموجودة في الدفتر، غابت كلمتي "عكتور" و"عنسيفتور" من الدفتر، لكنه استنتجهما بسهولة. قال لنعيم: برا عكتور وشميسي، سنحين عمر دريشيخ.***

ابتسما، هذه أول مرة يتحاوران بلا قلم وورقة، وبدون إشارات من أصابع ويدي نعيم.

---

* هل تعرف هذا الميت؟
** هذا ممثل رأيته في التلفزيون، لا أذكر اسمه.
*** هذا ممثل وملحن، اسمه عمر خورشيد.

@3abeth

عزيزي صلاح،

يجب أن نخلق أزمة مفتعلة جديدة، لم أفكر فيها إلا لما تعرفه من قرب ميعاد الانتخابات الرئاسية القادمة، أقل من سنة و سيكون عليكم التحرك بقوة، ولا أود أن نتكاسل فيما يتعلق بالانتخابات، على الرغم من العمل المستمر خلال السنوات الماضية، إلا أنه يجب علينا التحضير للفترة الرئاسية السادسة، وإتمام الاستعداد لها.

أظن أننا لم نناقش موضوع مياه نهر النيل بما فيه الكفاية، هناك انطباع دائم ومتوطن، يصل إلى درجة اليقين عند المصريين: مصر هبة النيل. الناس لا يلتفتون للملايين التي تعيش في مناطق صحراوية بعيدة عن النيل، أو الملايين في الجزيرة العربية بعيداً عن أي مياه من الأصل، كما أنهم لا يلتفتون إلى أننا نطل على بحرين ضخمين، يمكن بلا مجهود كبير و بتكلفة بسيطة جداً الاستفادة منهما. هذا اليقين تم زرعه في وجدان الناس عبر عشرات السنين، بدءاً من هيرودوت، مروراً بعمر بن الخطاب الذي أوصى بصلاة الاستسقاء عندما تأخر الفيضان، وصولاً إلى السدود و الخزانات والقناطر التي تم إنشاؤها على مجرى النهر خلال التاريخ، حتى وصلنا إلى السد العالي. السد العالي كان مرحلة فاصلة في تاريخ النيل.

@3abeth

فقد الناس الاهتمام بالنيل بعد السد، لا أفهم بالضبط لماذا، هناك عدة أسباب قد أذكرها لك على استحياء، لكنها ليست أسباباً قوية منطقية. ربما تكون هزيمة عبد الناصر منشئ السد سبباً في عزوف الناس عن الاهتمام بالنيل، ربما لأن الدعاية الموجهة في الستينيات أشارت إلى أن السد سيكون أكبر مشروع يقام على النيل منذ الأزل و حتى الأبد. فلما انتهى إنشاء السد نسي الناس النيل و لم يعودوا مهتمين بما قد يحدث له. ربما لأن الدعاية الساداتية بعد ذلك سخفت السد ومن قام بإنشائه و من موله. لا أعلم الأسباب الحقيقية لفقدان الاهتمام، لكني أحدثك بكل أمانة، يجب أن يعود الناس للاهتمام بالنيل.

الناس كفروا بكل شيء يا عزيزي، ويجب أن يعودوا لحظيرة الإيمان، و إذا لم نتمكن من فعل ذلك، فعلى الأقل، يجب أن نشغلهم قليلاً بوثن عظيم.

ربما عليكم بث عدة أخبار عن توقيع اتفاقيات لإعادة توزيع مياه النيل على دول المنبع، أخبار أخرى عن البدء في إنشاء عدة سدود هناك، هناك سدود تم إنشاؤها فعلاً، يمكن ببساطة الحصول على صور فضائية للسدود و نشرها، كذلك يجب إظهار التالي: أن هناك ممول أجنبي للعملية كلها، هناك من يطمع في مياه النيل، هناك مخطط للسيطرة على مياه النيل، أعلم أن هناك تمويلاً غربياً و عربياً للسدود في أثيوبيا

@3abeth

و غيرها، كلها بغرض المنافع المشتركة، لكن لا مانع من إظهار أن الأمر برمته مؤامرة على شعب مصر. يجب بالطبع إدخال إسرائيل كمتآمر على نهر النيل، هذه لعبتكم المعروفة، لن أضطر إلى شرحها.

لكن انتبه، يجب حجب المعلومات المتعلقة بمعدلات استهلاك المياه، الإعلان عن المعدلات الحقيقية سيكون مصيبة لتعديها المعدلات العالمية، يجب أيضاً حجب المعلومات الخاصة بحصتنا "الفعلية" من مياه النيل، نحن نود خلق أزمة مفتعلة للأفارقة، لا أزمة حقيقية لمصر.

رأس الحربة هنا المثقفون، الطبقة المتوسطة، الجامعيين ذوي الياقات البيضاء، هم من سيفهمون -كما نريدهم أن يفهموا- إشارات الحكومة المبثوثة وسط الزحام. يجب أن يتم التحرك في هذا الوسط. هؤلاء هم الباحثون عن وثن قومي محطم ليعود الناس لعبادته، هم الباحثون عن "قضية"، قضية النيل مناسبة جداً لهم.

من الضروري أن تخصص المجلات أعداداً للكلام عن النيل، أن تخصص الصحف صفحات خاصة عن النيل، أقترح أن تنشروا كتاب نهر النيل للدكتور رشدي سعيد في مكتبة الأسرة، يجب أن يتحول حديث الناس للنيل، نهر النيل العظيم.

@3abeth

لا يا عزيزي، الغرض لن يكون إلهاء الناس كالعادة، عن ماذا نلهيهم؟ أظن أننا قد ألهينا الناس عن كل شيء، الطبيعي أن نلهيِ الناس عن النيل، وليس العكس، نهر النيل هنا ليس إلهاء، بل تحضير للضربة الكبرى.

الرئيس مبارك سيظهر في النهاية ليتخذ قراراً قاطعاً، قراراً من شأنه أن يحل أزمة النيل تماماً. لا تسألني ما هي الأزمة، لا توجد أزمة في الأصل يا صلاح. وبالطبع لا تسألني ما هو القرار.

الحكاية كلها مختلقة لإظهار مدى حكمة الرئيس مبارك، الحكمة المتمثلة في التالي: صورته سائراً وهو يرفع ذراعه بالتحية، صفحة رئيسية لجريدة الأهرام تحمل تلك الصورة وعشرين جملة بالبنط العريض، تمجد في الرئيس وتمدحه، تؤكد على حكمة قراره، تصفه بالتاريخي، المؤسس لاستقرار مصر بعيداً عن القلاقل والاضطرابات. صفحة كاملة بلا مقال أو خبر أو إعلان، فقط إعلان ضخم عن الرئيس مبارك. هنا ينتهي دور النيل.

كل هذا مفيد للتأكيد على حتمية اختيار مبارك رئيساً لفترة رئاسية سادسة، كما قلت، هذه الانتخابات لا يمكن إهمالها أبداً، أو الاعتماد على ما قمنا به خلال السنوات الماضية، الشعب ينسى بسرعة، ولا يجب أن نتركه معرضاً للنسيان.

@3abeth

أخيراً، أود أن أثني عليك يا عزيزي، تابعت -بكثير من التقدير- خطة تغيير اسم منطقة رمسيس. تلك الخطة التي يتولاها داهية ثقيل الحركة. بالتدريج، قمتم بتسمية محطة مترو الأنفاق بمحطة مبارك، ثم قمتم بإزالة تمثال رمسيس، وفي هذا العام قمتم بتجديد محطة القطار. كل هذا سيخدم في النهاية التوجه الأصلي؛ تغيير اسم المنطقة بالكامل لمنطقة مبارك. التغيير الذي يجب أن يتزامن مع الانتخابات القادمة.

سيكون اسم محطة القطار محطة مبارك، وكذلك سيلحق اسم مبارك بالميدان والسنترال ومكتب البريد. أنت تعلم أن الملايين يمرون يومياً بهذا التقاطع الحيوي في القاهرة، زائرو القاهرة، ومغادروها إلى المحافظات الأخرى، ملايين من الزوار يمرون يومياً بميدان رمسيس، وأيضاً هناك سكان القاهرة المتنقلون من مساكنهم إلى أماكن العمل. كل هؤلاء سيكررون كلمة مبارك بدلاً من كلمة رمسيس. حتى الآن هذه أقوى دعاية انتخابية للانتخابات القادمة. إعلان مستمر وواضح. ليس كاللافتات الإعلانية السخيفة المنتشرة في كل مكان، بل إعلان موجه إلى عقل الشعب المصري.

أين تسكن؟ في مبارك. أين تقع عيادة الطبيب؟ في مبارك. أين أجد محطة القطار؟ في مبارك يا أخي! أين تقع الفجالة؟ بالقرب من مبارك يا عزيزي!

@3abeth

والأهم، الربط الذي أحرص على إيصاله للناس، الربط بين إنجازات رمسيس الثاني وبين إنجازات مبارك. هذا شيء لا يمكن إغفاله أبداً، المصريون موهومون بفراعينهم، فلنخلق لهم فرعوناً جديداً. ستستقر تلك الفكرة في أدمغة الناس، خلف مبارك رمسيس الثاني. وما بينهما شخصيات ضعيفة، قادة فاشلون، فراعنة زائفون.

@3abeth

قـامـوس

في بعض المكتبات الخاصة المنتشرة في البيوت، ستجد أحد أجزاء القاموس.

في أغلب الأحوال، سيتذكر مالك المكتبة سبب اقتنائه للقاموس، سيحكي عن ذهابه إلى مكان محدد في القاهرة لابتياع هذا الجزء، أو عن إرساله رسالة لأحد الأصدقاء يطلب منه شراء القاموس.

يتكون القاموس من ثمانية وعشرين جزءاً، كل جزء يحوي المداخل الخاصة بحرف واحد من أحرف اللغة العربية.

هناك طبعات متعددة للقاموس، الطبعات الأولى كانت بسيطة للغاية، تنقصها الكثير من الكلمات، ولا تحوي أي تحليل للغة النعيمية. تم تلافي هذا النقص في الطبعات اللاحقة، وتم إضافة عدة فصول شارحة في كل جزء، يحكي جزء صغير من الفصول الشارحة تاريخ تطور اللغة – وهو تاريخ قصير، بينما يحاول الجزء الأكبر وضع قواعد وأسس تشرح العلاقة بين النعيمية والعربية.

@3abeth

في الطبعات اللاحقة، والصادرة في التسعينيات، اعتمد وهيب على لسان العرب، ينقل منه جذور كلمات اللغة العربية، ويضع المرادف لها من النعيمية، ذكر وهيب في أحد الفصول الشارحة أنه يعتقد أن لسان العرب هو أكثر المعاجم اكتمالاً.

صدر عام ٢٠١٢ قاموس نعيم/ وهيب....وهيب/ نعيم الكامل. مجلد مكون من آلاف الصفحات، كان تحدياً حقيقياً. كان من الصعب – من الناحية الفعلية ـ وضع الأجزاء الثمانية والعشرين في مجلد واحد. يذكر أحد الفصول الشارحة في القاموس الكامل أن وهيب ونعيم أجريا عدة تجارب، حتى وصلا إلى الشكل النهائي للقاموس.

يتكون القاموس من ستة آلاف ورقة تقريباً، وبمقاس غير معتاد: ٦٥سم × ٥٠ سم. أوراق الكتاب خفيفة للغاية، نصف شفافة. لكن وهيب ونعيم اختارا نوعية الورق بعناية بالغة، لن يستطيع القارئ تمييز أي كلام إذا أمسك بورقة منفردة. سيضيع بين تشابك الكلمات المدونة على وجهي الورقة. لكن ما إن يرخي الورقة في وضعها الطبيعي حتى تختفي الكلمات على جانب الورقة الآخر تماماً، وتظهر الكلمات واضحة على الجانب المواجه للعين. قام وهيب ونعيم بكتابة القاموس كاملاً بخط اليد. الكلمات النعيمية باللون الأحمر، والعربية والشروح القصيرة باللون الأسود.

يذكر المهتمون بالقاموس أنهم اعتادوا على شراء القاموس في ميعاد سنوي محدد. في فبراير من كل عام سيصدر جزء جديد، يباع في

@3abeth

مكتبة واحدة بوسط البلد. لا يصرح المهتمون بالقاموس باسم المكتبة أبداً. يعتبرون أن هذا سر خاص بهم، وهي سرية تتماشى مع الرأي المنتشر بينهم: اللغة النعيمية لغة خاصة، وليست للعامة من الناس. حاول الكثيرون البحث عن القاموس في مكتبات وسط البلد، في النهاية عدد المكتبات محدود، وكلها معروفة، لكن هؤلاء الباحثين لم يوفقوا أبداً. أيقنوا أن هناك مكتبة مختبئة بين الدكاكين، أو بين شقق وسط البلد الكثيرة. أصابهم اليأس بسرعة.

يدور جدل دائم في الأوساط المهتمة بالقاموس، يرى الكثيرون أن اللغة النعيمية لا قيمة لها، تشابهها مع العربية يجعلها لغة ثانوية يمكن الاستغناء عنها بالعربية. مع ذلك، يصر الجميع على أن خلق لغة جديدة أمر بالغ الأهمية، ويؤكد تمتع نعيم بقدرات لغوية ومعرفية هائلة. لذلك لا يلوم واحد من المهتمين نعيم أو وهيب على قاموسهما.

يحاول أحد الفصول الشارحة فهم العلاقة بين النعيمية والعربية عن طريق الرياضيات، تمت كتابة هذا الفصل عدة مرات على مدى سنين نشر القاموس. في طبعة عام ١٩٨٦ والحاوية لكلمات حرف الحاء، أورد الفصل الشارح معادلتين من الدرجة الأولى، تمكنان القارئ من التنبؤ بترجمات الكلمات النعيمية. أورد الفصل أيضاً أمثلة عديدة تؤكد صحة المعادلتين، كلمات بالعربية ومرادفها من النعيمية. تم استنتاجها من خلال المعادلتين.

يذكر وهيب في أحد الفصول الشارحة، والواردة في الجزء

@3abeth

الخاص بحرف الشين، أن الحل الرياضي ماهو إلا وسيلة أخرى لتسهيل الترجمة بين اللغتين، آملاً في تطبيق حاسوبي يسهل تلك العملية، بدون الرجوع للقاموس. أيضاً، يرى وهيب أن الحل الرياضي سيثبت أن اللغتين –النعيمية والعربية- ذواتا خصائص وقواعد منطقية. وليستا "خبط عشواء" كما ذكر.

لاحقاً، وخلال الأعوام التالية، سيتطور الحل الرياضي كثيراً، في القاموس الكامل سنجد الفصول الحاوية لتاريخ هذا التطور، مسلسلة زمنياً، لنصل في النهاية إلى الحل الرياضي الأخير، ستة معادلات من الدرجة السادسة، مكونة من اثني عشر حداً. في نهاية الفصل، يعلن وهيب أن الشكل النهائي للمعادلات غير كامل بالتأكيد. يوضح وهيب أنه قد وصل إلى تلك القناعة أثناء عمله المستمر لتطوير المعادلات خلال الثلاثين عاماً الماضية. لا شيء كامل.

يحرص المهتمون بالقاموس على الاجتماع دورياً، هؤلاء مجموعة ضخمة من الناس، يختلفون اختلافاً تاماً، في المهن والثقافة والطبقة الاجتماعية، لكن ما إن ينعقد الاجتماع حتى تذوب كل تلك الفوارق. خلال سنوات صدور القاموس، ناقش المهتمون الكثير من الأمور المتعلقة بالقاموس، لكن أكثر المواضيع جدلاً، كان جدوى الكلام النعيمية بدلاً من العربية، رأى فريق منهم أن الكلام بالنعيمية ضروري لفهمها، وأن اهتمامهم بالنعيمية يحتم عليهم أن يتحاوروا بها، على الأقل في اجتماعاتهم. رأى فريق آخر أن النعيمية لغة غير كاملة، ولا يمكن لهم التحدث بلغة منقوصة.

@3abeth

في عام ٢٠١٢، وبعد صدور القاموس الكامل، اجتمع المهتمون للاحتفال، في بداية الاحتفال، تم التصويت على مبدأ يجعل النعيمية اللغة الرسمية للمهتمين، يجب التحدث بها أثناء الاجتماعات، ولهم أن يتحدثوا بها في أي وقت. تم إقرار المبدأ بعد موافقة جميع الحاضرين.

نعيم هو الرجل صاحب اللغة، ووهيب هو من ساعده في تدوين المرادفات العربية للغته، لا تذكر الفصول الشارحة سبب نحت نعيم للغته الجديدة، ولا تحكي كيفية خلق اللغة، يرى بعض المهتمين أن نعيم أجبر على خلق تلك اللغة، يقولون إنهم يشعرون بهذا عند قراءتهم للقاموس، لكنهم لم يجدوا دليلاً واحداً على صحة رأيهم.

@3abeth

روح

أنجب وهيب وهيب طفله في سن صغيرة، في الثانية والعشرين، وضعت زوجته طفلاً كالملائكة، أحب وهيب طفله، ليس كما يفعل معظم الآباء؛ يشعرون بأبوتهم بعد العام الأول، حينما يبدأ أطفالهم في التعلق بهم، ثم يبادلونهم تعلقاً بحب، بل أحبه منذ يومه الأول، شجعه على ذلك وسامة الطفل الظاهرة، وذكاء يشع من عينيه الباسمتين دوماً. أسماه وهيباً، ليحفظ الاسم العبقري من الاندثار، اعتبر وهيب وهيب أن وهيب هبة من الله، واعتقد أن الله سيهب طفله الكثير من الهبات كما فعل معه.

مات الطفل وهيب قبل أن يكمل عامه الأول.

بشكل قاطع ونهائي، بلا رجعة أو تفكير، رفض وهيب وهيب مسألة الموت هذه، تعامل مع الأمر وكأنه مرض خفيف أصاب طفله وسيشفى منه تلقائياً، بلا علاج أو وصفات طبية. كان واثقاً أن طفله حي، هو لا يتنفس، لا يتحرك، سكنت عيناه وتجمد قلبه، لكن روحه لا تزال في جسده، لم تخرج وترحل بعيداً عن عالمنا الأرضي إلى

@3abeth

السماء. أيقن وهيب وهيب أن روح وهيب محبوسة في جسده، ولا سبيل لإخراجها عنوة، وبالتالي فوهيب لم يمت، ولا يمكن دفنه.

بعناد لا حدود له، اختطف وهيب وهيب جسد طفله المتوفى وهرب به بعيداً عن الجميع، ظل يدور في الشوارع هارباً من الملاحقة، يبيت في الفنادق، أو في بيوت الأصدقاء، في البداية تظاهر بأنه يحمل طفلاً نائماً، تحمل كثيراً سخافات المحيطين به، الراغبين في مداعبة الرضيع الصغير، غير مقتنعين بأنه نائم ولا يمكن إزعاجه، يريدون دائماً النظر إلى ضحكة العينين، أو إلى هدوء الوجه النائم. لهذا تخلى وهيب وهيب عن تلك الفكرة تدريجياً، وبدأ في وضع الجسد في حقيبته بين الملابس، كان متأكداً من أن وهيب لا يشعر بشيء، توقف جسده عن الحياة، توقف أيضاً عن النمو، وبدأ يتخشب، كل ما هنالك أن روحه لا تزال حبيسة جسده. والروح لا تشعر بالألم إذا ارتجت الحقيبة أو وقعت أرضاً.

كل يوم، كان وهيب وهيب يحكم إغلاق باب حجرته، في الفندق أو في بيت أحد أصدقائه. يعري جسد طفله تماماً، يضعه على الطاولة تحت النافذة، أو تحت نور مصباح ساطع، يجلس أمام الجسد لساعات طويلة، منتظراً أي إشارة تشير إلى خروج الروح، إلى فراغ الجسد. لكنه كان كلما تأمل، كان يجدها حبيسة، تتلوى في حيرة من السكون المسيطر على حاويها، تتخبط في أسطوانية الأصابع الدقيقة الساكنة، أو في القفص الصدري، تتجول بين الأضلع راغبة في تحريك الحجاب الحاجز مرة أخرى، أو تسير مع تلافيف المخ، باحثة عن زر أو مفتاح لإعادة الحركة للجسد. لم تفهم الروح أنها حبيسة سجن بلا

@3abeth

مفتاح أو حارس. كان وهيب وهيب يتألم كلما رآها على تلك الحال من الجهل والحيرة والتخبط، لكن لم يكن بيده شيء، كان عاجزاً عن مساعدة روح طفله.

تأكد وهيب وهيب من أن الناس سترميه بالجنون إن أخبرهم بما يعتقد، كان الناس يربطون ربطاً خاطئاً بين غياب الروح عن الجسد، وتوقف حركته ونموه، كان وهيب وهيب يربط نفس الربط الخاطئ سابقاً، لكنه أدرك فداحة هذا الخطأ عندما ظن الناس أن وهيب قد مات، وأدرك - وهو يرتعب - أن الكثيرين قد دُفنوا وهم أحياء، ماتوا وتخشبت أجسادهم، لكن أرواحهم لا تزال حبيسة. تريد الخروج لكنها مقيدة بقيد الجسد.

بعد أن انتشرت رائحة تعفن الجسد، قُبض على وهيب، اقتحم الجنود غرفته في الفندق، وأخذوا يبحثون عن مصدر الرائحة، لما وجدوا الجثة وقد انتفخت تماماً، وتبدل لونها، أوسعوه ضرباً، ثم خرجوا وهم مستمرون في الضرب، اشترك قاطنو الفندق في الضرب، الكل كان يضرب، الكل كان مستمتعاً بضرب مجرم مثل وهيب وهيب، لكن الرجل كان صامتاً، لم يتكلم، كان مرتعباً من فكرة رميه بالجنون، لا يمكن أن يرميه الناس بالجنون، اختار أن يكون مجرماً بلا دافع منطقي، بدلاً من أن يكون مجنوناً.

أثناء التحقيق، وبعد ضغوط شديدة، كان أكثرها مباشرة، تهديد وكيل النيابة باتهامه بالجنون، اعترف وهيب وهيب بوجود روح

@3abeth

طفله حبيسة الجسد، ولم يكن اعترافه هذا إلا آخر دليل على جنونه، أمر وكيل النيابة بدفن الجثمان، وأفرج عن وهيب وهيب.

وقف وهيب وهيب وهو يكاد يتمزق، على يمينه ويساره وقف رجلان من عائلته ليعيقانه لو حاول الحركة، دفنوا طفله أمام عينيه، وروحه لا زالت حبيسة جسده، أهالوا التراب على الروح وهي لا تفهم ما يحدث حولها، أرواح الأطفال لا تبكي ولا تتذمر، هذه أرواح سعيدة على الدوام، لكنها قد تصاب بالحيرة إذا توقف الجسد عن الحركة والتألم، وتصاب بالرعب إذا ما دُفن حاويها في التراب ملفوفاً بقطعة قماش.

لم يندمل جرح وهيب وهيب أبداً، ظل غاضباً على الجميع، عائلته وعائلة زوجته، رفض التصالح مع أي منهم. ووجد أن أفضل الحلول الانشغال بالعمل، والتمسك بإيمانه، وهيب لا يزال حياً لا يتنفس.

***

في عمارة الأدرياتكا، في شارع شريف، جلس وهيب وهيب مأخوذاً بما يراه في إحدى الشقق، كان في زيارة لصديق شاب مثله، في غرفته، أخذ وهيب وهيب يقلب أوراقاً وصوراً وكتباً، صناديق عديدة امتلأت بها غرفة أمجد نجيب، تحوي خليطاً من متعلقات شخصية لمجاهيل، أشخاص ماتوا وتخلى ورثتهم عن ذكريات عديدة، أشخاص رحلوا بعيداً، ولم يتمكنوا من حمل ذكرياتهم المطبوعة معهم. قليل منهم

@3abeth

قرر أن يترك تاريخاً يحمل ذكريات مؤلمة، ويبدأ حياة جديدة طازجة، في مكان آخر، أو بشكل آخر.

كان أمجد قد بدأ للتو هوايته، يمشي في شوارع وسط البلد، يتعرف على البوابين والكوائين والبقالين، يعرف الزبال والخاطبة وتمرجي الأجزاخانة وغيرهم، ويستمر في سؤالهم يوماً بعد يوم، صندوق يحوي أوراقاً؟ بيت يتركه أصحابه؟ عمارة ستهدم؟ محل أو دكان يباع؟ كل هذه مغانم لأمجد، سيتبقى غرض أو غرضان غير مرغوبين، يرفض صاحب البيت حملهم، يرغب في التخلص منهم، ليأتي أمجد فيحصل على تلك الأغراض بسعر رخيص.

نواة مجموعة أمجد التي ستتعاظم بمرور السنين كانت بين يدي وهيب وهيب، شعر بالتراب الناعم بين أصابعه، تلتقطه الأطراف رويداً رويداً، ثم يضيع كل إحساس بالزمن، ويبقى هو مأخوذاً بكومة الصور الشخصية تلك. في ذلك اليوم، وجد وهيب وهيب صورة طفل في عامه الثاني، كان طفله وهيب ليشبه صاحب الصورة لو أنه عاش، حينها لمعت في رأس وهيب وهيب الفكرة.

مع إيمان لا يتزعزع بوجود روح وهيب قلقة في جسده، قرر وهيب وهيب أن على طفله أن يعيش حياة عادية كباقي الأطفال، عليه أن يرتبط بأقرانه، بالناس، أن يظل اسمه في سجلات الدولة. عليه أن يكون عضواً مؤسساً في المجتمع، عضواً متعلماً، ثم عضواً عاملاً. ليرث دكانه بعد عمر طويل.

@3abeth

أخذ وهيب وهيب صورة الطفل، كتب على جانبها الآخر اسم طفله، وهيب وهيب وهيب، وضعها في محفظته، في أول خطواته لبناء تاريخ طفله الميت.

بعد ذلك، وفي خطوات ثابتة دؤوبة، استطاع وهيب وهيب إدخال طفله للمدرسة في السن القانوني، أخذ صورة ضوئية لطفل مجهول من مجموعة أمجد، وشهادة ميلاد لآخر، وخلال سنة كاملة تعلم كيف يزور شهادة الميلاد، الأمر الذي سيكون مهمة سهلة فيما بعد. كان حريصاً على ألا يذهب لمزور محترف، أراد أن يقوم بالعمل بأكمله، بدون الاعتماد على آخرين. تقدم وهيب وهيب بالصورة وشهادة الميلاد المزورة إلى المدرسة، تم تسجيل الطفل في سجلات المدرسة، وبدأت الدراسة. رسب وهيب في عامه الأول بسبب الغياب المستمر، كان لابد من حدوث هذا، فوهيب لم يظهر في المدرسة أبداً، لكنه كان مسجلاً في السجلات، وهو الأهم.

في العام التالي تم نقل وهيب إلى السنة الدراسية التالية، لكن في مدرسة أخرى. استطاع وهيب وهيب تزوير شهادة نجاح طفله. كان قد أصبح مزوراً محترفاً الآن، كتب بيده اسم طفله الناجح في السنة الدراسية الأولى، كتب درجات النجاح، نجاح متوسط بلا تفوق، حتى لا يثير الشبهات حول الشهادة، وقع بدلاً من الناظر، زور ختم النسر، كان وهيب وهيب يعرض نفسه للعقاب القانوني في كل مرة يزور فيها ورقة من أوراق طفله، لكنه كان مستمتعاً بما يقوم به. ثم تقدم إلى مدرسة أخرى بالأوراق، شهادة الميلاد وشهادة النجاح، وألحقه بالصف الثاني.

@3abeth

نجح وهيب وهيب في كل هذا، واستمر ينقل طفله من سنة دراسية لأخرى، ومن مدرسة لأخرى، ناجحاً نجاحات متوسطة طوال كل تلك السنوات، حتى حصل وهيب وهيب على الثانوية.

أراد وهيب وهيب أن يُشغل ولده معه في الدكان، كان يتمنى أن يشاركه العمل والتعب، دار وهيب للتجليد لن تستمر إلا بولد له يحمل اسمه ويساعده في استمرارها. حتى اليوم، اعتقد وهيب وهيب أن روح طفله لا تزال حبيسة جسده الصغير، كان يعلم أنها تستقر هناك تحت التراب، قلقة متوترة، مرت السنوات عليها وهي لا تفهم ما يحدث حولها، يؤلمها تحلل الجسد وفناؤه.

اعتاد وهيب وهيب أن يبحث في أكوام الصور والوثائق والخرائط والكتب الموجودة في بيت أو مخازن أمجد. كانت هذه مغارته التي يستخرج منها صور وشهادات وكتب وهيب. اختار كل عام صورة مناسبة لطفله وهيب، ثم للفتى وهيب، ثم للشاب وهيب. حاول وهيب وهيب قدر إمكانه أن يبحث في المخازن والشقة بالكامل، عدة زيارات شهرية كفيلة بأن يطَلع وهيب وهيب على كل ورقة دخلت مغارة أمجد، ولم يترك شيئاً للصدفة، بل ابتاع كل ما ظن أنه قد يفيد، خاصة الصور. قد يستفيد وهيب وهيب من صورة ابتاعها منذ عدة أعوام، صورة لصديق من أصدقاء وهيب، أو مجموعة صور تمثل ألبوماً كاملاً، صور أثناء رحلة مدرسية إلى القناطر. حرص وهيب وهيب على أن تكون كل صورة شخصية لوهيب مشابهة لصورة المجهول من العام الماضي، مع احترام فارق السن، وكأن وهيب ينمو

@3abeth

فعلاً، تتغير معالم وجهه من السمنة الطفولية إلى النحول، ثم إلى مرحلة عظام الوجنتين البارزة والأعين النزقة. خلق وهيب وهيب أرشيفاً متناقضاً من عشرات الصور والوثائق، لكنه كان أرشيفاً مقنعاً، على الأقل أقنع الأرشيف وهيب وهيب بوجود ولده، منتظراً حركة الجسد واختراق تراب القبر.

في وقت متأخر، كان وهيب وهيب قد بدأ يمل ما يحدث، رأى هدفه بعيداً تماماً، وربما مستحيل التحقق، وكثرت أوقات تعقله، كان يبتعد عن جنونه لمدد طويلة، ثم يعود إليه وكأنه يعيش من أجله، ثم زادت مدد تعقله، وأصبح وهيب وهيب زائراً خفيفاً على جنونه، يتذكره حين الاكتئاب والقلق. أهمل في دراسة ولده، أعرض بالتدريج عن فكرة تزوير شهادات النجاح.

استمر الحماس لعشرين سنة، منذ ميلاد وهيب وحتى بلوغه العشرين، لكنه خبا في سنوات قليلة، ربما سنتين اثنتين فقط، راح الحماس والجنون وحل التعقل، وبدأ وهيب وهيب ينظر نظرة المستاء إلى الجنون الذي كانه.

لكنه كان يلتقي بأمجد نجيب من وقت لآخر، بعيداً عن مخازنه التي كثرت الآن، بعيداً عن شقته التي تغص بالأشياء، كان يقابله في مودة، كصديق قديم، وفي كل مرة كان يبحث في عينيه المبتسمتين دوما، عن نعت بالجنون أو قلة العقل.

@3abeth

عزيزي صلاح،

لكل رئيس رجال، مستشارون ووزراء ومساعدون، هناك حراس شخصيون، مثل "حامد الجامد" حارس مبارك الشخصي الشهير، هناك أيضاً فنانون قريبون من الرئيس، مطربون، مسرحيون، هناك أيضاً طباخو الرئيس، صانعو حساء العدس، والطعام الخفيف المفضل للرئيس مبارك، هناك رفاق السلاح القدامى، هناك الأولاد والأحفاد والزوجة. والأهم، هناك الرجال المقربون لدرجة التوحد مع الرئيس. هؤلاء من يشغلون تفكيري دائماً.

محمد حسنين هيكل كان متوحداً مع عبد الناصر، روحاً واحدة في جسدين. كان ناصحاً له على الدوام، وأيضاً، كان "يفعل" ما بوسعه لمساعدة الرجل، سواء بالكلام والكتابة أو "بغيرهما"، مخلصاً له تمام الإخلاص. أحب هيكل عبد الناصر كأخ، وليس كمجرد رئيس للجمهورية. صنع هيكل وعبد الناصر أكثر الثنائيات الرئاسية قوة وذكاءً، نعم يا صلاح، هيكل لم يكن مجرد صحافي في عهد عبد الناصر، بل كان شريكاً له في رئاسة مصر. حسد السادات عبد الناصر كثيراً لوجود هيكل إلى جانبه، وأصر على ضمه إلى رجاله بعد وفاة عبد الناصر وتوليه حكم مصر، لكن هيكل بذكاء وأدب وفخر، رفض العرض الساداتي. في إشارة واضحة تؤكد أن ولاءه كان دائماً لعبد الناصر، أو قل: لسياسة عبد

@3abeth

الناصر في إدارة البلاد. ثم كرر مبارك العرض، وكرر هيكل الرفض، مخرجاً لسانه ـ في أدب ـ لرئيسين متتاليين، معلناً إخلاصه لعبد الناصر ـ أو لسياسته ـ على طول الخط.

السادات كان في حاجة إلى هيكل فعلاً، كان على علم بعلاقات هيكل المتشرة في كل مكان على وجه الأرض، على علم بمعارفه ومعرفته وذكائه، وعلى علم أيضاً بكنز الوثائق الذي يصيب أي عالم به بالدوار. حاول السادات الاستحواذ على هذا الكنز في عام ١٩٨١، عندما أرسل رجاله لبيت هيكل؛ سخر هيكل من الرجال اللذين قاموا بتفتيش بيته بحثاً عن الوثائق، قال لهم إن السادات يعلم حتماً، وبكل تأكيد، أن الوثائق خارج مصر. الأكثر من ذلك، أن السادات كان يعلم بقدرات هيكل الخاصة.

طلب مبارك من هيكل الانضمام لرجاله، فعلها، لكنه طلب منه ذلك على سبيل إبداء الاحترام للرجل وإعلاءً لمكانته المهدورة بعد إلقاء القبض عليه في عام ٨١، في الحقيقة، لم يرغب مبارك في تواجد وجوه قديمة بين رجاله، كان مبارك من الذكاء بحيث اختار رجالاً يستطيع السيطرة عليهم، رجال أضعف من أن ينقلبوا عليه، ولما رأى بعد سنوات من الحكم، أن بعضهم قد يعارضه أو يعارض مؤيديه، قام باستبعاده بكل احترام، مهما كان، فمبارك هو أكثر الرؤساء المصريين احتراماً حتى الآن. كان مبارك يعلم أن

@3abeth

المستشارين ضروريون لنقل المعلومات إليه، ولكتابة التقارير، وبالطبع لإبداء الرأي، لكنه لم يكن يرغب في داهية مثل هيكل قد يملي عليه تحركاً أو رأياً. مبارك كان يعلم - كما السادات- بسعة علم هيكل، وعلاقاته المنتشرة، كان على علم أيضاً بكنز الوثائق، هذا الذي أوشك في أيامنا هذه على أن يصبح بلا فائدة سياسية، لكن مبارك للأسف لم يكن على علم بقدرات هيكل الخاصة.

لا ريب أنك الآن تتساءل عن قدرات هيكل التي أحدثك عنها الآن، القدرات الخاصة، سر هيكل الخفي. هذا أمر سيطول شرحه، أرجو أن تصبر وأن تقرأ بهدوء وتركيز، فشرح الأمر مرهق للغاية بالنسبة لي، وأرجو أن أكون موفقاً.

من أين أبدأ؟ دعني أبدأ من مقال لهيكل، نُشر في الأهرام في الأول من مارس عام ١٩٦٨. كانت محكمة مصرية قد أصدرت- للتو- أحكاماً بالسجن على قادة عسكريين مصريين، بعد محاكمة شهيرة، سميت وقتها بـ "محاكمة قادة الطيران" وجهت تهم كثيرة لقادة سلاح الطيان المصري في ذلك الوقت، كانت التهم كلها تصب في مجرى واحد، قادة سلاح الطيران هم سبب النكسة. وبعد صدور الأحكام، ثار طلاب الجامعات، انفلت عيارهم تماماً، ونزلوا إلى الشارع في مظاهرات ضخمة، معترضين على الأحكام التي وجدوها "خفيفة" ولا تتناسب مع حجم "الجريمة" التي ارتكبها هؤلاء

@3abeth

القادة. كنا قد هُزمنا، ورفض الناس حكم القضاء، الوضع كان شديد الحرج في ذلك الوقت يا صلاح.

فبدلاً من وحدة الصف، ولم الشمل، كاد عبد الناصر أن يفقد السيطرة على الملايين، تلك السيطرة التي أحكمها خلال سنوات حكمه، مرات بالإقناع ومرات بالخداع، ومرات بالإرهاب- أنت تعلم ما أعنيه بالطبع- لكن مهما كانت قوة الرئيس، مهما كانت قدرته على فرض سيطرته على الجموع، فإنه يقف عاجزاً أمام الملايين الغاضبة. ثورة الشعب تلك مرعبة يا صلاح، ولا يمكن إيقافها إلا بحلول سريعة صارمة، وكيف تتوقع أن يتصرف عبد الناصر مع تلك المظاهرات، بالعنف العلني؟ حينها كان سيفقد كل شيء.

أحتفظ بصور لمئات الألوف سائرين في شوارع القاهرة في ذلك الوقت، هذه كانت أول غضبة شعبية في وجه عبد الناصر، غضبة لم يتوقعها أحد على الإطلاق، اتفق الجميع على رأي واحد، الأحكام صورية وغير عادلة، وينبغي أن تكون أكثر صرامة وعنفاً. تخيل مقدار الطاقة الغاضبة التي ملأت الشارع في ذلك الوقت يا صلاح، هؤلاء غاضبون على قادة هم سبب الهزيمة، في ذلك الوقت، كانت الهزيمة لا زالت طازجة، كان عبد الناصر قد خلق فزاعته الخاصة؛ إسرائيل. الفزاعة التي استطاع أن يوحد المصريين كلهم

@3abeth

ضدها. حسناً، لكي أكون عادلاً، لم تكن مجرد فزاعة، كانت إسرائيل في ذلك الوقت خطراً جاثماً على الحدود، كانت إسرائيل عدواً، وفي عام ١٩٦٧، حطمنا هذا العدو، واحتل أرضنا. هل يمكن أن تتخيل مقدار غضب الناس وقتها، أن يفيقوا من أحلام الانتصار على إسرائيل، على كابوس الهزيمة على أيدي جنود جيش الدفاع؟

هل كان على عبد الناصر أن يطلق رجاله للقبض على المتظاهرين، هل كان عليه أن يطلق عليهم الرصاص لتفريقهم، ماذا كان عليه أن يفعل لإعادة الطلبة إلى الجامعة، ولإعادة المواطن إلى منزله؟ بشكل شخصي، أرى أن عبد الناصر لم يتحرك "فعلياً"، لكنه أخرج ورقته الرابحة دوماً، تلك التي لم تخسر أبداً، ولن تخسر أبداً. الورقة التي حاول السادات جاهداً أن يحتويها في جيبه إلى أن يحين وقت اللعب بها.

أخرج عبد الناصر ورقة محمد حسنين هيكل.

كتب هيكل مقالاً طويلاً، أوضح فيه أن المسؤولية لا تقع على القادة فقط، بل على صغار الضباط أيضاً، أوضح أن الأحكام عادلة، وليست صورية أو هينة، أوضح أن القائد إذا خسر المعركة، يجب أن يفصل، أن يعزل من منصبه، لا أن يحاكم، أن يعود إلى بيته تاركاً العمل لمن هم

@3abeth

أكثر كفاءة، لا أن يعاقب. أوضح هيكل في مقاله بكل وضوح ومنطقية، أن عقاب هؤلاء الضباط كان بسبب "إهمالهم في إعداد القوات الجوية" وليس "المسؤولية عما حدث في النكسة".

كتب هيكل مقالاً منطقياً، مطعماً بمعلومات تاريخية حقيقية، بل ولم يحو المقال جملة واحدة كاذبة أو حتى مجمّلة للواقع، كان مقالاً شديد الصراحة، والأهم، كان منطقياً، مثالاً لإعمال العقل والتفكير والتدبر في زمن غاب فيه العقل وعلا صوت العاطفة.

ثم، وكأنه ساحر ألقى تعويذته على الناس، تراجعت المظاهرات فوراً، حرك هيكل عصاه السحرية فوق رؤوس الناس فاقتنعوا وصمتوا. امتلك هيكل سلاحاً مؤثراً، ووسيلة شديدة الفاعلية لنقل تأثير هذا السلاح إلى الناس، في الأول من مارس عام ٦٨ ، كان كل ما على هيكل أن يكتب مقالاً ، وكل ما على جريدة الأهرام أن تنشره، ليعود الشارع كما كان هادئاً ، مقتنعاً بصحة رأي هيكل، بصواب ورجاحة عقل عبد الناصر. نجح هيكل في كلمات لم تتعد الألفين، في إقناع الملايين برأيه.

لكن، هل اقتنع الملايين فعلاً، هل كان منطق هيكل مؤثراً؟ ألا ترى يا صلاح أن المنطق لا يتفوق في أوقات

@3abeth

الانفعال والغضب، ألا ترى أن رد فعل الناس السريع والكامل كان مبالغاً فيه، هل يمكن للمنطق وحده أن يعيد الملايين الغاضبة والثائرة إلى بيوتها وقاعات الدراسة؟

أشك في ذلك كثيراً، بل أنا متأكد أن هناك سبباً آخر لتهدئة الجمهور غير المنطق المُقنع في مقال هيكل.

دعني الآن أعود معك عدة أشهر إلى الوراء، سيبدو الأمر ساعتها أكثر غرابة.

ما أن أنهى عبد الناصر خطاب تنحيه، مساء يوم التاسع من يونيو عام ١٩٦٧ حتى تدفق الملايين إلى الشوارع. وظلوا متدفقين يجوبون شوارع مصر كلها حتى اليوم التالي، كان طلبهم الوحيد عودة عبد الناصر إلى الحكم.

لا بد أنك قرأت مقالات وأبحاث قليلة تؤكد أن تلك المظاهرات كانت مدبرة، ولابد أيضاً أنك قرأت الكثير والكثير من التقارير والتحليلات - ربما كتب بعضها هيكل نفسه - التي تؤكد أن المظاهرات كانت تلقائية بلدون تدبير. كان الاتحاد الاشتراكي قد دبر ووجه وحشد الكثير من المظاهرات خلال السنوات السابقة على النكسة، لكن للحق، هذه الهبّة المصرية الجماعية لم تكن مدبرة أو موجهة، أقصد، لم يقم أي من متخصصي توجيه وتدبير المظاهرات من الاتحاد الاشتراكي بتدبيرها.

@3abeth

كان الشعب المصري قد تجرع مرارة الهزيمة للتو، انهار كل ما بناه عبد الناصر في أيام قليلة، وانهارت كل آمال المصريين، كانت الهزيمة خانقة، مريرة، حكى العائدون سيراً من سيناء عما رأوه من أهوال وصعاب، كان طعم المرارة يغلف كل الحكايات، كان ملتصقاً في حلق كل مصري في ذلك الوقت. بالفعل، استطاع عبد الناصر إحكام سيطرته على المصريين، لكن الجبهة الخارجية كانت سبب سقطته، وهذه لا دخل لي بها يا صلاح، عليكم الاستماع لنصائح متخصص في الشأن الخارجي يا عزيزي.

لكن كل من حاولوا ذكر أسباب منطقية أو عقلانية لتلك المظاهرات باؤوا بالفشل، كل تحليل علمي كان يصطدم بحقائق أهمل صاحبه تحليلها، أحدث دراسة قرأتها لمؤرخ مصري معاصر، استنتجت أن المظاهرات التالية لخطاب التنحي ما هي إلا "غريزة سياسة جماعية اعتمدت على ثوابت تم ترسيخها قبل هذه اللحظة بكثير" وهو استنتاج مبني على دراسة عميقة لسنوات حكم عبد الناصر، استنتاج منطقي وجذاب، لكنه غير صحيح.

***

كان هيكل قد أعلن في أحد الأيام، أن خطاب تنحي عبد الناصر كان أكبر تحديات الكتابة التي واجهته، وأنه عمل

@3abeth

لعدة ساعات حتى وصل للصيغة النهائية التي قرأها عبد الناصر على الناس. والحقيقة أن الخطاب كان كاملاً، مثالياً، حتى أن الخطأ الوحيد في الخطاب كان خطأ عبد الناصر، حينما استبدل اسم زكريا محيي الدين باسم شمس بدران كخليفة له. فيما عدا ذلك، فالخطاب يثيرني في كل مرة أسمعه أو أقرؤه، وحتى الآن، تدمع عيناي من فرط الانفعال كلما حاولت تحليل خطاب التنحي.

استمر هيكل، ولسنوات طويلة في الكتابة، كتب كتبه كثيرة كتبها في عهد الرئيس مبارك، شرح وجهات نظره العديدة، وحكى تاريخاً خفياً لم نكن لنعلم عنه شيئاً، وحلل الكثير والكثير من الحوادث التي عاصرناها، وأنشأ مدرسة تاريخ سياسي جديدة في مصر والعالم العربي، كان هو العضو الوحيد فيها، فلم يشاركه أي شخص في تلك المدرسة، سواء بالتدريس أو التلمذة.

فاز هيكل بمحبة الأغلبية، وعاداه بعض الناس، وادعوا أنه يكتب تاريخاً خيالياً، تاريخاً سياسياً بديلاً، وأنه يذكر أحداثاً لا دليل على صحتها، وربما تجاوز بعض الناس فاتهمه بتلفيق أحداث بعينها. ثم انتقده آخرون حينما حلل الأحداث ليستنتج استنتاجات مخالفة للمتعارف عليه. لكن الجميع، محبيه وأعداءه، أجمعوا على أن كتابته ممتعة كل المتعة، ذات

@3abeth

لغة جذابة ورصينة، تجبر القارئ على التهام الكتاب، وعلى الاستمرار في قراءة هيكل إلى الأبد.

سحر؟ هل وضع هيكل تعويذات سحرية داخل كتبه ليجبر الناس على قراءتها؟

كيف استطاع أن يثير حماسة الملايين بكلمات بسيطة في خطاب التنحي، ثم بعد أشهر قليلة أقنع الملايين بالعودة إلى البيوت والجامعات وفض المظاهرات؟ بالطبع لم يكن غبياً ليكتب: عودوا إلى منازلكم، عودوا إلى أعمالكم. كان هيكل أذكى من ذلك كثيرا يا صلاحَ.

@3abeth

اخـــتلاق

وقت طويل مر بعد آخر صورة ابتاعها وهيب وهيب لطفله، سنوات كثيرة، نسي فيها تاريخ ولده المصطنع، نــسي الصور والشاهدات، والحياة الزائفة التي خلقها له، كان قد نسي أمجد أيضاً، واليوم آن الأوان لكي يتذكره. دخل وهيب وهيب مخزن أمجد القديم متوتراً، كان خائفاً من يقظة محتملة للجنون النائم، هذا المكان يذكره بجنونه، بماض كان قد نسيه بالتدريج، مرض شفي منه بلا إرادة أو رغبة. دخل وهيب وهيب ليتحدى الغول النائم بداخله. قلّب أوراقاً كثيرة، مرت عينه على الصور بلا هدف، بلا تأثير، سلباً أو إيجاباً، لم يكن ينوي شراء أي منها، ولما لفتت نظره بعض الصور، حدق فيها قليلاً ثم تجاوزها وأخذ يقلب ما تلاها. رويداً رويداً، تأكد وهيب وهيب أنه انتصر على مرضه إلى الأبد، راح الجنون بلا رجعة.

لكن العينين قامتا بأسره، أحكم الغضب الكامن بين العينين قبضته عليه، راعه خط الأنف الرفيع الحاد. وأجهز الحاجبان المعقودان بصرامة على وهيب وهيب تماماً، كانت تفاصيل الصورة من الدقة بحيث اختفى الفم والجبهة والأذنان ومقدمة الشعر، كل ما رآه عينين

@3abeth

وحاجبين، وجزء من أنف مستقيم حاد، رجل ناضج تماماً يستقر أمام عينيه الآن. ثم اكتملت ملامح الصورة ببطء أمام وهيب وهيب، صورة فوتوغرافية صغيرة هي أجمل ما رأى خلال سنوات تقليبه للصور. كانت هذه صورة ولده وهيب الحقيقية.

أدرك وهيب وهيب في تلك اللحظة، أن إيمانه لا يزال صلداً، وأن الغشاوة زالت عن عينه أخيراً، وأن أي كلام عن جنون أصابه أو شفي منه محض هراء، وأنه باق على العهد، لن يفرط فيه مهما عاش، وأن كل ما سبق لم يكن سوى فترة سبات، مجرد راحة من مهمة شاقة، وعليه أن يعود ليؤديها الآن.

روح ولده لا تزال في الجسد، حبيسة، تتقلب منتظرة يوم الخروج.

ببطء، ظهرت معالم وجه وهيب في الصورة، شعر طويل ثائر، وعينان غاضبتان، وفم مزموم في حزم، وأكثر ما أعجبه، ياقة قميص مرتفعة تحيط بالرقبة، وربطة عنق صغيرة جداً، كفراشة سوداء رشيقة تتوسط رقبة وهيب، مراهق مثالي.

صورة وهيب الجديدة كانت مثالية تماماً، صالحة لشهادة إنهاء الدراسة الثانوية، وصالحة أيضاً للتقدم للجامعة. وصالحة للحياة كلها، الحياة السابقة الطويلة، التي اختار لها وهيب وهيب فيها صور غير مترابطة، اختار أوراقاً عشوائية مزورة، لطالما ظن وهيب وهيب أن صور ولده الملصقة بأوراقه تمثل نقطة ضعف، دليلا على تزوير طال

@3abeth

الأوراق ولا مفر من كشفه.

اكتشف بعد بحث قصير صورة أخرى لوهيب، نفس العينين، نفس الملامح، لكن بشعر قصير مهذب، وعمر أصغر، ثم وجد أخرى في عمر أصغر، وأصغر. ثم صورة له في سن كبيرة، يقترب من الثلاثين، بالطبع، فوهيب الآن يسير في الحلقة الثانية. أخذ يبحث في المحل بحماس، وجد صورة عاشرة لوهيب مع دراجة، وصورة مع أصحاب وهيب في حديقة الحيوان، صورة خجولة مع فتاة رشيقة، خفق قلب وهيب وهيب، هذا حب وهيب الأول! الولد اختار وانتهى الأمر، لن يسأله رأيه، لن يكتشف وهيب وهيب حب الولد بالصدفة، لن يعنفه، وقع الولد في الفخ وكان ما كان! الفتاة يبدو عليها الحياء، لكن الشقاوة تطل من عينيها، خشي وهيب وهيب أن تكون الفتاة نصابة، من اللواتي يضحكن على الشبان المحترمين مثل وهيب، يجب أن يواجه وهيب بالصورة ويسأله عنها، لقد سمح للفتى بحرية لا حدود لها، واليوم قد تضره تلك الحرية، لكن لا بأس، الحرية أفضل كثيراً من قيود الجسد.

أراد أمجد أن يريح وهيب وهيب، طلب منه المساعدة في حمل صندوق خشبي ثقيل، رفعاه سوياً فوق كرسي، أخبره أن الصندوق يحوي حياة الرجل كاملة، كل شيء، كل ورقة رسمية، كل تذكرة قطار أو مترو أو سينما، كل فاتورة قام بتسديدها، كل صورة التقطت له أو التقطها بآلة التصوير الخاصة به، الخطابات واليوميات وأوراق الأسئلة الخاصة بامتحانات السنوات الدراسية. الرجل لم يكن ليرمي

@3abeth

ورقة واحدة، احتفظ بتاريخه كله، حتى أنه جمع الأوراق الملصقة على زجاجات البيرة التي شربها طوال حياته، أوراق تغليف الأيسكريم الذي لعقه حينما كان طفلاً. أوراق تغليف الهدايا التي تلقاها، كروت المعايدة، كل ورقة، كل شيء. ربما كان الرجل يعلم أن وهيب وهيب سيجد كل هذه الأوراق والصور.

خرج وهيب وهيب من مخزن أمجد حاملاً آلاف الأوراق، صندوق خشبي مملوء حتى الحافة. فورة من الحماس أصابته بارتعاشات عصبية، ظهرت في كلماته المقتضبة للتاكسي، طالباً منه العودة إلى دار وهيب للتجليد، مع أن الطريق قصير، من شارع شامبليون وحتى عبدالخالق ثروت، اعتاد وهيب وهيب أن يمشي المسافة بين دكانه ومخزن أمجد، لكن هذه المرة مختلفة، الغنيمة أثمن من أن يمشي وهو يحملها.

حالما دخل وضع الصندوق الخشبي تحت مكتبه، على يمين ساقيه، ثم جلس محدقاً في الصنايعية، محصياً بدقة الدقائق الباقية حتى انتهاء الوردية، ثلاث ساعات طويلة، ظل خلالها يرسم في عقله تخطيطاً كاملاً لكيفية فرز وتصنيف الصور والأوراق التي سيجدها في الصندوق.

ظل وهيب وهيب طوال الليل ساهراً يقرأ الأوراق، متأملاً الصور، وشهادات التخرج والخطابات. سحقته تماماً خطابات وهيب التي يعترف فيها بانتمائه إلى تنظيم شيوعي، لم يتخيل أن يكون ابنه عضواً في

@3abeth

الحزب الشيوعي المصري. خاف وهيب وهيب من أفكار ولده، كيف سيتمكن من إدارة دار التجليد، هل سيبيعها للعاملين بثمن بخس؟ تطبيقاً لأفكاره الاشتراكية!؟ تناسى مخاوفه تلك، وأيقن أن وهيب سيغير رأيه وقناعاته حينما يعلم أنه يملك داراً محترمة للتجليد، تدر ربحاً وتحمل اسماً عريقاً، سيحافظ عليها كرأسمالي صغير يهتم كثيراً بما يملك. سيهتم بالدار وينميها، وسيكون عادلاً، لن يظلم أحداً من العمال.

حزن عندما علم بأن السلطات تلاحق وهيباً، وهيب مستمر في الهروب من مكان لآخر طوال الأعوام الثلاثة الماضية، أمواله تقل بسرعة، يعمل أعمالاً مهينة، يتسول المال من أصدقائه، بعضهم ينفر منه خوفاً من الملاحقة الأمنية، وبعضهم الآخر يؤيه لأيام قليلة ثم يطرده بلطف. حزن وهيب وهيب كثيراً، خطابات ولده التي تستجدي المال محزنة ومثيرة للشفقة، لابد أن وهيب اليوم يعيش عالة على أحد أصدقائه، أو يعيش على أموال جاءته من روسيا أو من أي دولة شيوعية، يتسول مستخدماً أفكاره، يبتز بها صانعيها. أدرك وهيب وهيب أن عليه أن يعيد الولد إلى صوابه، عليه أن يمسح الاسم الغريب الشاذ المدون في تلك الأوراق، عليه أن يعيد لوهيب اسمه الحقيقي، وهيب وهيب وهيب، عليه أن يغير مسار حياته وأن يعيده لحياته الحقيقية، ابن لصاحب دار وهيب للتجليد.

خلال السنوات السابقة -وحتى يوم استلامه الصندوق من أمجد- كان وهيب وهيب قد أقام تاريخاً مثالياً لولده، مسلحاً بشهادات دراسية وصور عديدة في مراحل سنية مختلفة، تاريخ زائف لكنه مثالي

@3abeth

وكامل، تاريخ آخر موازي لتاريخ وهيب المبعثر أمامه الآن على الأرض. كان أمام وهيب وهيب تاريخان لولده، واحد اختلقه خلال سنوات طويلة، يحمل اسمه ولده، لكنه يحمل صوراً عديدة لأشخاص مختلفين. وتاريخ آخر، فيه نجاحات ونشاطات فنية ورياضية وسياسية، وجوائز وهدايا، وأفكار تحررية، وصور لوهيب مسلسلة بحسب الزمن، لكن ما يعيب هذا التاريخ، أنه يحمل أقساماً أخرى لا يريد وهيب وهيب أن يطلع عليها أحد؛ التورط في مخالفة القانون، الملاحقة الأمنية، الأفكار المتطرفة، وأخيراً، وهو الأهم، الاسم الشاذ الغريب.

في ذلك اليوم، في دار التجليد، وبين أوراق عديدة تناثرت على طاولات العمل وعلى الأرض. قرر وهيب وهيب أن يدمج ويقوّم تاريخي ولده.

بحرص، قام بنزع صور وهيب الواحدة تلو الأخرى، سلخها عن الأوراق التي تحمل اسماً غريباً مبهماً، كما أزال الصور الكاذبة عن تاريخه الخاص، التاريخ الذي جمعه طوال السنوات الماضية، ثم أعاد لصق صور وهيب على الشهادات الدراسية والأوراق، الواحدة تلو الأخرى، مزّق الصور القديمة المختلطة، جمع صور وهيب حسب تسلسلها الزمني، مميزاً ذلك التسلسل بملامح وجه وهيب، أو بالتواريخ المسجلة على ظهر كل صورة. كتب تاريخاً مختلقاً على ظهر الصور الكبيرة، وهيب وأصدقاؤه، وهيب وحبيبته، وهيب في القناطر، وهيب مع الرفاق، وهيب هارباً من البوليس، وهيب الشيوعي، وهيب يصلي، وهيب يكتب، وهيب يكتب لأول مرة، وهيب يكتب

@3abeth

شعراً، وهيب يقفز في الهواء، وهيب يمسك بأول سيجارة، وهيب يلبس بنطلون رجل الفيل، وهيب يلمع حذاءه...

كان يصحح مسار كل شيء، يعيد كتابة تاريخ ولده، وينسف تماماً تاريخيه الآخرين المزعومين، واحد موسوم باسم شاذ لا يمت لوهيب بصلة، وآخر موسوم بصور متناقضة مختلفة، لا علاقة لها بوهيب.

قبل منتصف الليل بقليل، استقرت كومة ضخمة من الأوراق الممزقة أمام وهيب وهيب، واستقر ملف منسق منمق من أوراق أعاد وهيب وهيب اختلاقها، كان هذا أرشيف ولده الحقيقي.

@3abeth

عزيزي صلاح،

كان عبد الناصر قد اتفق مع محمود يونس وعبد الحميد أبو بكر على تنفيذ عملية تأميم قناة السويس، طلب منهما الاستماع لخطبته، الخطبة التي اشتهرت بعد ذلك بخطبة تأميم القناة، كان قد اتفق معهما، أن يقوما بمساعدة معاونيهما، بالسيطرة على مكاتب شركة قناة السويس، على أن يبدأوا خطوات التأميم فور سماعهم إياه ينطق اسم ديليسبس أثناء الخطبة. "ديليسبس" كانت كلمة السر، كانت المحفز الذي حرك رجال عبد الناصر.

لكنها كانت كلمة سر معلنة، أعلنها عبد الناصر لهم قبل الخطبة، وعى معاونو عبد الناصر أن هذه الكلمة هي محفزهم، وانتظروها حتى خرجت من فمه ليتحركوا، كل هذا تم بطريقة مسرحية، لتتزامن السيطرة على مكاتب القناة مع إعلانه تأميمها، ربما خاف عبد الناصر من تحرك سريع للضباط الإنجليز العاملين بالقناة، ربما أراد أن يعطي الأمر لمحة درامية، في النهاية نجحت الخطة تماماً، لكن كل هذا كان متفقاً عليه.

قد يمكن التأثير على الجماهير بطريقة مشابهة، كأن يذكر عبد الناصر كلمة سر لتحرك جماهير غفيرة، مئات الألوف، لكن بدون اتفاق مسبق بينه وبينهم، أقصد، بدون وعي

@3abeth

منهم. كلمة محفزة للناس، تثير الرغبة في التظاهر أو الحركة، أو ربما، مثبطة للهمم، تجعلهم يتركون الشوارع التي يتظاهرون فيها ليعودوا إلى منازلهم، هذا ما أسميه "السيطرة". لكن عبد الناصر احتاج لعبقري ليلعب هذه اللعبة، كما ذكرت، احتاج لهيكل.

بالطبع سمعت عن كيف يمكنك أن تتحكم في عقل "أحدهم". كيف يمكن أن "تسيطر" عليه. عليك أولاً أن "تعتقله"، عليك أن تصادر حريته، ولا يعني هذا إلقاءه في السجن فقط، أو وراء الشمس، بل هناك طرق أخرى أكثر فعالية، الاعتقال قد يتم والواحد جالس في بيته، قد تعتقله بالخوف، بالإعلام الموجه، بعشرات الطرق التي حدثتك عنها من قبل. ثم عليك أن تقصفه بمعلومات تافهة لا نهاية لها، عليك أن تلهيه عن المشاكل الحقيقية المحدقة به، بمشاكل أخرى وهمية لا وجود لها. في هذه الأثناء، ستستطيع أن تغير معتقده وإيمانه، ستتمكن من تبديل آرائه وأقواله. كل ما عليك هو تكرار ما تريده من أفكار أمامه، ومع مرور الوقت سيستجيب، سيستسلم لك ولأفكارك تماماً، هي طريقة همجية بعض الشيء، لكن لا غنى عنها في بعض الأحوال، صعبة التطبيق ومكلفة جداً، لدرجة أنك ستتساءل دائماً عن جدوى عمل مكلف كهذا. كل ما سبق تعرفه جيداً يا

@3abeth

صلاح، وتطبقونه منذ الستينات، لكن هيكل فعل شيئاً آخر أكثر تعقيداً.

هيكل تجاوز كل هذا، ما ذكرته لك للتو يُسمى "غسيلاً للدماغ" وهو كما تعلم عمل مرهق للغاية، ولا حدود لتكلفته إذا ما طبقته بشكل فردي، وبالتالي يجب عليك رصد ميزانية مفتوحة لغسل أدمغة الملايين، فرداً فرداً. وفوق هذا فالغسيل سيستغرق زمناً لا يمكن تحديده لفرط طوله. هذا خيال علمي يا صلاح، لن يمكنك أبداً غسل أدمغة الشعب بالكامل، فرداً فرداً. كل ما يمكنك عمله هو غسيل أدمغة مجموعة من الأفراد، أما الغسيل الجماعي فهو غير مضمون النتائج، ولا يمكنك قياس مدى تأثيره، ولا يمكنك اختبار الشعب، هل تأثروا بالغسيل أم لا. هذا ما نمارسه أنا وأنت منذ سنوات، غسيل مخ جماعي للمصريين، بطيئاً للغاية، معقد، يتشر في كل المستويات، لكن يجب أن أصارحك، لن يفيدنا هذا الغسيل في أحوال كثيرة يا صلاح، لست متأكداً من شدة تأثيره على الناس من الأصل.

لكن هيكل اختصر كل هذا، وبدلاً من أن يتحكم في عقل "أحدهم"، وبدلاً من أن يقيم خطة طويلة معقدة لغسل دماغ الناس والسيطرة عليهم، قام بالتحكم في عقل الشعب المصري بأكمله، وبمجرد تراكيب لغوية وكلمات قليلة، تضمنتها مقالاته وخطب عبد الناصر.

@3abeth

حتى الآن لا أعرف كيف توصل هيكل للتحكم في عقول الملايين مجتمعين، ربما قام بدراسة طويلة لعقلية المصريين، ربما استخدم كنز الوثائق الذي حصل عليه، واستطاع من خلاله فهم العقلية المصرية. لكن هذه خطوة صغيرة لإحكام السيطرة على العقول، هناك خطوات أخرى عديدة تالية لتلك الخطوة، مشى هيكل كل هذه الخطوات، وتوصل في النهاية إلى تحكم كامل في عقول المصريين، لكني لا أفهم كيف تمكن هيكل- بالضبط - من تحقيق ذلك في النهاية.

الأكيد، أن هيكل استخدم منبريه الأشهرين - مقالات الأهرام وخطب عبد الناصر التي كان يكتبها - ليقود المصريين ويوجههم في حوادث كثيرة، أشهرها - كما ذكرت - التنحي، ومحاكمة قادة الطيران.

كل ما سأحكيه الآن يا صلاح مجرد فرضية، لا أملك دليلاً على صحتها. سأفترض أن عمل هيكل ينقسم إلى قسمين، أولاً: استطاع هيكل تحفيز الملايين عن طريق محفز موجود في مقاله الخاص بمحاكمة قادة الطيران، والخطبة التي كتبها ليقرأها عبد الناصر. ثانياً: بعد تحفيز الملايين طلب منهم هيكل طلباً خاصاً، أن يتظاهروا معارضين لعبد الناصر بعد إعلانه التنحي، وأن يعودوا إلى بيوتهم بعد أن تظاهروا اعتراضاً على أحكام المحكمة الهينة. الجزء الثاني- الطلب

@3abeth

الخاص- سهل للغاية، فإذا راجعت خطبة التنحي، ومقاله المنشور في الأهرام في الأول من مارس عام ١٩٦٨ ، لوجدت أن الرجل يطلب كلا الطلبين بشكل خفيّ، لكن الجزء الأول هو العمل الأكثر إبداعاً، عليك أن تبحث كثيراً عن المحفز حتى تكتشفه. المحفز الذي سيغيّب عقل كل من يسمعه أو يقرأه، ويجعله مستعداً لتلقي الطلب الخاص، وجاهزاً لتنفيذه فوراً. بالتأكيد لن يمكنك اكتشاف المحفز بمجرد قراءة نصي الخطبة والمقال، الأمر أكثر عمقاً، ولا يمكن استنتاجه بعد قراءة واحدة.

حاولت طوال السنوات السابقة أن أعرف أكثر عن الرجل، قرأت كل ما كتب في تلك المرحلة، تلك التي أعتبرها المرحلة الذهبية لهيكل، وحاولت بقدر المستطاع تحليل المقالات والخطب؛ حاولت فصل وحذف كل ما ليس له صلة بالنص، بحثت عن المحفز، لكن بلا فائدة. ثم عدت وقرأت النصوص كما نشرت بلا حذف، فقد أدركت أن الجزء المحذوف قد يحوي المحفز الذي أبحث عنه، في النهاية قد تكون كلمة بسيطة للغاية هي المحفز. ثم حصلت على نسخ من الجرائد، وكنت حريصاً على قراءتها كما قرأها المصريون أول مرة، ربما كان في طريقة الطباعة والخط والورق ما يوحي بالمحفز، واستمعت إلى تسجيلات لخطب عبد الناصر، ربما كان في نبرات الرجل ما يحفز الناس.

@3abeth

ثم افترضت أن المحفز مجموعة من الأفكار المتالية، ما أن يقرؤها القارئ حتى ينفصل عن الواقع، ويصبح مستعداً لسماع الأمر التالي، ولما لم أجد ما يمكن اعتباره أفكاراً متتالية في أي من الخطب أو المقالات، افترضت أن المحفز هو مجموعة من الكلمات، أو أن المحفز كلمة واحدة، يذكرها هيكل عرضاً لتكون الزناد الذي يحرك الناس.

يتفوق هيكل على طرق غسيل الدماغ التقليدية، فهو يقوم بتحريك الملايين، بدون تكاليف على الإطلاق، هذا فعل يقوم به هيكل وحده، بدون مساعدة جيش من المعاونين كما قد يحدث عند غسيل الدماغ. الأكثر روعة أني أظن أن هيكل تفوق على غاسلي الدماغ، ربما لم يغسل هيكل أية أدمغة، من المستحيل أن يقوم فرد بغسيل أدمغة الملايين، ذوي الأفكار والمعتقدات المختلفة، وخلفيات التعليم المتباينة، والطموحات المتفاوتة، والأعمار المتعددة. هيكل تحكم بالناس جميعاً، بدون أن يغسل دماغ أي منهم، وحتى اليوم، لم أعرف كيف قام بذلك.

لا زلت أعيد قراءة كل ما كتب هيكل، بالإضافة إلى ذلك، أحلل تصرفات المصريين في وقتنا هذا. أقرأ كل أخبار الحوادث، هذه ستبين لك مدى ميل الناس للعنف، كل أخبار النميمة في الصحف الصفراء، هذه ستوضح لك مدى ميل الناس للقذارة الاجتماعية، كل ما يمكن قراءته من مدونات

@3abeth

على إنترنت، وهذه منجم ذهب لكل باحث عن حياة الجيل الجديد من المصريين. أقرأ كل ما يمكنني الحصول عليه من تحقيقات اجتماعية منشورة في الصحف، أقرأ كل دراسة اجتماعية أو نفسية كُتبت عن المصريين في زمننا هذا.

أركب المواصلات العامة، وأبدأ الناس بحديث أحاول التعرف من خلاله على آرائهم فيما يتعلق بما يحدث حولهم، هؤلاء الناس هم الذين قد يتحركون يوماً إذا قرأوا مقالاً ذي محفز في الجريدة. أو استمعوا إلى خطبة ذات محفز لمبارك.

استنتجت الكثير، وفهمت الكثير عن المصريين خلال السنوات السابقة، وهو أمر لن يكتسبه أي واحد إلا بالنزول إلى الشارع والالتحام بالناس، بالقراءة المستفيضة لكل ما يكتب عنهم، وبالطبع كل ما يكتبونه، المدخل الأساسي للتحكم بأحدهم هو التعرف عليه.

لكني لا زلت حائراً فيما يتعلق بهيكل، كل ما حدثتك عنه مجرد نظرية نصف متماسكة، لكنها تفتقر إلى أي إثبات علمي، لم أميز أي محفزات في مقالات الرجل بعد كل تلك القراءات، لم أجد جملة محفزة، أو مجموعة من الكلمات قد تحفز الناس وتحولهم إلى متظاهرين عنيفين بلا وعى لمدة مؤقتة. لكني لن أستسلم، سأتابع البحث.

@3abeth

مجمّع

يصل نعيم إلى شارع عائشة التيمورية بجاردن سيتي، يمشي ناظراً إلى مداخل المباني، باحثاً عن الأرقام المعلقة على الجانب، يرى بعد عدة أمتار على يمينه قسم قصر النيل، فينظر إلى الجهة المقابلة، ليجد فوراً المبنى رقم ٦، يلاحظ اللافتة الضخمة المعلقة فوق المبنى تحمل اسم الهيئة: هيئة المعضلات والعراقيل والخوابير والغراء.

يدخل نعيم وجلاً، يريد أن ينهي الأمر ويعود إلى بيته، لكن عليه الآن أن يحصر تفكيره في شهادة الوفاة الوردية، عليه أن ينسى العودة للبيت، عليه أن يرتب أفكاره حتى يحصل على الشهادة. يقطع تفكيره صوت رنان، يسأله عما يريد، يبحث نعيم عن صاحب الصوت، عن مصدر الصوت، يدور حول نفسه مدققاً النظر، ولا يجد في النهاية أي شيء، ينادي الصوت مرة أخرى، هذه المرة أكثر ارتفاعاً وأكثر وضوحاً، ينتبه نعيم للصوت الآتي من فوق رأسه. على يسار المدخل مكتب ضخم، بالغ الضخامة، يكاد أن يتحول إلى منصة عالية، لا يرى نعيم الجالس عليها، لكنه الآن متأكد أن الصوت آت من الأعلى، صوت الرجل الجالس على المنصة العالية، شدة المفاجأة جعلت

@3abeth

نعيم يصرخ بالنعيمية هاتفاً باسم الاستاذ محمد عمر، ثم يصرخ بكلمات أخرى تشير إلى طلبه، يتراجع نعيم عن إكمال الكلمات الأخيرة، خوفاً من كلمة سيئة أو سبة قد تفلت من فمه وتفسد المهمة بأكملها، يرفع يده بالورقة التي تحمل اسم محمد عمر، يريد أن يعطيها للجالس عالياً على المنصة، الغامض المختفي من فرط ارتفاعه، لكن ارتفاع المنصة حال دون وصول يده إلى حافتها، يدور نعيم حول المنصة، عله يصل إلى الرجل الجالس على كرسي خلف المنصة، لكنه يفاجأ بالمنصة بيضاوية الشكل، بلا أثر للجالس عليها أو لكرسيه، يتعالى صوت الرجل مرة أخرى بحزم هذه المرة، يسأل نعيم عما يريد، يبحث نعيم حوله عن كرسي أو سلم ليصعد للرجل ويناوله الورقة، لكن فراغ المكان حوله جعله ينسى الفكرة تماماً.

أخيراً، يجلس نعيم على الأرض، يطوي الورقة عدة طيات، طية تنصف الورقة طولياً، وطيات أخرى مائلة بزاويا حادة على محور الورقة الطولي، كلها طيات متناظرة على جانبي المحور، لما انتهى، كانت الورقة قد كونت طائرة ورقية ذات جناحين عريضين، يمسك بها نعيم ويقذفها في الهواء باتجاه حافة المنصة، لتسقط فوق المنصة، يسمع نعيم صوت يدي الرجل وهما تفضان الورقة، ثم بعد ثوان قليلة، صوته وهو يدله على مكتب محمد عمر.

في داخل الحجرة، لم يكن هناك أي شيء مميز، مكتب معدني وحيد، وكرسيان خشبيان مواجهان للمكتب، وموظف طاعن في السن جالس على كرسي يتوسط المكتب، رأسه منحني على صدره، شعر

@3abeth

لحيته خفيف متناثر، يلبس بدلة كاملة، ويغطي رأسه بطاقية كطاقية سوهارتو، على المكتب تتكوم أمامه كومتان صغيرتان من الأوراق.

بحسب كلام وهيب، سيحتفل الأستاذ محمد عمر بعيد ميلاده الخامس والأربعين بعد المائة هذا العام، هو أكبر المعمرين في العالم، قال وهيب: دعك من الصيني والسوداني، محمد عمر أكبر، لكن الرجل لا يحب الأضواء والإعلام، فقط، يحب العمل.

مكتب محمد عمر معروف على مستوى شمال إفريقيا، محمد عمر أحد أعضاء اللجنة التي وضعت قواعد البيروقراطية التونسية والمغربية والجزائرية، وهو ابن وفيّ وبار للبيروقراطية المصرية، لذلك يعود الكثيرون إليه، لإيجاد حلول لمشاكلهم، محاولين استخراج الأوراق والشهادات الخاصة بهم، كلهم كنعيم بالضبط، يأتون لمحمد عمر ليستخرج العصيّ من الأوراق.

يضع نعيم خطاب التوصية الذي كتبه وهيب على المكتب، يتناوله محمد عمر باهتمام، ويبدأ في قراءته في صمت، يقرؤه مرتين متتاليتين، وهو يلوك فراغ فمه، ليبتسم في النهاية كاشفاً عن لثتين خاليتين تماماً من الأسنان، يسأل نعيم بصوت رفيع مبحوح عن وهيب وأحواله.

يقول محمد عمر إنه يتذكر وهيب جيداً، أتاه منذ سنوات طويلة طالباً نفس طلب نعيم، يومها ساعده وهو لا يصدق أن مواطناً يعلم أن تلك الشهادة موجودة من الأصل.

@3abeth

استراح نعيم كثيراً. ابتسامة الرجل الودودة تؤكد أن كل شيء على ما يرام، وأنه سيعود خلال أيام إلى بيته وهو يحمل شهادة الوفاة الوردية.

يمر الوقت ببطء، يتحاوران باستمتاع، يسأل محمد عمر سؤالاً، ليجيب نعيم بالكتابة في دفتره، بدا أن محمد عمر مطمئن تماماً، مما زاد من اطمئنان نعيم.

الأستاذ محمد عمر رجل مهم، لا يتعامل إلا مع المشاكل المستعصية، ودائماً ما يجد لها حلولاً عبقرية، كل مشكلة صنعها بشر لها حل صنعه محمد عمر. ربما أتى أحدهم طالبا منه تسهيل استخراج رخصة قيادة أو تجديد إقامة، عندها يغضب ويزعق في الرجل "هل تراني أبيع الطرشي؟ أنا موظف محترم!" قد يساعد محمد عمر أحدهم إذا صدر قرار إزالة لبيته، يدله على الطريقة المُثلى لإلغاء قرار الإزالة، تكون الطريقة في العادة سهلة للغاية، تجميع أوراق لا أكثر، ورقة من هنا وورقة من هناك، ويكتمل الملف. يشير عليه بالذهاب إلى الهيئة الفلانية، أو تلك الإدارة داخل هذه الوزارة، يجمع توقيعات، يختم ختم الصادر، ختم الوارد، ختم النسر. يسميهم "الثالوث المقدس"، يشير إلى ختم النسر بـ "هو"، يعتبره كائناً حياً، ربما يعتبره إنساناً عاقلاً؛ ختم النسر ليس جماداً، ختم النسر كائن حي عاقل له مسؤوليته المحدودة وشكله المميز وسلطاته غير المقيدة بأي قوانين.

يتحرك الأستاذ محمد عمر قليلاً، يتململ في مقعده. يمسك ذقنه بيده ويفكر بعمق، يحدق بالحائط أمامه ويفكر، يتأهب للعمل،

@3abeth

لإيجاد حل لمشكلة نعيم، يتغير حال نعيم فوراً، هذا البطء يدل على مشاكل جمة، بعدما ظن أن كل المشاكل قد حلت على يدي محمد عمر، هناك أوراق ناقصة! ألم يقل العجوز إن وهيب استخرج شهادة مماثلة منذ مدة؟ يا أخي اعتقني! يمسك الأستاذ محمد عمر بالملف الضخم الذي يحوي أوراق نعيم، يتفحص الأوراق ويقرؤها، بعض الأوراق يقرؤها بسرعة، يقرأ العنوان ويهمل المتن ثم يطَّلع بسرعة على التوقيعات والأختام أسفل الصفحة، المتن لا لزوم له في أحيان كثيرة، العنوان يدل القاريء على ماهية الورقة، والتوقيعات والأختام تدله على مدى المجهود المبذول في استخراجها. يقرأ محمد عمر بعض الأوراق الأخرى بعناية شديدة، يعيد القراءة مرة بعد مرة، يجلس نعيم صامتاً متوتراً، ثم يستسلم للملل، وتطفو الذكرى مرة أخرى على يمينه، بحنو بالغ، يلحظها نعيم بطرف عينه، وينشغل عن محمد عمر بها، للمرة الألف، يحاول نعيم أن يتذكر كيف رآها أول مرة، أين رآها، ما هي أصلاً؟ لكنها تبقى عصية بعيدة، تظل تطفو كجزء من قشرة بيضة، يلاحظ نعيم للمرة الألف تقعرها الخفيف، ولا يميز لها شكلاً أو هيئة محددة، يستغرق نعيم تماماً في تأمل الذكرى، ويستمر محمد عمر في القراءة لثلاث ساعات متواصلة.

بهدوء وبصوت ثابت يسأل "بطاقتك؟" فوراً، يخرج نعيم البطاقة البلاستيكية من حافظته. يقدمها بلا تأخير، أي مسلسل أسئلة في مكان ترتفع على حوائطه صورة الرئيس مبارك سيبدأ بالسؤال الأزلي "بطاقتك؟"

@3abeth

يتأملها قليلاً، يعبث بها، ثم يقوم الأستاذ محمد عمر من مكانه، يخاطب محمد عمر نعيم بثقة "تعالَ معي" يتنفس نعيم الصعداء. يا ألطاف الله، ورحمة ربك وسعت كل شيء حتى الحكومة. يبدو أن محمد عمر أراد أن يداعب نعيم، حينما أوحى له بمظهره الجاد أن مشكلته قد تحتاج إلى وقت طويل. هاهو يقوم ويتحرك، الله أكبر، الرجل يستطيع المشي، هذه معجزة! يمشي محمد عمر بتؤدة، هادئ الملامح، يرى أن نعيم رجل ميت ويجب على الجميع إراحته من التعب واللف والدوارن، يعلم محمد عمر أن ساعته قد دنت كثيراً، لذلك يتحرك اليوم ليساعد ميتاً على استخراج شهادة وفاته، عله يجد من يعينه على ذلك عندما يموت. يمشي محمد عمر نحو باب صغير في جدار حجرة المكتب وهو يتمنى من الله أن يجعل هذه الخدمة في ميزان حسناته. أولاد نعيم يتامى وهو يؤدي خدمة لهم. يعلم الله أنه لا يهتم بأمر نعيم الواقف أمامه على الإطلاق، بل يفعل ذلك من أجل أولاده اليتامى. محمد عمر رجل نبيل بحق.

يقول له "تعال معي" يفتح محمد عمر باباً صغيراً، يفضي إلى فراغ مظلم. ثم يشعل النور. يلاحظ نعيم جزءاً من الأرفف الحديدية على جانبي الممر، ممر قصير يفضي إلى سلم طويل، تنخفض أمامه درجات عديدة، ولا يرى نعيم آخرها. على الجانب الأيمن من الممر القصير، سطح مائل موازٍ للسلم، يهبط معه وكأنه مخصص لإنزال عربة أو سيارة صغيرة. يلاحظ نعيم على جانبي السلم أرففاً معدنية عديدة، بينما يظهر الفراغ فوق السلم ضخماً بالغ الارتفاع، لا سقف

@3abeth

له. هناك في نهاية الفراغ، أو ما يظنه الواحد النهاية، عندما يفقد البصر حدته، يرى نعيم التقاء الخطوط المحددة للأرفف على الجانبين، تلتقي الخطوط في نقطة واحدة، تختفي المسافة بين جانبي الفراغ في خداع بصري شهير.

يخرج محمد عمر من تحت الرف السفلي فيسبا بيضاء متربة، يمسحها بقطعة قماش قديمة، يمسحها بحرص ليزيل كل ذرة تراب تكسوها، يركب محمد عمر على الفيسبا، ويضغط على البدال ضغطة قوية، ليدور المحرك بعد الضغطة الأولى، يقول جملته الوحيدة لنعيم "تعال معي" يركب نعيم خلفه على الفيسبا، وينطلق محمد عمر إلى الأمام بسرعة بالغة، يرتعب نعيم محاولاً حفظ توازنه فوق مقعد الفيسبا المتسارعة بلا حدود، تنحدر الفيسبا مع انحدار السطح المائل، يزداد تسارعها بفعل الجاذبية، وبفعل ضغط محمد عمر المستمر على المقود، يرتعب نعيم من زيادة السرعة، ويوشك على الصراخ طالباً من محمد عمر التوقف، جن محمد عمر، لكنه يصل إلى آخر المنحدر، وتستوي الأرض تحت عجلتي الفيسبا، ويستمر محمد عمر، لكن بسرعة أقل.

ينحرف محمد عمر في ممر نحو اليمين، ثم ممر آخر نحو اليمين. وممر ثالث إلى اليسار. ثم يصل إلى شارع بالغ الاتساع، لا يلحظ نعيم خدوده أو ما يطل على جانبيه، ظلام دامس يغطي معظم الشارع الضخم، وضوء خفيف ينتشر هنا وهناك، يشعر نعيم بالهواء البارد يندفع على جانبيه، تتسارع الفيسبا مرة أخرى، تجري فوق أسفلت الشارع الخالي تماماً، فراغ تام. حتى تصل الفيسبا إلى ميدان ضخم،

@3abeth

يظهر في منتصفه تمثال هائل الحجم للكاتب المصري. يطل على الميدان بجلال ورهبة بالغين، يتوقف محمد عمر أمام التمثال، ليشعر نعيم فوراً بوطأة التمثال على صدره، يرفع محمد عمر يمناه محيياً التمثال تحية إجلال وإكبار. يعود بعدها إلى طريق مستقيم يستمر بعد ميدان الكاتب المصري، يسير فيه لعدة دقائق، ثم يدخل في شارع جانبي مستقيم، يتفرع إلى عدة شوارع منحنية، يدرك نعيم بعد دقائق من الدوران في منحنيات واسعة، أن تلك الشوارع تشبه شوارع جاردن سيتي التي تعلوها الآن، هذه مرآة جاردن سيتي ما تحت الأرضية.

في النهاية، يستقر محمد عمر بجانب مبنى بالغ الضخامة، لا يظهر بالكامل من فرط الضخامة، تختفي قمته في الظلام، كل ما يلاحظه نعيم من المبنى، نوافذ كثيرة صغيرة مستطيلة في طابقيه الأول والثاني، حيث الإضاءة كاشفة، يلاحظ أيضاً لون المبنى الرمادي الكئيب، وانحناءة بالغة الضخامة في واجهة المبنى، الواجهة كلها محدبة حول محور رأسي وهمي خلف المبنى، تبرز كأنها كرش ضخم لرجل راقد على جنبه. يترجل محمد عمر ويقول لنعيم "تعال معي"، يدخلان معاً إلى المبنى. وعلى الرغم من خلو الشارع من أي انسان، وخلو الساحة والرصيف المجاور للمبنى من أي مخلوق، إلا أن المبنى كان يغص بالبشر، زحام كزحام يوم الحشر.

يسيران سوياً، يسير محمد عمر بخطوات حثيثة، يتبعه نعيم عن قرب حتى لا يضيع في زحام البشر، يتجاوزان ممرات وغرف ومكاتب وموظفين وعملاء، ونسوة تقشرن خضراوات ورجال يبيعون صحفاً

@3abeth

وكتباً قديمة، وآخرين يلمعون أحذية، ومجموعة تبيع عقارب وثعابين صغيرة، وامرأة تبيع شاياً وينسون، ومجموعة من الصينيين يعرضون كمية ضخمة من البضاعة المتنوعة على الأرض.

يصل محمد عمر إلى الغرفة المطلوبة أخيراً، يفتح حجرة أرشيف الحلول بمفتاح أخرجه من جيبه، يتجه فوراً إلى الخزانة الحديدية في جانب الحجرة، يفتحها ويقلب بين أكوام كثيرة من الأوراق الملونة، أوراق صغيرة وكبيرة، مجلدات ودفاتر، ثم يختار من بين كل الأوراق عدة نسخ من نموذج موحد، يختار نسخة منها، ويسلمها لنعيم، ورقة بقطع كبير، وردية اللون، تحمل عنوان

@3abeth

شهادة وفاة موثقة بصورة شخصية للمتوفى

"هذا نموذج شهادة وفاة موثقة بصورة شخصية للمتوفى، هذه شهادة تم إصدارها في عهد محمد أنور السادات، ولا يعلم الكثيرون ما الحادثة التي دفعت الحكومة لإصدارها، لكني سأخبرك بها. على كل حال، هذه شهادة غير معروفة اليوم، لن يطلبها أي موظف حكومي، ربما لأنه في الأغلب لم يعلم بوجودها أصلاً، مع ذلك هي صحيحة إن صدرت وختمت به. النماذج الموضوعة الآن في هذه الخزانة هي الوحيدة الباقية في جمهورية مصر العربية، بل هي الوحيدة الباقية في العالم، فلا توجد حكومة في العالم تعترف بشهادة وفاة مشابهة غير الحكومة المصرية.

في السبعينات، وقت إصدار الشهادة، كان يجب على المحكوم عليهم بالإعدام خارج القطر استخراجها من مقار سفارات مصر في الدول المنفذة لحكم الإعدام، أو من مقر أقرب سفارة مصرية من محل الإعدام، يجب أن يستخرج المحكوم عليه تلك الشهادة، ويجب إرفاق الشهادة بجثمانه أثناء دخول الجثمان إلى مصر، وإلا سيرفض دخول الجثمان من الأصل.

@3abeth

ولا يُلزم المتوفى وفاة طبيعية أو نتيجة مرض أو حادث أو تعذيب جسماني أو نفسي أو غيرها من طرق الوفاة الألف بإصدار مثل هذه الشهادة، بل يُلزم بإصدارها المزمع تنفيذ حكم الإعدام فيه فقط. وذلك لأن الجثمان في هذه الحالة يخرج من تحت حيازة الشخص المُعدَم ويقع تحت حيازة السلطة المُعدِمة. والسلطة المعدمة - الأجنبية في هذه الحالة - لا تملك امتياز استخراج شهادة وفاة عادية، وذلك لأنها السبب الرئيسي والمباشر في الوفاة. هذا مع كون الوفاة غير جنائية ومبنية على حكم قضائي معروف عنه تحري العدل والدقة ولا يقبل العوار أو الطعن أو الاستئناف ومر بدرجات التقاضي الثلاث وتم تثبيته، فيلزم لكل ما سبق إصدار شهادة وفاة موثقة بصورة شخصية للمتوفى، وذلك لمطابقة الصورة المرفقة بالشهادة بوجه جثة المتوفى حال مثوله بمكتب الجمارك داخل القطر المصري"

يعود محمد عمر إلى الخارج، ونعيم يسير خلفه كالنائم المخدر. يذوبان في زحام الناس، يشعر نعيم بالألفة أخيراً، رائحة العرق ودخان السجائر وزفير مرضى الأنفلونزا، روائح تعود به إلى أرض الواقع مرة أخرى، يخرج محمد عمر بخطواته البطيئة خارج المبنى، يبحث نعيم عن الفيسبا، ويلحظ محمد عمر ذلك، يخبره ضاحكاً أنهما خرجا من المخرج الآخر، ولا قلق على الفيسبا، يضرب نور الشمس أخيراً عينيّ نعيم، بعد ظلام ليليّ انتشر أثناء تجول نعيم بالفيسبا. يتذكر نعيم الظلام، ويتعجب من نور الشمس المنتشر، هما إذن فوق الأرض.

يخطو محمد عمر خطوات كثيرة في زحام الناس على الرصيف، حتى يصل إلى الأسفلت، فيشير إلى تاكسي، يركبانه معاً.

@3abeth

يدور التاكسي في ميدان التحرير دورة شبه كاملة، ثم يمرق من جولر جامع عمر مكرم، سائراً في طريق كورنيش النيل، متجهاً إلى جاردن سيتي مرة أخرى.

على مكتبه البسيط، يملأ محمد عمر الاستمارة، يكتب مستخدماً الخط الحكومي المصري، خطاً ذي منحنيات كثيرة، بلا زوايا حادة على الإطلاق، منحنياته الكثيرة ضخمة للغاية، تملأ الفراغات المخصصة للكتابة، يطلب توقيع نعيم في المكان المخصص أسفل الشهادة، يوقع هو بعده، ويخرج عدة أختام يختم بها ذيل الشهادة، ثم يتجه نحو خزانة خشبية في مكتبه، يفتحها ليظهر بداخلها هيكل ضخم لجهاز معدني، رمادي اللون، ذي زوايا مستديرة ناعمة، توحي بالصلابة والقوة. يحوي أزراراً عديدة في مقدمته، يضغط محمد عمر على أحد الأزرار، وينتظر ريثما يضيء نور أحمر صغير، فيدخل الشهادة في شق رفيع في مقدمة الجهاز المعدني، وينتظر ثواني قليلة، يهتز الجهاز هزات رتيبة، يصدر أصواتاً معدنية حادة، تصادم معادن وتخبط سلاسل وتآكل تروس، ثم يتوقف كل شيء، وتخرج الشهادة بعد كل تلك الضوضاء مغلفة بطبقة بلاستيكية رقيقة، يعود محمد عمر إلى المكتب، مناولاً نعيم الشهادة.

"ما تراه أمامك في الجزء الأسفل من الشهادة ختم مميز، هو ختم النسر الحراري، الذي إذا وضع على ورقة أحالها إلى ورقة صحيحة لا يمكن الجدال في صحتها؛ يمكنك أن تأتي بورقة بيضاء تماماً، وتكتب بخط يدك أمراً للبنك المركزي المصري، بصرف مليون جنيه مصري لحامله،

@3abeth

وختمها به، بدون توقيعات أو أختام أخرى، ساعتها ستكون الورقة ملزمة لصراف البنك ولا يمكنه الشك في صحتها.

هذه الشهادة لا يمكن لأي انسان مراجعتها، أو التشكك في صحتها، يمكنك أن تحملها معك أينما ذهبت، ويمكنك تقديمها إلى أي قاض أو ضابط شرطة أو موظف حكومي، إذا ما قرأها واحد من هؤلاء فإنه سيتركها لتقع على الأرض ويسير مبتعداً عنك فوراً، مجرد الحديث معك بعد تأكده من وفاتك قد يثير شكوكاً في احتمال جنونه، ولا أحد يود أن يفصل من وظيفته الحكومية بسبب اتهامه بالجنون"

يناول محمد عمر الشهادة لنعيم، يمسك نعيم طرفها بينما يمسك محمد عمر الطرف الآخر، يسأله إن كان يريد أي خدمات أخرى، فيهز نعيم رأسه علامة النفي، يطلب منه إيصال سلامه وتحياته لوهيب، ويشكره على الساعات الممتعة التي قضاها اليوم معه، ثم يترك محمد عمر طرف الشهادة.

تزول الابتسامة من على شفتيه، ينشغل بأوراق أمامه ويستغرق في قراءتها، يشكره نعيم بكلماته غير المفهومة فلا يرد ولا يرفع رأسه، يكتب نعيم شكره على ورقة صغيرة يقطعها من دفتره، ويضعها أمامه، لكن محمد عمر لا يلتفت إليها ويظل منشغلاً بأوراقه، يزحزح نعيم الكرسي مصدراً صوتاً عالياً، يتنحنح، يسعل، يقوم من مكانه، يضرب بقدميه الأرض أثناء خروجه، كل هذا ومحمد عمر مستغرق تماماً في أوراقه، لا يلتفت لنعيم مطلقاً.

@3abeth

عزيزي صلاح،

وصلني خبر لا أنكر أنه هزني كثيراً، حتى الآن لا أعرف كيف يمكن أن يحدث أمر مثل هذا، أتصوره انهيارا لكل ما عملنا من أجله خلال السنوات الماضية، بل ربما انهيار لنظام قائم منذ آلاف السنين. هذا خبر قرأته على إحدى المدونات؛ المدونة خاصة بموظف في شركة تأمين، كتب يصف كيف أن أحد عملاء الشركة قد زور شهادة وفاته، ليحصل على قيمة بوليصة التأمين على الحياة، وبالفعل، سهل له مدير الشركة ما يريد! وحصلت عائلته على قيمة التأمين في النهاية! عشرات الانتهاكات القانونية في سطر واحد يا صلاح.

دعك من مدير الشركة، هذا رجل فاسد وأنتم في حاجة لأمثاله، دعك أيضاً من صرف قيمة التأمين بدون وجه حق، هذه القضية لا تعنيكم، وإنما تعني شركة التأمين. ما هزني هو جرأة "المتوفى"، عمله السافر هذا يوحي بأنه لا يقيم أي وزن للدولة، لا يخاف القانون.

أنتم تحكمون الناس بالخوف، بالإرهاب، القانون الذي تقترحونه ثم تناقشونه في البرلمان وبعد ذلك تفعلونه، هذا قانون لم يختره واحد من الشعب، لا يفهمونه، لا يدركون الهدف من وضعه، لا يفهمون أصلاً فكرة القانون، لا يحترمونه، لكنهم يخافونه، والخوف هنا أبلغ كثيراً من

@3abeth

الاحترام، فاحترام القانون يأتي بعد فهمه، ودراسته، وهذا الفهم قد يؤدي في النهاية إلى المطالبة بتغييره، أو تعديله، أو مجرد مناقشته. يحترمونه نعم، لكنهم قد لا يرونه فعالاً أو مناسباً لتطلعاتهم. بينما الخوف من القانون سيستمر إلى الأبد، كما هو الخوف من الفوضى والفقر وقلة الرزق والموت جوعاً. الخوف هو ما حافظ على مبارك رئيساً كل هذه الأعوام.

مُدعي الموت هذا لم يعد يخاف القانون، بادعائه الموت، قام بكسر كل حاجز خوف قد يقام أمامه، وهل هناك فزاعة أصدق من فزاعة الموت، خالف وحطم عدداً لا بأس به من القوانين؛ زور شهادة وفاة، سار بعد ذلك في الشارع بلا بطاقة أو هوية، وهي مغامرة تدل على حماقة أو انحراف بالغين. ثم أتى ولده ـ كما ذكر المدون ـ للشركة وطلب قيمة التأمين، في وقاحة بالغة يا صلاح، بل وأصر على الاستمرار في الطلب حتى انصاعت الشركة أخيراً. كل هذه التصرفات تدل دلالة أكيدة على أن مدعي الموت لا يخاف القانون، لا يخاف العقاب. وربما لا يخاف الفزاعات الكبرى؛ لا يخاف الانهيار الاقتصادي، لا يخاف الفوضى، لا يخاف إسرائيل. الأكثر من ذلك، هو رجل لا يخاف الموت، مدعي الموت يقترب من عامه الستين، يعلم أن ما تبقى من العمر أقل بكثير مما مضى، ضحى بالقليل المتبقي لكي تحصل عائلته

@3abeth

على قيمة البوليصة، بينما سيضطر هو للعيش بعد ذلك بلا شخصية أو هوية، متوفى على الورق، حيّ في الحقيقة، هذا رجل لم يدّع الموت ليهرب من موقف ما، من مطاردة أو ملاحقة أو تهديد أو ثأر، وإنما هو يتمنى الموت ويتعجله. هذه لعنة يا صلاح، تمني الموت أول علامات الإدراك.

رجل كهذا قد يكون ملمراً للنظام، الشجعان هم من يحطمون الأنظمة، وهذا رجل تعدى مرحلة الشجاعة، ووصل إلى مرحلة التهور والجنون. تحدى كل من حوله، واختار أن تحصل عائلته على المال، في مقابل أن يعيش بقية حياته بلا هوية، ميت يمشي بين الناس وكل ما يملكه من أوراق شهادة وفاة.

أتذكر "باء" الذي حدثتك عنه من قبل؟ من نبهني ما حدث له لاستغلال طاقة الشر من حين لآخر؟ كنت مكلفاً بالبحث عن هذا الرجل، "باء"، كلفني بالبحث عنه صاحب دكان تجليد في عبد الخالق ثروت، أعطاني صوراً كثيرة تخصه، وعنوان سكنه، وخطابات تحمل عناوين أصدقاءه، اعطاني حياته كلها لكي أجده، بعدما عجز صاحب دكان التجليد عن إيجاده. ظللت أبحث لمدة قصيرة، لكنه كان بحثاً مرهقاً للغاية، أجاد "باء" التخفي وحافظ على روتين حياة يضمن غيابه الكامل عن أي عين بشرية. كان ملاحقاً من الشرطة والمخابرات وكل جهاز أمني في البلاد، كان ملاحقاً

@3abeth

من الجميع، ولما وجدته في النهاية تصورت أني تفوقت على تلك الأجهزة الأمنية، لكني كنت مخطئاً، الحقيقة أنه كان من تفوق على الجميع.

"باء" لم يهرب، فكر الرجل بطريقة أكثر عملية: لم يهرب، بينما يستطيع ببساطة إيقاف البحث عنه؟ ببساطة، ادعى الرجل الموت، الخطوات سهلة للغاية؛ جثة مشوهة، بطاقة شخصية بين الملابس، شهود زور، وينتهي الأمر. وقتها لم نكن نعرف شيئاً عن تحليل الحمض النووي. وانتهى التحضير للعملية ببساطة، حصل على شهادة وفاة، وتم تسجيله في دفاتر الموتى. مات "باء".

هكذا، استقر في غرفة فوق السطح، لا يغادر مطلقاً، ويعيش على الفتات، لكني في النهاية أخرجته من تلك الحياة لحياة أخرى، وجدته بعد بحث قصير مركز ومرهق، ولولا تلك المجموعة القديمة من أوراقه الشخصية لما استطعت الوصول لمكانه أبداً. كان كل هذا بناء على الطلب - شبه المستحيل - من صاحب محل التجليد، كنت وقتها شاباً، أعمل بالمحاماة، ولم أكن قد توصلت إليكم بعد، بل قل: لم أكن أتخيل أني سأعمل معكم يوماً، كنت وقتها أعتقد أن المستحيل محض خرافة، وأن أي أحلام يمكننا تحقيقها لو عملنا بإخلاص، وربما كان اعتقادي هذا ما أوصلني للرجل.

@3abeth

هذه كانت أياماً مرهقة، كنا خارجين للتو من هزيمة ووفاة زعيم، بل وفاة إله، بعدما آمنا به لمدة طويلة مات وتركنا وسط عواصف واضطرابات، وعمل لم يكتمل، ويأس أطبق على الجميع، دول كثيرة تتآمر علينا، أرض علينا استردادها عنوة من "العدو"، كنا في حال خانقة من اليأس، كنت أؤكد ببحثي عن "باء" أني يمكنني فعل أي شيء، أني رجل خارق، وبالتالي سيمكننا جميعاً -كمصريين- فعل أي شيء. كان عبد الناصر قد مات للتو، بعدما صار رمزاً لمصر، وكان السادات يصعد الدرجات الأولى لسلم المجد، وسيصير رمزاً لمصر أيضاً خلال سنوات قليلة، كلاهما كان أوفرريتيد يا صلاح، وكل أوفرريتيد مصيره أن يصبح كيتش.

إن نظامنا على الرغم من صرامته ودقته وتعقيده، هش، بالغ الضعف، بيت عنكبوت. سيجد المزورون حلاً لكل مشكلة قد تضعونها في طريقهم. قام "باء" بتزوير شهادة وفاة في السبعينيات، وقام آخر بنفس الفعل بعد سنين طويلة.

صادقت "باء"، وتكررت زيارتي له في مقر عمله بعد أن "خلق" لنفسه هوية جديدة، صار ابناً لصاحب دار التجليد، كما زور أوراقاً ليموت، زور أورقاً أخرى ليحيي. استمرت الصداقة أعواماً طويلة، وماتت ببطء وبالتدريج، ربما لم أزر الدكان منذ عشر سنوات، ولا أعلم إن كان "باء" لا يزال

@3abeth

يعمل هناك أم لا. كان "باء" بالغ الجرأة، لا يخاف شيئاً سوى رجال الشرطة، وكان كلما زرته وجلسنا معاً نسترجع ما حدث له ولي، أخرج شهادة وفاته القديمة، ضخمة وردية اللون، مكتوبة بخط اليد، مذيلة بتوقيعات عديلة، وأختام كثيرة، من بينها ختم نسر حراري، مطبوع بماكينة خاصة لا توجد إلا في أماكن قليلة جداً في مصر، تنتج نسراً مجسماً يمكنك تحسسه على الورقة. كانت الشهادة تحمل اسمه الحقيقي، ومع أني بحثت عن الرجل طويلاً بهذا الاسم، ومع أني اطلعت على الشهادة عشرات المرات بعد ذلك، إلا أني نسيته تماماً! لا أذكره، ولا أظن أني سأذكره لو حاولت. المفارقة يا صلاح، أن صورته الشخصية احتلت الركن الأيسر أعلى الشهادة، كانت صورة باسمة.

نظامنا يا صلاح على درجة من الكمال، تسمح باستخراج شهادة وفاة تحمل صورة المتوفى. لكنه من الغباء، لدرجة أن صاحب تلك الشهادة يستطيع استخراجها بنفسه.

أحياناً، أشعر بالتمزق، صداقتي السابقة بـ "باء" تحيرني، تشبه صداقة ضابط المكافحة بتاجر المخدرات.

قام "باء" بتدمير المنظومة الحكومية، مع ذلك، لا ألومه ولا أنتقده، كان يحاول الهرب من منظومة أمنية فتاكة، أفخر بها وأتمنى طوال الوقت أن تصبح أكثر فتكاً ودقة، أترى كم أنا حائر؟

@3abeth

دعنا من "باء" الآن، فلنتحدث عن صاحبنا الحالي، يجب الضرب بيد من حديد على أمثال مدعي الموت هذا يا صلاح، يجب عصره تماماً، ابدأوا حملة للتشهير به وبعائلته، أظهروه متطرفاً أو عشوائياً أو صاحب سوابق أو مدمناً للبانجو، أطلقوا رجال الإعلام والصحفيين ليظهروا أنه سرطان جديد في جسد مصر المريضة والمتضررة من أمثاله، ولابد من استئصاله، أطلقوا رجال الدين ليعلنوا أنه قد ارتكب ذنباً لا يغتفر، كفروه! هم سيعيدون لَيّ النصوص الدينية، سيذكرون حديثاً يحمل معنى غامضاً، ثم يؤكدون أن الحديث يدين الرجل ويوجب عقابه الدنيوي والأخروي، اتركوا الأمر لهم فهم أدرى بعملهم. لاحقوه أمنياً في كل أرض مصر حتى يتم القبض عليه، أعلنوا حالة الاستنفار الأمني التام، ثم ألقوا القبض عليه في زفة إعلامية ضخمة. انشروا صورته وصور أولاده في كل جريدة، أرسلوا رجال الإعلام ليجروا معه مقابلات في محبسه، أظهروه في صورة المختل المجنون البلطجي الشاذ. لا أريد أن يفلت هذا الرجل من عقابكم العنيف أبداً. يمكنكم التغاضي عن أي فعل يا صلاح، إلا هيبة القانون وهيبة الدولة.

لا تخف، لن يتحول مدعي الموت إلى بطل كما حدث لسفاح الستينيات، في أوائل الستينيات لم يكن الناس قد استسلموا للخوف بعد، ربما كانت سيرة السفاح وعقابه

@3abeth

الأخير أول عوامل إثارة مخاوفهم، التي تراكمت على مر السنين حتى وصلوا إلى الوضع الحالي، الاستسلام التام للخوف. اطمئن، لن يعارض أحد من الناس قبضة الدولة القوية الضاربة على رأس مُدعي الموت.

يجب أن يحاكم الرجل بعدة تهم، بعشر تهم، عشر قضايا مختلفة، ويجب متابعة القضايا والمحاكمات في صفحات الحوادث، تذكر دائماً، ما يُكتب في صفحة الحوادث جريمة، وإن كان خبراً عادياً، وما يكتب في غيرها فهو خبر، وإن كان في الأصل جريمة.

التطور الكوميدي، أن يقع القاضي ناظر القضية في فخ الأوراق والشهادات والقانون، فالرجل ميت حسب الأوراق التي زورها، وقد يشهد الطبيب الذي وقع تصريح الدفن بتأكده من وفاة الرجل، وقد يشهد التربي الذي دفنه، بل ويقسم على أنه أنزله للقبر بنفسه، وقد يشهد شهود آخرين على أن كل هذا حدث أمام أعينهم. ثم لا يجد القاضي مفراً من الاعتراف بصحة شهادة الوفاة، وإلغاء المحاكمة برمتها لأن الرجل الواقف أمامه ميت، وبالتالي لا يمكن محاكمته! هذا خيال من خيالاتي يا صلاح، لن يتطور الأمر هكذا أبداً. لكن هذا التطور الخيالي سيوضح لك مدى فداحة فعل هذا الرجل.

يجب أن يتم فرم هذا الرجل تماماً يا صلاح.

@3abeth

طــواويــس

كتب العديد من الكتاب والمفكرين المسلمين الأوائل نصائح للحكّام، وضعوها في كتب ورسائل، كانت موجهة للحاكم، لكنها انتشرت أيضاً بين المواطنين، كانت نصائح علنية، يطلع عليها الحاكم وشعبه بلا تفرقه. كانت تلك الكتب هي الدساتير العربية الأولى، فقد حدد الكتّاب فيها طبيعة العلاقة بين الحاكم والمحكوم، ما على كل منهما من واجبات وما لكل منهما من حقوق. بالطبع لم تكن هذه دساتير مقدسة أو حتى شرعية، كانت مجرد رؤية لمثقفي العصور القديمة لما يجب أن تكون عليه العلاقة بين الحاكم والمحكوم، وكانت دائماً عرضة للتجاهل والتجاوز من قبل الطرفين، ربما لأنها كانت تخالف تصورات كلا الطرفين-الحاكم والمحكوم- عن تلك العلاقة.

كتب أبو الحسن الماوردي كتاب "نصيحة الملوك" في القرن الخامس الهجري، ونصيحة الملوك واحد من أشهر تلك الدساتير. في بداية الكتاب، أوضح الماوردي للملوك مزايا النصائح الموجهة إليهم، وأكد على ضرورة استماعهم إليها، ثم وعظهم وحثهم على البعد عن الشهوات، ثم أوضح لهم كيف يسوسون أنفسهم أولاً، كي يكونوا

@3abeth

قادرين على سياسة المحكومين، ثم حدد القواعد والطرق التي تقوم عليها العلاقة بين الحاكم والمحكوم، وهو الجزء الأهم من كتابه، وبالطبع كان الأكثر جرأة.

ربما كان ضعف الحكام العباسيين سبباً لكتابة "نصيحة الملوك"، فقد عاصر الماوردي الخليفتين القادر بالله والقائم بأمر الله، وهما من أواخر الخلفاء العباسيين، وقد اشتهرا بالضعف وانعدام السيطرة على أراضي الدولة العباسية. كما عاصر دولة بني بويه، الذين حكموا فارس والعراق في تلك الحقبة برضى وموافقة الخلفاء العباسيين، والذين خلع عليهم الخلفاء العباسيون لقب "السلاطين". كان هذا وضعاً معقداً، فالخليفة العباسي يعترف بالسلطنة لبني بويه الذين يسيطرون بالقوة على أراضيه، ويبقى هو خليفة صورياً على المسلمين، خليفة كهذا لن يعاقب الماوردي إذا ما نصحه أو حتى انتقده. بل إنه قد ينصت للنصح، رغبة منه في استعادة السيطرة على مملكته مرة أخرى.

جاهر الماوردي بمخالفة سلطان بني بويه "جلال الدولة" ذات مرة. فقد طلب جلال الدولة من الخليفة العباسي أن يخلع عليه لقب "ملك الملوك"، فاختلف الفقهاء في جواز ذلك، وأفتى الماوردي بأن ذلك لا يجوز. فالله هو ملك الملوك، ولا يمكن لبشري أن يتخذ هذا اللقب، ولا يمكن لبشري آخر أن يمنحه هذا اللقب. وقد كان الماوردي وقتئذ مقرباً من جلال الدولة، فلما أفتى بذلك مرضياً ضميره، التزم

@3abeth

بيته ولم يرجع إلى زيارة السلطان، وقد ظن أن فتواه تلك ستثير غضب جلال الدولة عليه. فلما طلبه السلطان بعد شهرين من الغياب، ذهب خائفاً، لكن السلطان أكرمه لجرأته وشجاعته في قول الحق.

كانت الإمبراطورية العباسية الضخمة في طور الأفول، لم يتوقع الماوردي أو السلطان جلال الدولة ذلك. ربما ظنا على أسوأ تقدير أنها انتكاسة بسيطة تصيب الدولة. فدائما ما سنجد اثنين لا يريان بوادر الانهيار وإن ظهرت في السماء، الجبناء وورثة العزة. ويبدو أن الدولة العباسية كانت مليئه بهما.

على الجانب الآخر، كان الفاطميون الطموحون يرون فشل العباسيين حاضراً بقوة، كانوا يعلمون أن الحجر قد بدأ في التدحرج، وأن كل ما عليهم المتابعة والاستمتاع. وفي نفس التوقيت الذي كان الماوردي يحاول فيه جاهداً إبداء النصح لحكامه، في رغبة صادقة لإعادة الدولة إلى عصرها المزدهر، كان هناك مفكرون آخرون يبدون النصح للخليفة الفاطمي الحاكم بأمر الله. كان الحاكم بأمر الله "يلعب" في مصر.

استقر هؤلاء على تلقيب أنفسهم بالطواويس، وهو لقب يتعارض تماماً مع حال الخفاء والسرية التي حافظت عليها تلك المجموعة من المفكرين. ضمت مجموعة الطواويس فقهاء ومؤرخين وتجاراً مصريين، كانوا يرسلون النصائح لأعوان وبطانة الحاكم بأمر الله باستمرار، يرسلون إليهم الكتب والوثائق والرسائل، ليعلموهم

@3abeth

بأفضل طرق السيطرة على المحكومين. وربما كانت كثرة الطواويس واختلاف آرائهم ونصائحهم سبباً أساسياً لتناقض قرارات الحاكم بأمر الله وعدم اتزانه. على أن الحاكم استطاع فرض سيطرته بقبضة حديدية على المصريين في ذلك الوقت، كانت سيطرته بالغة القوة، لدرجة أن الحاكم لما قُتل لم يصدق الكثيرون موته، وقال بعضهم إنه لم يمت، وإنما هو حي وسيعود في آخر الزمان. وهو رد فعل كلاسيكي ومتكرر، يصيب كل من عاش تحت حكم طاغية، فإذا مات الطاغية أو خُلع أو هرب، كذَّب المحكومون ما حدث وادعوا أن الطاغية لا يزال يحكم.

كانت نصائح الطواويس موجهة للحاكم فقط، سرية ولم يعلم بها أي من المحكومين، ذلك لأن فحوى النصائح كان دائماً يتعلق بكيفية السيطرة على المحكومين، على العكس تماماً من نصائح الماوردي الناصحة للحاكم، والمعلنة للمحكومين. وبينما كان الماوردي قاضياً معروفاً للجميع، ظلت شخصيات الطواويس مجهولة، بل إن وجودهم من الأصل لم يكن معروفاً للعامة، وبينما كانت الغالبية من شخصيات الطواويس معروفة لبطانة الحاكم، حافظت بعض الشخصيات على السرية، كانت تلك جماعة قليلة من الطواويس أصرت على أن تظل مجهولة إلى الأبد، تنصح الحاكم بدون أن تكون معروفة أو ظاهرة، حتى بالنسبة له.

بدأ الطواويس في إسداء النصح مع بداية الدولة الفاطمية، ولا توجد أي أخبار عن تواجدهم قبل ذلك. الطواويس مصريون بالتأكيد،

@3abeth

فهم لم ينصحوا سوى من حكم مصر، حتى أنهم في حقب معينة اختفوا وكفوا عن إسداء النصائح لبعض من الحكام المصريين. ومع ذلك لم ترد أي أخبار عن انتقالهم خارج مصر وإبداء النصح لحاكم آخر، كما لم تنتشر أفكارهم ونصائحهم في أي مكان خارج مصر، ولم يتلقها أي حاكم سوى من اختاروه للنصيحة.

استمر الطواويس في إسداء النصح والإرشاد للخلفاء الفاطميين التالين للحاكم بأمر الله، لكنهم ومع قيام الدولة الأيوبية اختفوا تماماً، ولم ترد أي أنباء بظهور أي من الطواويس طوال الخمسة وسبعين عاماً مدة حكم الدولة الأيوبية. لكن ظهور الطواويس بعد ذلك كنصحاء للمماليك كان إشارة لوجودهم طوال الوقت، لكنه كان وجوداً صامتاً، بلا أي تعاون مع الأيوبيين. تبين لاحقاً أن الاختفاء كان بغرض الحفاظ على أرواحهم خشية انتقام أيوبي متوقع، وأيضاً خوفاً على انتشار وفضح أفكارهم وطرقهم الخاصة بالسيطرة على المحكومين، تلك التي سيرغب في معرفتها أي حاكم. أظهرت نصائح الطواويس الجديدة الموجهة للمماليك أنهم ظلوا طوال مدة حكم الدولة الأيوبية يطورون نظرياتهم وطرقهم، فلم تعد النصائح مجرد توصيات ترسل إلى أعوان الفاطميين كل عدة أسابيع كما حدث سابقاً، بل تحولت إلى خطة ضخمة محكمة، ستستغرق عدة سنوات حتى يتم تطبيقها بشكل كامل، شديدة التعقيد والتفرع لدرجة أنها كانت ترسل إلى المماليك على أجزاء صغيرة، جزء كل سنة أو اثنتين،

@3abeth

ولم يكن الطواويس يرسلون الجزء التالي إلا بعد التأكد من تمام تنفيذ الجزء السابق.

كما أن الطواويس لم يتوقفوا عند حد السيطرة على المحكومين، بل وضعوا نظاماً إدارياً شديد التعقيد، يبدو إلى جواره النظام الأيوبي نظاماً ساذجاً. كان النظام حديثاً أيضاً، واضطر الطواويس لكتابة شرح للمصطلحات الجديدة التي اضطروا لوضعها لوصف عناصر النظام. وافق المماليك الأوائل على هذا النظام المعقد، ظنوا أن هذا النظام وحده كان كفيلاً بالسيطرة على الناس، لكن الطواويس أعلنوا أنه نظام لإدارة الدولة فقط، وأن هناك نظاماً آخر للسيطرة على الناس. كان نظام السيطرة لا يختلف كثيراً - في خطوطه العامة - عن نظامهم المتبع في مدة حكم الفاطميين، الفارق الوحيد كان في غزارة التفاصيل.

استفاد المماليك من نظامي الطواويس كثيراً، لدرجة أن حكمهم استمر لمدة تقارب المائتي وخمسين عاماً، تبدل فيها الكثير والكثير من المماليك على حكم مصر، أسماء عديدة حكمت، لكن النظام العام ظل ثابتاً ثباتاً أسطورياً، ظل كلا النظامين يعملان بكفاءة عالية، ظلا ثابتين صارمين، ظلا مؤثرين لدرجة أن كل حاكم مملوكي لم يكن يهتم بمدى سيطرته على الناس، فالسيطرة متحققة بشكل تلقائي، بل كان يهتم بصراعه مع المماليك الآخرين، أو أعداء البلاد الخارجيين.

@3abeth

فترة التوقف الثانية بدأت مع دخول العثمانيين لمصر، اختفى الطواويس مرة أخرى، ولم يتصلوا بأي من الولاة الذين حكموا مصر تحت جناح السلطان العثماني. حتى ذلك الوقت، لم يكن العامة على علم بوجود الطواويس، لم يكن أي شخص على علم بمجهوداتهم وتاريخهم الطويل، وانقطاعهم عن النصيحة لمدة طويلة أثناء الحكم الأيوبي، وعودتهم مرة أخرى للظهور أثناء مدة الحكم المملوكي، كل هذه كانت حقائق خفية، لا يعلمها إلا بطانة فاطمية فانية أو مملوكية موشكة على الفناء، وكلاهما قليل العدد، كانت البطانتان هما الوسيط بين الطواويس والخلفاء على مر السنين.

كانت إحدى القواعد المتبعة في عمل الطواويس في مدة ما بعد الدولة الفاطمية، منع الاتصال المباشر بالحاكم، ووجوب الاتصال بوسيط مقرب من الحاكم طوال الوقت. ومع مرور الوقت، اختفت تلك البطانة تماماً، كانت البطانة الفاطمية قد زالت أثناء الحكم الأيوبي، وربما تسربت بعض الحكايات عن الطواويس من خلال رسائلهم أو كتاباتهم أو أقوالهم الشفاهية. زالت أيضاً بطانة المماليك مع الوقت، وأيضاً كانوا قد سربوا حكايات كثيرة عن الطواويس من خلال الكتابات والأحاديث.

ثم انتشرت تلك الأحاديث بين المصريين، كانت تشير إلى وجود جماعة مصرية عريقة، أعضاؤها يعملون كناصحين ومستشارين لكل من حكم مصر، وانتشرت الأقاويل تؤكد أن الاستقرار الذي

@3abeth

تتمتع به مصر منذ مدة طويلة هو نتاج نصائح هذه المجموعة، ثم تسرب اسم المجموعة إلى الناس بطريقة مريبة، مخالفة تماماً لسياج السرية الذي أحاط الطواويس أنفسهم به، وأصبح من المعلوم أن "الطواويس" هم من كانوا يديرون البلاد، وإن كانوا يفعلون ذلك من مسافة بعيدة وبلا أي إعلان عن أنفسهم. ثم أخذت الدعاوى المطالبة بعودة الطواويس بالانتشار بين الناس، كانت الدعاوى هامسه حيية خائفة، لكنها كانت صادقة. بينما ظهرت عوامل كثيرة أثرت في استمرار تلك الدعاوى؛ منكرو وجود الطواويس من الأصل، الساخرون من أصحاب الدعاوى، وبدء الحملة الفرنسية على مصر، كل هذه العوامل كانت سبباً في موت تلك الدعاوى إلى حين.

طالت مدة صمت الطواويس كثيراً، وبالتدريج، راحت ذكرى الطواويس من الذاكرة الجماعية المصرية، ولم يتبق منها إلا أساطير وحكايات أطفال. في ذلك الوقت، انشغل الناس بمحمد علي وإصلاحاته وطموحه، ثم انشغلوا بأولاده وأحفاده ووطنيتهم وفسادهم والدُين المصري وقناة السويس وصراعات الأحزاب والملوك والاحتلال الانجليزي.

ثم ظهر الطواويس بوضوح مع بداية عهد ثورة يوليو، وترددت أقوال كثيرة تؤكد أن بعض الطواويس قد ظهر فعلاً إلى العلن، عاملين في أجهزة الدولة؛ في الجيش والصحافة والتعليم والاتحاد الاشتراكي ومن بعده الحزب الوطني والأحزاب الصورية

@3abeth

الأخرى، والكثير من الوزارات والمؤسسات، وانتشرت الأقوال تؤكد أنهم لا يزالون ينصحون الحكّام، لا يزالون يقودون البلاد من خلف ستار. قيل إن مدة السبات الطويلة أثمرت خططاً وأساليبا وطرقاً غاية في التعقيد، وتم وضع نظام إداري حديث لإدارة الدولة، ووضع خطة أكثر تعقيداً وأكثر كفاءة للسيطرة على المصريين. قيل إن الخطة كانت متميزة لدرجة أن منفذها لديه القدرة ـ من خلال القيام ببعض الخطوات وهو جالس في مكتبه ـ على التأثير على زوجته وأولاده في البيت. كانت عودة الطواويس هذه المرة بالغة الصلابة والقوة، كما أنها أثرت على حكم قادة ثورة يوليو بشكل شديد الإيجابية. فكما كانت مدة السبات الأولى مؤثرة ومخصصة للتفرغ للدراسة والبحث والتنظير، كانت مدة السبات الثانية الأكثر طولاً مدة مناسبة للتطوير النوعي غير المسبوق في أساليب وطرق الطواويس.

وهكذا تم الحفاظ على الطواويس وقوانينهم بالتخفي والبحث والتطوير تارة، وبالعمل والاتصال بالحاكم تارة أخرى، فعاشوا حتى يومنا هذا ناصحين لبعض من حكم مصر. عاش أغلبهم مجهولين يتوارثون العلوم والنظريات ممن سبقوهم، ولم يلمع منهم إلا قلة في خمسينات وستينات القرن الماضي، بصفتهم إداريين أو عاملين في الدولة، لكن الجميع حافظ على سرية انتمائه للطواويس.

حدث هذا بينما رحل أبو الحسن الماوردي عن عالمنا، تاركاً كتاباً ظل ذا قيمة تاريخية لزمن طويل، ثم صار كتابه مجرد كتاب تراثي عربي لا يمكن تطبيق أفكاره على عالم اليوم.

@3abeth

كيف حدث هذا يا صلاح؟

أنا ملاحق أمنياً، تأكدت من الملاحقة منذ عدة أيام! الشرطة تسعى خلفي أينما ذهبت، وفي كل مرة أتمكن من الهروب بصعوبة بالغة، أو بصدفة نادرة لن تتكرر، واحد منهم يراقب باب البيت، وآخر يراقب مكان العمل، حتى أني تركت السيارة في إشارة مرور وهربت! عدوت يا صلاح لأدخل في الزحام وأهرب منهم.

أنا أكتب لك الآن من أحد المقاهي، لولا جهاز الكمبيوتر الخاص بي لما استطعت إرسال هذه الرسالة.

واليوم صباحاً وجدت اسمي في صفحات الحوادث! فهمت حينها كل شيء، الأغبياء يظنون أني "مُدعي الموت" الذي حدثتك عنه. تشابه أسماء، هذا أسوأ من خيال مؤلفي السينما يا صلاح، لا يمكن أن تكون الصدفة وراء كل هذا، من سوء حظي أن اسمي الرباعي يطابق اسمه الرباعي، بل ويسكن في الفجالة أيضاً! لا يمكن الخلط بين شخصين إلا إذا تطابق اسماهما ومكان إقامتيهما.

كيف حدث هذا يا صلاح؟

لا علم لي باسم الرجل، لم أكن أعلم أن اسمه نعيم عبد النعيم أحمد أبو سبعة، كاسمي تماماً. قرأت عن الحادث في مدونة، وكان الكلام خالياً من اسم الرجل، هذا كل ما في

@3abeth

الأمر. ولو كنت أعلم لما حدثتك عن الموضوع بالطبع يا صلاح، لكني لم أتصور هذا التشابه الذي سيؤدي بي للسجن أو المحاكمة. لا تقل لي أن علي أن أسلم نفسي للشرطة، هذا هراء، لن أحمل يوماً واحداً من أيام السجن، ملفي ناصع ولا يمكن تلويثه باتهام ظالم كهذا، أنا آخر من قد يزور أوراقاً رسمية يا صلاح، وأنت تعلم ذلك جيداً. أنا رجلكم المخلص يا صلاح، ولا يمكن أن تتركوني هكذا بلا مساعدة. ربما لن أستطيع الكتابة لك إلا بعد مدة يا صلاح، ريثما أختبئ، سأتدبر أمري حتماً، لكن عليك أن توقف كل شيء، أوقف الملاحقة الأمنية، اشغل الرأي العام بقضية أخرى من القضايا القديمة، اخلق عدواً جديداً للناس، فقط، أرجوك، خلصني من الملاحقة الأمنية.

@3abeth

واجـــب

يدرك نعيم أن كل ما تبقى خطوات قليلة، بضع خطوات وينتهي الأمر كله، سيصبح ميتاً بالفعل، بلا تبعات أو مصائب أو ملاحقة، سينتهي كل شيء قريباً جداً.

يستقل نعيم مترو مصر الجديدة من محطة رمسيس، قديماً كانت عبد المنعم رياض هي أولى محطات المترو، ثم أزيلت المحطة وأصبحت رمسيس أول محطة في خط المترو. لن يتمكن أحد من إزالة محطة رمسيس، فرمسيس مركز أعصاب خطوط المواصلات في القاهرة.

استقل نعيم المترو المتوجه لمصر الجديدة آلاف المرات قبل ذلك. في الثلاثين عاماً الماضية، عانى نعيم من التغيير الذي طرأ على كل ما حوله، وكل من حوله. ارتعب نعيم من فكرة أنه قد يصحو يوماً ليجد دكان وهيب قد تحول إلى محل ملابس أو أحذية. أو تحول بيته إلى ورشة نجارة موبيليا. كان تغيير اتجاهات شوارع وسط البلد قد هزه كثيراً، كل عدة أعوام يغيرون اتجاه السير في مجموعة من الشوارع، يوحدون الاتجاهين في اتجاه واحد، لم يفهم نعيم أبداً كيف يمكن للسائر

@3abeth

بسيارته أن يذهب إلى مكان سائراً في طريق، ثم يعود سائراً في طريق آخر، كان هذا الحل سقيماً للغاية.

كان نعيم يستقل المترو إلى مصر الجديدة من حين لآخر. كلما أحس بوطأة التغيير عليه، أو كلما شعر أن عليه أن يحافظ على ذكرى سعيدة بلا تآكل أو نسيان.

ضوضاء بصرية تعم العربة، وزحام أول الخط يطغى على المقاعد، الركاب يتحركون في فوضى حقيقية، وباعة يتجولون على الرصيف يزعجون نعيم بضوضائهم البصرية المضاعفة. يتململ نعيم في انتظار تحرك المترو، هذه اللحظات التي يرى أنها أسوأ لحظات الرحلة ستنتهي قريباً، تمنى نعيم دائماً أن يستقل قطاراً لا ينتظر على المحطة حتى يمتلئ بالناس، تمنى أيضاً أن يستقل المترو قبل تحركه بثانية واحدة، فلا يضيع وقته في الانتظار، لكن خوفه من السقوط تحت عجلاته الحديدية أثناء الحركة، خوفه من انشغال الكراسي الشاغرة، كانا يمنعانه من التأخر، كان يستقل المترو حالما يتوقف في المحطة قادماً من مصر الجديدة، ليصبح نعيم أول الراكبين.

يتحرك المترو أخيراً، خلال السنوات، حفظ نعيم تلك الحركة الاهتزازية الرتيبة، هذا سر المترو الحقيقي، نعيم لا يعنيه الطريق أو الصحبة أو وسيلة الانتقال، فقط يهتم بالاهتزاز الرتيب، بالمهد الحديدي الهائل. هذه الأرجحة الرتيبة تذكر نعيم بهزات مهده، أو هكذا يظن، تتجلى قدرات نعيم وثقته بنفسه في عربة المترو، فهو يعلم

@3abeth

أين سيزيد سائق القطار سرعته، يعلم أين سيبطئ، أين سيتوقف تماماً، متى ستزيد الاهتزازات، متى تصبح أكثر رتابة وأكثر سرعة، متى ستهب النسمات الصيفية الباردة من الشباك.

أخذ نعيم يصنف سائقي المترو، هناك فوارق طفيفة بين سائق وآخر، الراكب الهاوي لن يلاحظ الفرق، سيلاحظ أن المترو يتحرك بنفس الرتابة المعتادة، يستغرق نفس المدة الزمنية في كل رحلة، والراكب الساذج لن يلتفت أصلاً لما تابعه نعيم بحرص بالغ. هناك فروق طفيفة بين السائقين، قسم نعيم السائقين إلى خمسة أقسام، يميز كل منها عن الآخر ببساطة وسرعة. الآن هو يركب مع سائق "د".

هذا النوع، شاب، متسرع، متهور، يحافظ على أقصى سرعة للقطار في المناطق الخالية من المارة والسيارات، ويتعامل بصبر نافد مع ما يحيطه بالسيارات في التقاطعات، يستخدم الفرامل بعنف وبشكل مفاجئ، يهتز القطار حينما يتوقف السائق "د" اهتزازاً عنيفاً، حينما تكون الفرامل لا تزال جديدة، وقد لا يحدث الاهتزاز من الأصل حينما تكون الفرامل قديمة مهترئة، بل يزحف المترو إلى الأمام بضعة أمتار، في صراع بين الفرامل المهترئة والطاقة الكامنة في العربات.

لكن أسلاك الكهرباء المعلقة أعلى العربات، والنمطية المقدسة في سلوك السائقين جميعاً، وطريق المترو الذي لم ولن يتغير مهما حدث، ثم الضوء الأبيض المشتت لظلام العربات، وكوبري السادس من أكتوبر وهو يطير سرمدياً إلى يسار المترو، والضوضاء البصرية التي

@3abeth

تخفت بسرعة ثم تنعدم تماماً حينما يسكن الركاب، وتذكرة المترو، نصف جنيه فقط، في زمن ندر فيه الجنيه حتى كاد أن يتلاشى. وفوق كل ما سبق، يكاد يغلفه كأنه كفن يقيد حركة مستحيلة، حركة المترو الرتيبة المكررة على مدى أعوام طويلة، كل هذا يطمئن نعيم تماماً، يعلمه بأن الدنيا لا تزال على حالها من الاستقرار والثبات، الأرض لا تدور، الشمس تدور حولها، في ضمان كامل ضد أي تحول أو تغيير قد يثير رعب نعيم. منظومة المترو الثابتة كانت سبب طمأنينة وسند نعيم في مواجهة العالم الآخر شديد التغير. ولاستمرار ثبات صورة منظومة المترو، كان نعيم يتغاضى عن الفروق الطفيفة بين أنماط قيادة سائقي المترو، ويتابع تأمل أرجحة المهد المعدني الهائل.

يصل نعيم بعد هزات كثيرة إلى محطة "المعلمين"، حيث سيجد تقاطعات طرق لا يمكن إحصاؤها، طرق أسفلتية للسيارات، طرق غير ممهدة للمارة، وقضبان عديدة خاصة بخطوط أخرى لقطارات أخرى، كلها تتقاطع في كتلتين ضخمتين متتاليتين. يترجل نعيم من المترو وقد غاب عنه شعور الاطمئنان المعتاد، الشارع والسيارات والمارة كلهم لا يوحون بالاستقرار المتمثل في هزات المترو المثالية، على أي حال، يجب عليه الترجل، يجب أن يكمل الخطوة قبل الأخيرة.

يسير متجهاً نحو الشمال، بمحاذاة أحد خطوط المترو، ثم يقطع الميدان الضخم متجها نحو اليسار، يسير قليلاً، ليصل إلى مبتغاه، دكان تحمل واجهته لافتة "إعلانات".

@3abeth

في الداخل، تستقر فتاتان مسيحيتان، على قدر كبير من البساطة، كل شيء هنا بسيط، كل شيء أبسط من المعتاد، يقف نعيم أمامهما، يشير بيده، إشارات مختلطة لا تكادان تفهمنها، ثم يخرج من جيبه ورقة، وصورة شخصية له وهو شاب. يضع الورقة على الطاولة، بجانبها صورته الشخصية، صامتاً تماماً، للمرة الأولى يصمت نعيم صمت الموتى، بعد أن صمتَ صمت المحبوسين لثلاثين عاماً.

تفهم الفتاة ما يقصد، تحصي كلمات الإعلان، تجمع أرقاماً، تفترض أن نعيم أصم أيضاً، وتكتب تكلفة الإعلان على ورقة وتسلمها له، ثم تنتظر.

هكذا، بلا أي صعوبات، بدون أن تميز الفتاة صورته الشخصية، يسير الأمر بسلاسة كما أراد نعيم، كما كان يأمل، يحصي المبلغ المطلوب ويضعه بين يدي الفتاة، لتبدأ في كتابة الإعلان في الدفتر المخصص لذلك، أربع كلمات في السطر، تقرأ المكتوب في الورقة الصغيرة أمامها، تقرأ كلمة وتكتبها، ثم تقرأ التالية وتكتبها، كأنها لا زالت تتعلم الكتابة. تكتب الآتي:

@3abeth

توفي إلى رحمة الله تعالى

نعيم عبد النعيم أحمد أبوسبعة

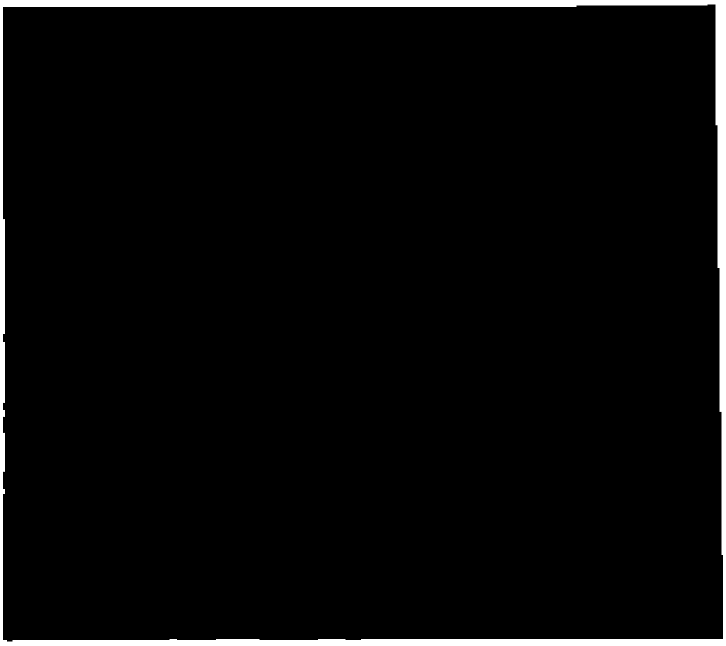

ر وهيب للتجليد بوسط البلد زوج
سليم أبو رجل ووالد وليد بوزارة
ووفاء وسناء وهناء بالتعليم العالي
نزل العائلة بالفجالة.

ة نعيم بالورقة، تخبر نعيم بأنه سيجد النعي غداً
الوفيات. ثم تتذكر أنه أصم، فتكتب الجملة على
إياها. ثم تقطع من الدفتر صورة مُكربنة من
يم.

د أن يفعله منذ أن مات، أخيراً، يخرج نعيم وهو

، مخترقاً الكتلة السكنية عائداً إلى محطة المعلمين.
ود إلى مقره الأخير.

@3abeth

عزيزي صلاح.

اليوم تمر ستة أيام على رسالتي الأخيرة لك، ولا ريب أنك قرأتها، وأظن أنك قرأتها مراراً، عشرات المرات، ربما لتختبر رعبي وخوفي الواضح بين أسطرها. لكن استمرار البحث والملاحقة الأمنية والنشر في صفحات الحوادث يؤكد أنك قررت قراراً نهائياً، لا رجعة فيه.

لم أصدق ما حدث لأول وهلة، ذكرتني أفعالك بالمثل الشهير: جزاء سنمار، لكني لست سنمار يا صلاح، لم أكنه يوماً، وأيضاً لن أتحول لسنمار حديث قد يهدم القصر، لن أحطم الحجر القلقل لأهدم القصر، أعلم بالطبع مكان الحجر، بل أعلم أماكن أحجار كثيرة؛ أعلم المخارج الأربعة لمدينة نصر، التي إذا ما أغلقت فسيتحول الحي إلى سجن لساكنيه، لن تخرج ذبابة أو تدخل. أعلم موقع كابل الكهرباء الذي إذا ما قُطع سقطت شبكة الكهرباء في مصر بالكامل، أعلم أيضاً مكان الزرين الذين يشغلان نظامي التدمير الذاتي للسد العالي، زر للتدمير البطيء، يكتمل بعد خمسة أيام، لينهار السد تماماً، وزر للتدمير السريع، في خمس دقائق يتحول السد إلى ركام. أعلم أيضاً التقاطع القاهري الشهير، الذي إذا ما تم قطعه ستصاب شوارع القاهرة كلها بالشلل، ستتوقف السيارات لكيلومترات طويلة، أعلم أيضاً أن سد التقاطع

@3abeth

سيؤدي بالقاهريين لحالة حادة من الاكتئاب، الدرجة الثانية من الاكتئاب، يسخر فيها القاهري من كل ما حوله، حتى يصل إلى السخرية من نفسه، ويبدأ في موجة من الضحك الهيستيري على أفعاله.

كل هذه الأسرار تم استخدامها من قبل، وهناك مخططات لاستخدامها مرة أخرى في حال الطوارئ. أنتم تظنون أنكم تعرفون كل شيء، ليس هناك ما يخفى عليكم، لكنكم أطفال، لا زلتم تتعلمون القراءة يا صلاح، أنتم لا تعلمون كل الأسرار، لا تعرفون أماكن الأحجار جميعاً، لا تعرفون أن هناك الآلاف من الأحجار القاتلة في مصر، أنا سأسحب حجراً واحداً يا صلاح، ثم سأرميه ليصيب عدة عصافير، كما تعلم، أنا لا أرمي الأحجار بعشوائية، فكل شيء مرتب وكل الأفعال مقصودة ومدروسة، سأكون أحد الرابحين في النهاية، ولن أنتقم منك، أنت أحقر من أن أشغل نفسي بك، سأترك لك مجالاً للهرب والاختباء بعيداً، وها أنا أحدثك وأعلمك بما سأفعل، لكنك لن تستطيع مقاومتي أو هزيمتي.

لم يحزنني ما فعلته، أحزنني أني لم أتصور أنك قد تضحي بي بهذه الطريقة، لكن بعد أن هدأت قليلاً، فهمت أنك اخترت هذا الطريق، اخترت أن تسقطني تماماً من حساباتك؛ ربما لتعيد توزيع مراكز القوى، ربما لأني

@3abeth

أصبحت عجوزاً بلا فائدة، وآخرون أصبحوا أفضل مني، ربما لأن ظننتني كأحد الكبار الساقطين، ربما لتفرغ طاقة الشر المتجمعة داخلك. لكن هذه ليست أخلاق حسني مبارك يا صلاح، السيد الرئيس لم ينس يوماً من وقفوا إلى جانبه، كان حاداً وصارماً مع أعدائه، لكنه أيضاً كان مؤدباً معهم. ما فعلته أنت يا صلاح سفالة لا حدود لها. أنت تعلم أنني أستطيع الوصول إليه، أستطيع أن أشتكي يا صلاح من سوء المعاملة. يمكن أن ينتهي الأمر كله في دقائق قليلة، سأعود إلى مكانتي السابقة، وستروح أنت إلى أبعد نقطة على حدود البلاد. أنت تعلم ذلك تماماً. لكنك تعلم أيضاً أني لن أفعل هذا.

ربما استطعت أن أعلمك كيف تُلهي الناس، كيف تحول أنظارهم، كيف تشوه صورتهم، وكيف تحافظ على صورة الرئيس مبارك لامعة براقة. كيف تسيطر على الناس بالخوف، ولا ريب أني نجحت، وتعلمت أنت كيف تسيطر على الناس بالخوف؛ فقد أصابني الفزع طيلة الأيام الماضية، لكني حالما استرجعت هدوئي، واسترجعت كيفية بحث رجال الشرطة عن الأفراد، استطعت تأمين نفسي بطريقة بسيطة للغاية. الآن، أنا في أمان تام، وسأكررها مرة أخرى يا صلاح، لن أتصل بمن هو أعلى منك، لن أتصل بالرئيس مبارك. لكني سأخرج من المأزق بطريقتي الخاصة.

@3abeth

تأكد يا صلاح أني لم أخسر شيئاً، مبارك لن يخسر أيضاً، لست غبياً لأتصرف بحيث أصيب رئيسي بالغضب أو الخسارة. لكنك خسرتني إلى الأبد. من يعلم، ربما ستخسر أشياء أخرى في الأيام القليلة القادمة.

عزيزي صلاح، هذه آخر رسالة ستتلقاها مني.

@3abeth

قشة

كان نعيم مرهقاً للغاية، سنواته أنهكته، أضعفت جسده، وجاء عمل اليوم ليجهز على طاقته اليومية، كان يوم عمل طويل وشاق، ساعد عمال المكتبة المجاورة في نقل صناديق كثيرة، مع وعد من صاحبها بعشرين جنيهاً بعد النقل، حمل الصناديق من السيارة إلى المكتبة، ساعة كاملة من الحركة تستحق العشرين جنيهاً بالتأكيد، لكن الساعة نفسها أرهقت نعيم الذي اقترب من الستين، حدث هذا في أول النهار، وفي آخر النهار انهارت قوى نعيم تماماً، وعاد إلى البيت بعدما استراح في الطريق ثلاث مرات.

داخل البيت، الكل نيام، استراح نعيم على الكنبة قليلاً، تنفس بعمق وانتظر حتى جف عرقه، وخفت وتيرة ضربات قلبه، ثم دخل المطبخ ليأكل. رفع غطاء القدرين الموضوعين على الموقد، دجاج ورز، أخيراً، نشويات سعيدة وبروتينات مرحة، عطيات تظهر عطاياها من حين لآخر، تناول صحناً وملعقة، وأخذ يغرف من القدرين ملء الصحن، ربع دجاجة، ربع آخر، ورز كثير، ملأ باقي الصحن به، المخلل ضروري في هذه الحالة، أيضاً لابد من خيارة

@3abeth

لترطيب الفم، وأثناء تصوره للخيار والمخلل، ظهر ذراع من فوق كتفه، أمسكت عطيات بالطبق، بصمت مَن يكظم الغيظ، انتزعت الطبق من يده، وبهدوء، أخذت تعيد الرز إلى القدر، وأسقطت ربعي الدجاجة إلى القدر الآخر، غطت القدرين، غسلت الطبق والملعقة، وضعتهما في مكانهما، ثم التفتت لنعيم وبدأت وصلة الشتيمة.

كانت عطيات قد اعتادت منذ مدة طويلة على شتم نعيم، تطور الأمر في بعض الأحيان لقذفه بالأشياء التي تقع تحت يدها، لكنه لم يتطور للضرب مطلقاً، كان الضرب استثناءً كبيراً بالنسبة لعطيات، كان الخوف من نعيم لا يزال يشغل قلبها. لكن عطيات طالما اعتقدت أن نعيم لا يفهمها، أو أنه لا يسمعها، لذلك اضطرت للصراخ ولقذفه بالأشياء. حافظ نعيم على هدوئه طوال الوقت، وكلما بدأ القذف، استدار معطياً ظهره لعطيات، تاركاً المقذوفات لتصيب ظهره.

عزمت عطيات على أن يكون هذا هو الشجار الأخير، لذلك اتبعت أسلوباً جديداً في إيصال الشتائم.

تشير بسبابتها لنعيم؛ أنت. تشير مرة أخرى بتوتر وعصبية؛ أنت أنت. تنفي بسبابتها؛ لن. ثم تضم أصابع يمناها وكأنها تمسك لقمة، وتشير بها إلى فمها؛ أكل.. تأكل. تعيد العملية كلها مرة أخرى، تكرارها مرات عدة؛ أنت لن تأكل...أنت لن تأكل.

تشير بسبابتها لنعيم؛ أنت. بقبضة مضمومة الأصابع يواجه ظهرها الأرض، تتجه من صدر نعيم إلى صدرها؛ تأتي. ثم تفرك

@3abeth

سبابتها وإبهامها، فركاً مستمراً؛ فلوس. وتهز سبابتها يميناً ويساراً بانفعال بالغ؛ لا لا لا. وأخيراً تدير كفها المفتوح في الهواء؛ لماذا؟ تكرر كل ما سبق؛ لماذا لا تأتيني بالفلوس؟

تحاول عطيات جاهدة الربط بين قلة دخل نعيم وبين منع الطعام عنه، تريد أن تعلمه بأنه لن يأكل الطعام إلا حينما يأتي بالمال. هذه كانت صعبة للغاية، أولاً: لأن عطيات ولأول مرة منذ سنين طويلة تستخدم لغة الإشارة مع نعيم، ثانياً: لأنها تعتقد أن نعيم غبي ولن يدرك الرابط بين الأمرين.

على الأقل، فهم نعيم أنه محروم من الطعام اليوم.

تابعت عطيات بحزم، تشير له؛ أنت، أنت أنت. ثم تفرد ذراعها إلى أقصى مدى ممكن، شاهرةً سبابتها نحو الباب، مكشرة عن أنيابها، بجبهة مغضنة وحاجبين معقودين؛ مطرود خارج البيت. ولأن الطرد فعل تقوم به لأول مرة في تاريخهما المشترك، اضطرت لرفع مستوى انفعالها، أو أن ذلك أتى كرد فعل تلقائي على فداحة فعل الطرد، فأخذت تشير إشارات مبهمة، وتلحقها بكلمات متقطعة، بصوت عالي، ثم بصوت منفعل مبحوح، وظلت تكرر، برا برا برا. ثم قالت وهي لا تزال تشير بذراعها إشارات منفعلة مختلطة: أنت لا تأتي بفلوس، طلبت منك الفلوس مراراً وأنت لا تهتم، لن تأكل، ولن تبيت في البيت أيضاً، نم على السلم أو في الشارع، أو في دكان الخرابة الذي تعمل به. قالت الخرابة لكنها لم تستطع وصفها بيدها، هذه كانت

@3abeth

كلمة صعبة الوصف.

أدرك نعيم أخيراً أن عطيات علّمت عليه، واحد ـ صفر لصالح عطيات، ويجب عليه الآن مواجهتها في محاولة لاكتساب بعض النقاط والتعليم عليها، بدأ نعيم في الكلام، ويا ليته ما تكلم، خرجت كلماته لا معنى لها، غير مترابطة، محض جنون وتناقض، هذا ما اعتاده نعيم في الثلاثين عاماً السابقة، لا شيء جديد اليوم، كانت هذه أحد دلائل غباء نعيم بالنسبة لعطيات، وبالنسبة لكل معارفه، إذا كان نعيم يدرك أنه لا يتكلم، يدرك أنه مصاب بالحبسة، فلم يتكلم ناطقاً كلمات غريبة غير مفهومة، لم لا يصمت ويخرج دفتره الصغير ليكتب فيه ما يريد قوله؟

لكن إهانة نعيم وطرده من بيته هذه المرة أضافا انفعالاً زائداً لكلماته، فبدلاً من الخنوع الذي اعتاده دوماً، رد هذه المرة على شتائم عطيات بغضب بالغ، بل وانفعل وأخذ يلوح بذراعيه في غضب. أخذ يضرب صدره بقبضته، مشعلاً غضباً كامناً داخله، مؤججاً نار ثورته الخاصة، ثم أخذ يضرب رأسه وكأنه يقول لنفسه: أفق من سباتك. ثم تطور الكلام المتناثر من فمه، فمن فرط انفعاله، أخطأ في لفظ بعض الكلمات التي لا يقصدها ـ أو يقصدها، فالأمر أصبح محيراً بالنسبة لي ـ وأخذ ينطق جملاً صحيحة متزنة ذات معنى لأول مرة منذ ثلاثين عاماً. للأسف ـ ولا أعلم على وجه اليقين ماذا قصد نعيم في الأصل ـ كانت جملاً بالغة القبح والسخافة، تصف أسباب اتساع فرج عطيات، مؤكدة أن أحد أهم الأسباب، شباب الفجالة الذين اعتادوا على النوم معها

@3abeth

كل يوم على سريره.

صمتا طويلاً، هي ساكنة تحدق فيه وهي ترتجف، وهو ساكن يحدق فيها ويتنبأ بملمس البلاط البارد على خده، سيستلقى عليه بعد دقائق، فلا داعي للتعجل. تذكر نعيم نكتة بالغة السماجة؛ رجل أحول يحاول إدخال عصفور أحول داخل القفص، مد الرجل يده ممسكاً العصفور خارج القفص لأنه أحول، طار العصفور محاولاً الهروب، فدخل إلى القفص لأنه أحول.

بدأت عطيات ضرب نعيم بيديها المجردتين، مع تيار جارف من السباب، ثم أوجعتها يدها، فأخذت تبحث عن أداة تؤلم نعيم، وفي نفس الوقت ـ ألحت غريزتها الأنثوية ـ لا تصيبه بأذى، لم تجد شيئاً يصلح للمهمة، فعادت تضربه بكفها وقبضتها مرة أخرى، على رأسه ووجهه وصدره، اتخذ نعيم الوضع السلحفائي المفضل لديه، غطى رأسه، ثنى عموده الفقري، وأدار ظهره لعطيات، التي بلعت الطعم كما بلعه كل من قام بضرب نعيم من قبل، وانهالت ضرباً على ظهره بكل قوتها.

أدرك نعيم أخيراً أنها لن تكف إلا إذا كسرت عموده الفقري، تذكر العشرين جنيها التي أخذها اليوم، سيذهب إلى مطعم قريب ويأكل دجاجاً كما أراد، ثم يعود لينام في الدكان، كل هذا سهل، وعليه الآن أن ينسحب من قصف عطيات لظهره. تحرك نعيم نحو الباب قاصداً الهروب، في نفس الوقت، ضاعفت عطيات من حدة ضرباتها،

@3abeth

كانت تعلم أنه ينسحب، وظلت تضغط بعنف وغضب بالغ حتى يسرع بالهروب، ودَعته بالضرب والسباب، وأضافت في النهاية اللمسة المصرية الأصيلة، بعابيص كثيرة انهالت عليه أثناء الخطوات الخمس الأخيرة نحو باب البيت، بعابيص عطيات ودعته حتى باب البيت، ثم توقفت تماماً عن الضرب وجعلت من الباب حداً للضرب والبعابيص، لكن شتائمها ودعته حتى اختفى صوت خطواته وخرج من العمارة.

عادت عطيات الى داخل الشقة وهي تترنح من التعب، توشك على الانهيار، لكنها تحاملت واستمرت تمشي ببطء نحو المطبخ. وصلت ورفعت أغطية القدور، أخذت تأكل الرز من القدر مباشرة، أكلت صدر دجاجة ورمت العظام في القدر مرة أخرى، أكلت صدراً آخراً، ثم أكلت المزيد من الرز، أخذت تحشر فمها بالرز، ملعقة تلو ملعقة، حتى عادت غير قادرة على المضغ، فأخذت تبلع حبات الرز بدون مضغ، واستمرت في حشو فمها بالرز، أخيراً، دخلت حبات قليلة في مجرى الهواء بدلا من البلعوم، أخذت تسعل وتدق صدرها، في محاولة لإنقاذ مجراها الهوائي من حبة الرز، تمخطت ثم شخرت، ثم تمخطت مرة أخرى، فجأة ارتفعت الحبة من قصبتها الهوائية حتى تجويف أنفها، كانت عطيات تشعر بها تشغل حيزاً من الفراغ الضيق للتجويف الأنفي، الجزء الأيسر غير مستريح، شخرت مرة أخرى راغبة في بلع الحبة بدلاً من هذا الوضع المؤلم، عاودت الشخر، لكن الحبة كانت قد توقفت إلى الأبد بين الأنف والعين اليسرى، في النهاية، ولما لم تجد نتيجة، سدت فتحة أنفها اليمنى باصبعها، وتمخطت بكل قوتها لتخرج

@3abeth

الحبة من فتحة أنفها اليسرى كالرصاصة. استراحت لثوان قليلة، ثم تابعت حشر فمها بالرز، حتى أنهت كل ما في القدر. كادت عطيات أن تنهار من كثرة الطعام، أصبحت غير قادرة على بلع حبة رز واحدة، مشت بصعوبة إلى كنبة الصالة، واستلقت عليها وقد راحت كل قواها، ظلت تلهث لمدة طويلة.

في تلك الليلة، أثناء تمدده في الدكان، تمنى نعيم الموت، أحصى الأعوام فوجد أن ثلاثين عاماً قد مرت على إصابته بالحبسة، كان قد أنهى قاموس نعيم/ وهيب...وهيب/ نعيم المشترك. كان قد أتم المئات من دفاتر الخالدين، لكنه كان يعلم أن الموت سيستمر إلى الأبد. كان قد اجتهد كثيراً ليوفر المال اللازم للحياة، لكنه أيضاً كان يعلم أن دورة المال أبدية. كان قد تلقى الكثير من البعابيص في حياته، تلقاها طائعاً أو مكرهاً، حتى أيقن أن البعابيص أحد حقائق الدنيا الفانية. كان قد ملّ كل ما حوله، ملل يصيب ثور الساقية وترس الآلة، ملل هو سبب محرّك للمشرفين على الانتحار، نعم، الانتحار حل مثالي في حالته، سيتخلص من كل الدورات والواجبات والمهمات المرهقة والبعابيص في حياته، وبالنظر إلى وثيقة التأمين القديمة، تلك التي ابتاعها عندما كان شاباً، سيرحل ويترك لأولاده ما يغنيهم لمدة طويلة، نعيم أب مخلص ضحى طوال حياته من أجل العيال، وها هو يضحي مرة أخرى من أجل العيال.

@3abeth

أيها الشعب المصري العظيم.

أخاطبكم بصفتي مواطن من هذا البلد، أخاف عليه، وأود أن يستمر خالداً على الدوام، قوياً، شريفاً، طاهراً. لقد عشت عمري كله أتأمل حال مصر، قرأت تاريخ مصر كاملاً، ومن خلال هذه القراءة، ومن خلال التأمل، توصلت لاستنتاج مهم، أرجو أن تقرأوه بعناية، وأن تتصرفوا طبقاً لضميركم المصري بعد قراءته.

واجهنا الكثير من الصعوبات خلال الأعوام الثلاثين الماضية. هذا ما لا شك فيه.

لكن الشعب المصري تمكن من مواجهة كل تلك الصعاب، وتمكن من التغلب عليها، بل وتمكن من التنبؤ بما قد يحدث مستقبلاً من أهوال، وأيضاً تمكن من الإعداد لمواجهتها، لو لم يكن منعها ممكناً.

كنا دائماً نعمل كيد واحدة مع الرئيس محمد حسني مبارك، محافظين على النظام الجمهوري. مؤمنين بأنه الربان الماهر، والقائد الحكيم، وبطل الحرب والسلام.

كنا أفضل حالاً مما كنا عليه في الأعوام السابقة لحكم مبارك، كان أ

فضل من عهد الثورة، وعهد الحرب، وعهد السلام

@3abeth

القلق، كنا في القمة، وخاصة، خلال السنوات السبع الأخيرة.

خلال تلك السنوات، تحول المجتمع المصري إلى مجتمع مزدهر، إلى مجتمع شبه كامل؛ امتلكت كل عائلة مصرية سيارة خاصة، امتلكت كل عائلة مصرية جهاز تكييف هواء أو أكثر في بيتها، زادت مبيعات المياه الغازية كثيراً، بل ربما تغلبت على الشاي، المشروب الرسمي للمصريين، صار أبناء كل مصري يتعلمون تعليماً خاصاً، بعيداً عن المدارس الحكومية، في وعي شعبي بانعدام مسؤولية الدولة عن التعليم. صار التعليم الخاص تعليماً راقياً، مثالياً، حتى وإن لم يلتحق الطالب المصري بمدرسة خاصة، كانت هناك دائماً فرصة لتعليم خاص مرن، يتمثل في الدروس الخصوصية، تلك التي تعتبر إضافة فعالة وواعية للطلاب المصريين، نهضة تعليمية، تحولت فيها المدرسة لمجرد مكان للتجمع الصباحي، والدردشة بين الأصدقاء، وتقضية وقت الفراغ للترويح عن النفس، وفي نهاية العام، مكان لأداء الامتحان. بينما التعليم الحقيقي يتم بطريقة واعية ودقيقة في أماكن أخرى، المراكز التعليمية، بيوت المدرسين، والشكل الأكثر رقياً وتحضراً، بيت الطالب نفسه.

سأكتفي بوصف حال التعليم في مصر، لتبيان مدى التطور الذي أصاب كل القطاعات الحياتية، ولكم أن تقرأوا

@3abeth

التقارير الدولية عن التعليم المصري، كيف تطور، كيف أصبحت آليات التعليم المصري أنجح آليات التعليم في العالم، كيف يندهش عباقرة التعليم في الخارج من فكرة الدروس الخصوصية العبقرية.

كما أني لن أسرد أي ملامح أخرى للتطور في عصر مبارك، فهي أكثر من أن أحكي عنها في كلمات قليلة، فثلاثون عاماً من التطور يجب أن تسجل في مجلدات ضخمة، لا في أسطر قليلة.

أنا هنا سأتحدث عن موضوع آخر، بدلاً من الحديث عن إنجازات الماضي، سأتحدث عن المستقبل، مستقبل مصر والمصريين ومبارك.

لست في حاجة لأن أذكركم بماضينا المجيد، فنحن أقدم حضارة في التاريخ، نحن من اخترع الحكومة في الأصل، والبداية ليست غامضة، بل معروفة للجميع. تمكن أحدهم ـ باستخدام القوة ـ من أن يسيطر على الأراضي المصرية، وأن يصبح ملكاً على مصر، ثم وافق ذلك هوى المصريين، وأيدوه وهتفوا له، ثم كون الملك الحكومة. وهكذا، قمنا بوضع حجر الأساس للعلاقة بين الحاكم والمحكوم، الحاكم يسيطر بالقوة على الأرض والأرزاق، ليؤيده المحكوم، وذلك لثقته في عدالته المطلقة، وسيطرته اللانهائية على كل شيء،

@3abeth

نحن من ابتكرنا فكرة المستبد العادل.

هذا هو الترتيب الصحيح للأمور، يتمكن القائد من السيطرة على البلاد، ثم يرسَم ملكاً، ثم ينزل الشعب إلى الشوارع لتأييده. وهذا الترتيب خير بديل عن فكرة الديمقراطية الفاشلة، هل سمعتم عن تصويت لاختيار قادة الجيوش من قبل؟ هل شاهدتم الناس يرشحون مجموعة منهم للنبوة، ثم يصوتون لاختيار أحدهم نبياً؟ النبوة منحة من الله، يمنحها لمن يشاء من عباده، ليأتي شعب أو جماعة لتعلن إيمانها بالنبي بعد نبوته. هل عرفتم جماعة آمنت بنبي قبل أن يمنحه الله النبوة؟ كذلك المُلك، لا يمكن تأييده إلا بعد السيطرة على المملكة، لا يمكن ترشيحه والتصويت عليه، هذه بدعة تسمى: الديمقراطية.

تلك الديمقراطية أتت بأدولف هتلر، بموسوليني، اللذين حاربا العالم أجمع، دمروا أوروبا بالكامل، وكادوا أن يجروا أمريكا وروسيا إلى الدمار، لكن لأن روسيا دولة غير ديمقراطية، استطاعت أن تقاومهم، ولأن أمريكا دولة تتظاهر بالديمقراطية لتسيطر على شعبها، استطاعت أن تقاومهم. لتنتهي أسطورة الديمقراطية إلى الأبد بموت هتلر وموسوليني.

ولا يبدو الأمر غريباً، حينما نرى أن مصر حُكمت بهذه الطريقة لآلاف السنين، ملكية ملكية ملكية، بعيدة عن

@3abeth

الديمقراطية وأضرارها، يحكمها رجل واحد، فكر واحد، رأي واحد. وتجسدت عبقرية المصري حينما سجلها خالدة في أمثاله الشعبية "المركب اللي فيها ريسين تغرق" فما بالكم بمجلس شعب يحوي مئات الأعضاء؟

لقد كان الرؤساء المصريون بعد ثورة يوليو حريصين تمام الحرص على عدم تطبيق الديمقراطية في مصر، وحتى لما قام السادات بتطبيقها، كان ذلك تطبيقاً شكلياً، كما يحدث في أمريكا، مجرد واجهة لحكم ساداتي ملكي قوي، فمصر لا يمكن أن تتحمل مهازل الديمقراطية الحاصلة في العالم اليوم. اختار السادات أن يختبر ذكاء المصريين، وأن يعرض عليهم الديمقراطية منقوصة، ليشعروا بمقدار البلاء الواقع عليهم، حتى وإن طبقت منقوصة، فما بالكم لو طبقت بشكل كامل حقيقي؟ لكن القدر لم يمهل السادات كثيراً.

واستمر مبارك على نفس النهج، كان أكثر شجاعة وإقداماً، فأفلت الزمام بإرادته أكثر فأكثر، ليكتشف الشعب المصري مساوئ الديمقراطية اللعينة، ومصائب الانتخابات والقوائم النسبية والفردية، وكل هذا الهراء.

كلنا نعلم أن أعضاء مجلس الشعب فاسدون، لصوص، نهابون، كلنا نعلم أنهم يحصلون على مقاعدهم بالتزوير والتدليس وشراء الأصوات. هل هذه هي الديمقراطية؟ هل

@3abeth

الحزب الوطني هو الديمقراطية؟

أصر الرئيس مبارك على ترؤس الحزب، ليتابع بعين النسر الحزب وفساده، كان يتركهم يفسدون في الأرض، يمارسون النهب المنظم والسرقة العلنية، لكنه كان دائما يضع حدودا لذلك الفساد، يعلمهم بأنه يعلم بفسادهم، ويعلمهم أيضاً بحدود فسادهم. كل هذا ليرى الشعب المصري مدى فساد وغباء فكرة الديمقراطية التي يريدها قلة ضئيلة من الشعب، في تقليد أعمى للغرب، لأوروبا المتخلفة الغائبة في ظلام العصور الوسطى. ولم يكن أمام الرئيس مبارك خيار آخر، فقد أشفق من الفوغائيين والجهلة والفوضويين، أقول أشفق ولم يخف، أشفق من ألسنتهم الحادة، لو كان مبارك أمر بحل البرلمان والأحزاب، لكانوا هاجموه وقالوا عنه: ديكتاتور. لكنه أراد أن ينمي التجربة الديمقراطية في مصر، فقط ليرى المواطن المصري الذكي مدى سوئها.

وأظن أن الوقت قد حان لنبذ هذه الفكرة بالكامل، بعد ثلاثين عاماً من الديمقراطية المتصاعدة، والقبضة المرتخية باستمرار، حان الوقت لإلقاء نظرة موضوعية على فكرة الديمقراطية تلك.

في كل مرة، يشكل مبارك الحكومة من عدة وزراء، ولكي يكون هناك تمثيل وزاري حقيقي للشعب، وتطبيق

@3abeth

حقيقي للديمقراطية المشوّهة، يختار مبارك وزراءه من كافة الأطياف السياسية، فكرة ديمقراطية أصيلة، حكومة ائتلافية، هذه هي الطريقة المثالية لإشراك كل التيارات في حكم البلاد، في كل مرة يختار مبارك حكومة كهذه، ويظل يتابعها بعين فاحصة لسنوات تقصر أو تطول، ويتابع المواطن المصري الذكي بعين مشفقة، يريد أن يسأله: ما رأيك؟

لكن تلك الحكومات فشلت واحدة تلو الأخرى، لم تنجح أي حكومة اختارها الرئيس مبارك، الأسوأ، أن واحداً من الشعب المصري لم يفكر في أسباب فشل الحكومات المتعاقبة. ألم يستنتج المواطن المصري أن الحكومات تفشل لأنها ديمقراطية؟ لأنها حكومات ائتلافية تمثل كافة التيارات والأحزاب السياسية؟ لأن الوزراء يكرهون بعضهم بعضا؟ لأن الوزارة أبعد ما تكون عن الاتحاد وأقرب ما تكون للفرقة؟ "هذه هي الحكومة الديمقراطية التي تريدونها" كان هذا لسان حال مبارك طوال السنوات السابقة.

ثم اختار مبارك أخيراً حكومة غير ديمقراطية بالمرة، كل الوزراء أصدقاء، بل إن بعض الوزراء اختار زملاءه، لعلمه بنجاحاتهم الفائقة في أعمالهم الخاصة، رجال أعمال مرموقون، محترمون، مخلصون لوطنهم ولرئيسهم، تعهدوا فيما بينهم على تدمير فكرة الديمقراطية من خلال الإخلاص في العمل، وكانت النتيجة حتمية؛ انتعشت مصر.

@3abeth

سيارة لكل عائلة، تكييف في كل بيت، نهضة عمرانية في ضواحي القاهرة، تعليم خاص يعتمد على الابتكار، مطاعم أجنبية، منتجات مستوردة في مجمعات استهلاكية ضخمة، قروض قليلة الفائدة وسهلة السداد، الكل يقترض ثم يعيش بعدها لتسديد قرضه، يقترض ليتزوج، ليسكن، ليركب السيارة الجديدة، ليعلم أولاده. حياة مثالية قائمة على الاقتراض والعمل الدؤوب بعد ذلك لتسديد القروض. هذا ما يلزمنا فعلاً: العمل.

قام مبارك بتحقيق الشكل الاقتصادي الأمثل لأي دولة، شركات أجنبية ضخمة، تشغل ملايين المصريين، وشركات مصرية صغيرة، يديرها برجوازيو مصر المحترمون، تشغل عشرات أو مئات المصريين، وعمالة ذات تعليم ووعي محدودين، صالحين للعمل الشاق، يديرون عجلة الإنتاج لدى كافة الشركات، الأجنبية الضخمة، والمصرية الصغيرة، أعظم مثال على النهضة الاقتصادية.

كل هذا تم في السنوات السبع السابقة. خلال مدة الحكومة غير الديمقراطية.

سبع سنوات انتقلنا فيها من الديمقراطية الزائفة الجوفاء، إلى الملكية العظيمة القادرة على النهوض بأي بلد. الملكية التي طالما حيينا في كنفها. هل جربتم الملكية أخيراً؟ إليكم الآتي:

@3abeth

أنا أطالب بترسيم محمد حسني مبارك ملكاً على مصر.

ليكن عام التنين هو عام جلوس التنين على العرش، لتصبح تلك أجمل هدية نقدمها لمبارك في عيد ميلاده، ولد مبارك في عام التنين، وجلس على العرش في عام التنين. ليكن عام ٢٠١٢ هو عام التنين حقاً.

مبارك التنين، الشهم، الفخم، القوي، الواثق، الفخور، النبيل، الصريح، المبجل، المفكر، المتحمس، العاطفي، الحاسم، الرائد، الفنان، الكريم، الوفي، تنين الأرض والماء، مبارك التنين.

بالإضافة إلى السبب المباشر والصريح لوضع ثقتي في مبارك، وهو النهضة الاقتصادية، هناك سبب آخر يجعلني أطمئن تماماً لصلاحية مبارك لحكم مصر، وهو مبارك نفسه. لا أود أن يكون حاكم مصر تاجر تبغ أتى من أوروبا، أو رجل احتلها لتحقيق فتح بلد آخر، لا أوده أن يكون أجنبياً. ولا أوده أن يكون مصرياً ملوث الدم، اختلطت الدماء في شجرة عائلته، فدخلها التركي والعربي والمغربي. المصريون أنقياء الدم فقط هم الصالحون لحكم مصر، هؤلاء ورثوا صفات الحاكم من أجدادنا، تخيلوا معي عرقاً مصرياً خالياً من الأجانب تماماً، والأكثر أهمية، حفيد لأحد أعظم الفراعنة في مصر القديمة، كل هذا لم ليكن ليتحقق لولا

@3abeth

حكمة أهل المنوفية النبلاء.

أصر المنايفة على ألا يلوثوا عرقهم الصافي بأعراق أخرى دخيلة، فلم يرتبطوا بأي من المهاجرين إليهم من محافظات مصرية أخرى، أو من بلدان أجنبة أخرى، بل إنهم اختاروا أن ينشروا شائعات عن بخلهم وسوء معاشرتهم للناس، تحملوا سخرية المصريين الحادة بصبر وحلم بالغين، وغرضهم الوحيد كان إبعاد الدماء الأجنبية عن دمائهم الأصيلة، إبعاد الجينات الدخيلة عن جيناتهم الراقية، وهكذا، حافظ المنايفة على جيناتهم نقية، صافية، ألماسية. تحمل كل صفات الخير والصلاح، والقدرة على العمل وبذل المجهود، والصبر على الأغبياء والجهلة، تحمل الذكاء الحاد، والقدرة على اتخاذ القرار، والشجاعة في مواجهة الصعاب. هكذا استمرت جينات المنايفة نقية صافية، منذ زمن المصريين القدماء وحتى اليوم.

والحقيقة أن كل ما تم كان قدراً من الله، والبشر مجرد أسباب، فالله يود أن يمن على المصريين باختيار مبارك ملكاً، وتسير الأقدار لتقوم ثورة يوليو على الحاكم الأجنبي، ثم ليتولى أمر البلاد مصري وهو محمد نجيب، لكن دماءه لم تكن نقية، فتم إقصاؤه بقدر من الله، ثم تولى الرئاسة مصري آخر، بدماء مصرية نقية، لكنها للأسف ليست منوفية، فتوفي بعدما حكم مدة كان فيها السيء والحسن، وعلى

@3abeth

الرغم من إخلاص عبد الناصر، إلا أن لامنوفيته كان لها أسوأ الأثر على حكمه. ثم تولى أمر البلاد محمد أنور السادات، منوفي لكنه مختلط الدم، انظروا الآن إلى الأقدار العجيبة، تابعوا تسلسل الحكام المصريين طبقاً لنقاء دمائهم، وحتى الوصول إلى حاكم مصري منوفي نقي الدم، هذا قدرنا نحن المصريين، هذا عمل الله وتدبيره، فالرئيس مبارك منوفي أصيل، بدم بالغ الصفاء والنقاء، لم يتلوث بأي دماء أجنبية، بل هو وريث سلالة منوفية بالكامل، مئات الأجيال تراكمت تنقل الدماء النقية خلال آلاف السنين، ليتتج في النهاية رجل تمثلت فيه الجينات المنوفية كما لم تتمثل من قبل، إلا في فراعنة مصر العظام.

ولو تتبعنا شجرة عائلة محمد حسني مبارك، لوجدناها تصل في النهاية إلى الفرعون تحتمس الثالث، الذي حكم مصر لخمس وثلاثين عاماً، إذا استثنينا مدة ولاية حتشبسوت. انظروا إلى أوجه التشابه بين الرجلين، فتحتمس هو صاحب معركة قادش، ومبارك هو من نفذ الضربة الجوية الأولى، تحتمس حافظ على استقرار البلاد بالحرب والغزو، ثم اختار طريق السلام والحوار مع أعدائه السابقين، المملكة الميتانية، لأنه رأى أن السلام أصل الاستقرار، وهكذا فعل مبارك، بطل الحرب والسلام. بنى تحتمس الثالث المسلات والمعابد، بينما كانت أعظم إنجازات مبارك

@3abeth

الكباري، استطاع مبارك حل مشاكل كل التقاطعات المرورية عن طريق الكباري. مبارك هو أحد أحفاد تحتمس الثالث عبر سبعة آلاف سنة، خلال كل تلك السنين، حافظت عائلة مبارك المنوفية الأصيلة على نقاء دمائها، ربما لعلمهم بأن أحدهم سيصل في النهاية إلى الملكية مرة أخرى، لكن المؤكد أنهم فعلوا كما يفعل كافة المنايفة، أرادوا الحفاظ على الجينات المنوفية النقية، والأخلاق المنوفية الأصيلة، لعلمهم بأن تلك الأخلاق، هي سر خلاص العالم.

الآن وقد عرفنا أن أقدار الرجلين متشابهة، فما بالنا بالصورة؟

هذه صورة لتحتمس الثالث، رسمتها الفنانة الإنجليزية العبقرية المتنبئة القارئة للتاريخ وينيفريد برونتون، قرأت السيدة برونتون عن تحتمس الثالث، تعرفت على شخصيته، تعرفت على ملامحه، ورسمتها في الثلاثينيات لتحفظها لأجيال مصرية قادمة، انظروا مدى التشابه بين الرجلين؛ العينان، الأنف، الفك، الجبهة العالية، الرأس الشامخ، لا، هذا ليس تشابه، بل هو تطابق، محمد حسني مبارك هو حفيد مباشر لتحتمس الثالث، ولا دليل أكثر وضوحاً من هذا.

@3abeth

ولأن مباركاً رجل حكيم، حافظ على الهدوء
والاستقرار والقيادة الماهرة للسفينة، حتى وصل بنا إلى أول

@3abeth

طريق النهضة الاقتصادية، فلابد أن نكمل هذا الطريق خلفه، قائداً ومعلماً وحكيماً. وإذا أهدينا مبارك العرش هدية، فسيقدم لنا أجمل هدية على الإطلاق، الهدية التي لم يقدمها لنا حاكم لشعبه على مر التاريخ، هدية تاريخية.

سيقدم لنا الحرية.

سنهديه هدية لا يحتاجها، بل نحن من نحتاج أن يقبلها، وهو سيقدم لنا هدية يتوق إليها كل إنسان، في الوقت الذي سنحرمه شخصياً من حريته، فالملك ليس حراً كما نظن.

مبارك سيعيش ملكاً منوفياً مصرياً مختاراً، سيسمح بكل الحريات للشعب المصري؛ الحرية الدينية، الحرية الاقتصادية، الحرية الجنسية، كل أنواع الحريات، ماعدا الحرية السياسية.

كلنا نعلم أن الحرية السياسية لا يمكن أن يتمتع بها الشعب، هي ملك للملوك فقط، أدولف هتلر وصل إلى مستشارية ألمانيا بسبب الحرية السياسية، الشعب الألماني الناجح دائماً بسبب صفاته الجينية المتميزة، فشل في اختيار مستشار يحافظ على ألمانيا، على الرغم من تمتعه بعرق نقي، صحيح أن هتلر كان آرياً نقي الدم، صحيح أن الألمان الآريين هم من اختاروه، لكن تبقى نهاية هتلر ونهاية ألمانيا أوضح دليل على فشل فكرة الانتخاب الديمقراطي والحرية

@3abeth

السياسية. فالديمقراطية كالسم، تفسد أنجح السياسين، وتلوث أنقى الدماء، الحرية السياسية مهلكة الشعوب، مقسمة الدول.

كما أرجو أن نكون عالمين في تحولنا للملكية، أن نمشي في مصاف الدول المتحضرة، ولهذا، أقترح أن نعلن عاصمة سياسة للبلاد، مع الإبقاء على القاهرة عاصمة اقتصادية.

أنا على يقين بأن شرم الشيخ أفضل عاصمة سياسية للبلاد، هي مستقر مبارك منذ مدة، هي مكان مناسب للاجتماعات السياسية، عقدت فيها مؤتمرات وندوات كثيرة، وهي مكان مناسب للعين الأجنبية والغربية، حان الوقت للتغير، حان الوقت لجعل شرم الشيخ عاصمة للبلاد.

فلتكن أمتنا أمة ملكية كما أراد لها الله منذ الأزل، فلنستسلم للفرعون مرة أخرى، بعد التجارب الكثيرة التي مررنا بها والتي كادت أن تعصف بنا، نحن أمة عبدنا الفراعين لآلاف السنين، من غيّرنا؟ من بدّلَ أفكارنا الأصيلة بأفكار دخيلة فاسدة؟

فلنكن مباركيين، أطلب من المواطنين المصريين الشرفاء للنزول إلى الشوارع في الرابع من مايو القادم، منادين بمبارك ملكاً على مصر، فلينزل المصريون إلى الشوارع تأييداً له، مبايعة له، اعترافاً بفضله وأبوته، اعترافاً بعمره الضائع في

@3abeth

خدمة مصر، فلنترجاه لكي يجلس على عرش مصر، سننزل جميعا لنهتف باسمه، لنرسمه ملكاً، لنعلنه حاكماً أبدياً على مصر ومن بعده ذريته، لنحيه على تاريخه ومستقبلنا، سننزل إلى الشوارع لنرسّم مبارك ملكاً، لنعلن شرم الشيخ عاصمة للبلاد، لنرسم التنين على العلم، بدلاً من النسر.

إني أنظر إلى المستقبل لأرى الأيام القادمة تحمل مسؤولية هائلة، لا نستطيع حملها وحدنا، لكن كتفي التنين كفيلتان بحمل الجبال.

ساعدنا يا مبارك!، أنجدنا يا مبارك!، احكمنا يا مبارك!.

@3abeth

خــــلاص

يجلس نعيم على أرضية الدكان، أمامه يجلس وهيب مقرفصاً، هو دليله في الدقائق التالية، هو دليله منذ مدة طويلة، وهذه هي الخطوة الأخيرة.

يأمره وهيب بالاسترخاء، يقول له دع عضلات بطنك، اتركها، هي ليست جزءا من جسدك الآن، ستتدلى مرتخية على حجرك، هذه عضلات موترة للجسد كله، اتركها تستريح، بعد قليل سيتم استنزاف هذه العضلات إلى أقصى درجة، اتركها لدقائق.

يخلخل وهيب بلاطة من أرضية الدكان، يستعين بمسمار طويل، ليقلبها، ويخلعها تماماً، يحفر ما تحتها، يخرج التراب الرطب من الأرض، يتنشق رائحة المطر، ويحس بالنداوة تبرد كفيه، يحفر حتى يظهر السـواد.

تحت طبقة رقيقة من التراب الرطب، يظهر ثقب دائري واسع، يحيط به باقي التراب. ثقب أسود، مظلم. بلا شعاع نور واحد. أو انعكاس لضوء، يمتد عميقاً في جوف الأرض، ويبدو وكأنه بلا

@3abeth

قاع. لا يقاوم نعيم الإغراء، فيأخذ حصاة من كومة الرمال الناتجة من الحفر، وينظر إلى وهيب مستأذناً إياه. ثم يرميها في الثقب، لتختفي تماماً في الداخل، ينتظر طويلاً، لكنه لا يسمع صوت ارتطامها بالقاع.

يخبره وهيب أن كل ما سبق خطوات في طريق الخلاص، لكن تبقى خطوة أخيرة عليه أن يخطوها.

يجلس وهيب وفخذه اليمنى ملتصقة بصدره وبطنه، ينكمش ويسند ذقنه على ركبته المرفوعة، بينما ساقه الأخرى مثنية على الأرض في استرخاء. بهدوء، يرتفع وهيب فوق الأرض، سنتيمترات قليلة، يطفو بهدوء، يسكن تماماً كأنه تمثال شمعيّ. ثم يبدأ لونه في الزوال، ألوان وجهه وشعره وأظافره، تروح وكأنها تتحلل، يتحول جسده إلى نطاق شفاف، بلا أحشاء، بلا أعضاء داخليه. فقط طبقة رقيقة شفافة طافية في هواء الغرفة، تظهر ما خلفها من طاولات وكراسي. يخبر وهيب نعيم بأن عليه أن يصل إلى تلك المرحلة، هذه هي المرحلة الأخيرة، هذا هو الخلاص الكامل.

يقول وهيب لنعيم، إن المُقبل على الموت يتذكر لحظات ومشاهد من حياته بسرعة خاطفة، تمر كالبرق أمام عينيه، هذه ذكريات لا يتذكرها عمداً، بل تمر أمام عينيه عنوة، بلا إرادة أو رغبة، وقد يعلم الواحد أنها مقدمة للموت، إعلام بقرب وصوله، لكنه مع ذلك لا يجزع أبداً، بل يظل مأخوذاً بصور مكررة سبق وأن عاشها وكان طرفاً أساسياً فيها، تبهره جودة الصورة ودقة المشهد. نقل

@3abeth

الكثيرون تلك التجربة لما أخطأهم الموت، كانوا قد اقتربوا كثيراً منه، سقط بعضهم من حالق، كادت سيارات أن تدهس آخرين، أُطلقت أعيرة نارية بالقرب من قلة منهم، وُضعوا في قفص واحد مع أسد أو نمر. كان الموت قريباً، لكنه لم يصبهم أبداً، ربما لأنهم لم يتذكروا ما فيه الكفاية. على نعيم أن يتذكر كل ما سبق الآن، عليه أن يستدعي الموت بإرادته.

نعيم في حيرته ومللِه من كل ما سبق يبدأ في الانهيار، يحاول أن يتذكر ما سبق من حياته، قراراته السابقة الخاطئة، قرارته المبنية على قراراته الخاطئة، يتذكر قراراته المصيبة، فلا يجد إلا قراره بالموت.

أول أيام الحبسة، اكتشاف الحبسة، التعذيب في الموقع، ترك العمل، الالتحاق بالعمل، ثلاثون عاماً من البؤس، أخيراً في شهور يتهي من كل شيء، يؤمن أولاده وزوجته، الدنيا خرابة حقيقية، ومع ذلك هو حريص على تأمين أولاده، هو يكرههم ويكره زوجته، عطيات سبب كل مشاكله، طلب المال المستمر سبب كل مشاكله، الزحف في النفق، البحث عن ورقة، إصدار شهادة وفاة....

اضطرابات معدية تصيب نعيم، حركة محمومة، تتقلص معدته بعنف لتطرد كل ما فيها، دفعتين من القيء، ثم ثلاث دفعات من عصارة صفراء وبيضاء، تختفي كلها في الثقب الأسود أمامه، يرتجف نعيم وعضلات جسده كلها تتقلص مع كل دفعة تخرج من معدته. تخلص نعيم من أدران الطعام، شهوة الطعم المثقلة للجوف،

@3abeth

الآن يخلو جوفه من أي شيء، فراغ تام.

يخبره وهيب أن عليه أن يتذكر ما حدث، كل ما حدث، هو على الطريق الصحيح الآن، يدرك وهيب أنه يسترجع ما سبق، بهذا هو يتعجل الموت، وكلما كان صادقاً في استرجاع ما سبق، كلما كان الموت صادقاً في حركته.

يخبر وهيب نعيم بأن ما فعله غير كاف، يجب عليه أن يستمر، يجب أن يتذكر ما سبق، ثم يجب أن يجسد ذكرياته، يسترجعها ويحولها من صور باهتة إلى لحم ودم وجوامد.

تخرج واحدة لا يعرفها نعيم، حملت بين يديها طفلته الأولى، تخبره أنه أنجب بنتاً جميلة، يتأرجح نعيم بين السعادة والغضب، لكن قلبه يلين قليلاً حينما يحملها. تخرج فتاته الأولى من الحمام مرهقة، تسرع عطيات خلفها وتدخلان الغرفة معاً، يندم نعيم، حينما يعلم بأن أول قطرات الحيض ظهرت، وأن عليه أن ينتظر القطرات الأولى لابنتيه التاليتين. فجأة وبلا مقدمات، يتقيأ نعيم بناته الثلاث، دفقات عنيفة من الأذرع والأرجل والرؤوس الصلبة والشعور الطويلة، تجرح مريئه وترتطم بأسنانه وسقف حلقه. فوضى عارمة تصب في الثقب الأسود أمامه، صراخ وبكاء يملآن المكان، يتخلص نعيم من هم حمله لسنين طويلة، كلام قيل له، عن البنات فاتحات أبواب الرزق، يضحك نعيم وهو يراهن تختفين في الثقب، تيار من الكشاكيل والأقلام وألعاب الأطفال والملابس الوردية وأمشاط الشعر. أحذية وأقلام وملابس

@3abeth

داخلية وصديقات وأولاد كرههم لأنهم غازلوا بناته يوماً، شلالات من حقائق وأكاذيب وأحداث سخيفة كانت بناته طرفاً فيها، سبباً لغضبه وإحراجه، كل ذلك محمل بعار أنثوي سيطر على نعيم لأعوام طويلة، ونجاسة حيض لأربع إناث، طوال أيام الشهر، لعنة تحيط به لثلاثين يوماً، نعيم ليس مثالياً كما يظن الناس، ليس رجلاً طيباً كما يظنه الطيبون، لخص نعيم أزماته في قلة المال وخلفة البنات. يتقيأ حيضاً أسوداً كثيفاً عذبه طوال عمره. أخيراً تسقط كرات سوداء صغيرة، مرنة كأنها قطران متجمد، هذه أسماء بناته التي لم يخترها، بل اختار ألا يتذكرها وألا يناديهن بها أبداً. انتهت بناته إلى الأبد، رحن من ذاكرته، وراح الأسى المرتبط بهن إلى الأبد. يسقط على جانبه وهو يرتجف.

الحفرة بلا قاع، ثقب أسود في أرضية الدكان، يحوي فراغاً هائلاً بداخله، وبعد قليل سيحوي ملايين الذكريات الخاصة بنعيم، يتيقن نعيم من أنه لم يكن أول من فعل ذلك؛ هناك الكثيرون يفعلون مثله، فعلوه في أحد الأيام، سيفعلونه في توقيت آخر، هناك بركة ضخمة من الذكريات والأشخاص تستقر تحت القاهرة، تمدها ثقوب سوداء بالزاد كل يوم. فعل وهيب مثله منذ مدة، ظل يتخلص من كل الذكريات حتى استحال طيفاً طافياً.

هل أتى الموت، ظهر على باب الدكان؟ يصحو نعيم من الإغماءة ليلاحظ أن كل ما حوله كما كان. وهيب طافياً وعلى وجهه ابتسامة محايدة، والموت لم يأت بعد. لم يقترب من الباب أو يظهر ليخطف نعيم، على نعيم الآن أن يعاود التذكر، التذكر يغري الموت،

@3abeth

يثير شهوته.

تتقلص عضلات بطن نعيم ليُخرج كل ما في جوفه في دفعة واحدة كبيرة، كرهه لعطيات، غضبه على رفاق العمل، غضبه على من عذبوه طوال السنوات السابقة، على من أهانوه كلما مر في الشارع، حزنه لضياع جنيهات من جيبه، غضبه على فتى اعتاد ضربه في المدرسة، غضبه على أبيه حينما ضربه أمام جيرانه، غضبه على نفسه حينما تشاجر مع أبيه بعدها بسنوات، وأمام نفس الجيران. غضبه على عطيات لما طردته، ولما اضطرته لفعل كل ما سبق. تغلب نهر القيء على نعيم، وأخذ يخرج كتلاً صلبة ضخمة تفتح فكيه على اتساعهما، وكتلاً أخرى جوفاء تحوي بداخلها روائح وغازات كريهة، ولما توقف القيء من تلقاء نفسه، غالبَ نعيم ذاكرته واسترجع ما فيها مرة أخرى، غالب جسده ودفعه للقيء، لا يمكن أن يتوقف الآن، لا يمكن أن يفقد الوعي مرة أخرى.

أخرج غضبه على ضابط الشرطة، غضبه على الكمساري، غضبه على بائع الخبز، على الشحاذ، على البقال. غضبه على الوزير، على البائع الذي غشه يوماً. أخرج غضبه على الرئيس الحالي، على الرئيس السابق، الأسبق، واختلق غضباً وهميا على الرئيس المقبل، ثم تقيأه. ثم جاء دور عطيات.

يدرك نعيم أن عطيات تحتل جوفه بالكامل، تملأ فراغه، وعلى الرغم من كل الذكريات والأشياء والمواقف التي أخرجها

@3abeth

وراحت في الثقب الأسود، إلا أنه لا يزال يشعر بالتخمة، يتذكر نعيم عطيات برعب. أرهق نعيم كثيراً في الدقائق الماضية، تعرق جسده بالكامل، بدا جسده وكأنه خارج للتو من حمام زيت، مزيّت بعرق شديد الكثافة، لزج كما الكتل الصلبة التي خرجت من جوفه. عضلات نعيم كانت مرهقة، التقلصات والارتجافات أتعبتها كثيراً، ظلت عضلات بطنه مشدودة بغير إرادته، كأن حجراً يطبق عليها ويمنعها من الارتخاء، يصارع نعيم حتى يتذكر عطيات، يصارع ليخرجها، لكن عطيات بإرادة قوية صلبة تبدأ في المقاومة.

تفرد عطيات مرفقيها إلى أقصى درجة، ثم تغرس أظافر يديها في بلعوم نعيم، يتألم، لكنها تصر على عدم الحركة، على إيقاف عملية القيء، ستوقف في بلعومه ولن تسمح بأي حركة بعد الآن، وتقلصات بلعوم نعيم تدفعها عنوة إلى الأعلى، تتضخم عطيات كثيراً، في محاولة منها لإجهاض عضلات نعيم المرهقة، تشغل رأسها فراغ فمه بالكامل، وتمسك لسانه بأسنانها وتقطع منه قطعة دامية، ثم تبدأ في ضرب فكه السفلي برأسها، ضربة وراء أخرى حتى يفقد نعيم فكه السفلي، ينفصل تماماً ويتدلى وكأنه جزء دخيل على جسده، الألم يفقد نعيم وعيه أخيراً.

لكن جسد نعيم لا يستريح، يقوم بالمهمة تلقائياً بدلاً من نعيم فاقد الوعي، تتقلص العضلات مرة أخرى محاولة طرد عطيات، بينما تبدأ عطيات في الركل، تحاول أن تتضخم مرة أخرى تضاعف من

@3abeth

حجمها، تحاول أن تشغل كل فراغات نعيم، رأسها يشغل فمه، وجذعها يشغل مريئه، وساقاها تركلان جدار معدته. تتربع عطيات، تقاطع ساقيها وفخذيها يكون عقدة عند المريء، الآن مهما اشتدت التقلصات، ستظل عطيات باقية إلى الأبد.

يفيق نعيم من غيبوبته، يبكي من شدة الألم، لكنه يتحمل كل ما يحدث، ثم يقلص عضلاته أكثر فأكثر، تكاد رئته اليمنى أن تنهار من فرط ضغط صدر عطيات عليها، كتفا عطيات يمزقان حلقه، ينظر لوهيب الطاقي أمامه يريد مساعدته، لكن وهيب لا يتحرك، ساكن في تحليقه المنخفض. ييأس نعيم، يستسلم، يرخي كل عضلاته، حتى عضلات المعدة المتشنجة ترتخي، لم يعد قادراً على المقاومة والفعل، تنتصر عطيات أخيراً، تشعر بارتخاء عضلات نعيم، تبدأ في مط جسدها، تفرد عضلاتها وتحاول غرس مرفقيها في لحم نعيم، تنتصر عطيات أخيراً، تبدأ في الاهتزاز، ترقص رقصة النصر.

ثم تومض ذكرى بعيدة، قديمة كمرضه، الذكرى التي لاحقته طوال حياته، طافية إلى عينه في أوقات كثيرة، قشرة بيضة ضخمة، أو جزء من كرة، تظهر متأرجحة بين يقين الرؤية وبين استحالة الحدوث. هناك في ظلام الذاكرة، يطل وجه الرجل الميت. لم يكن لنعيم أن يضع اللفافة في فم الميت دون أن يكشف وجهه، حل نعيم قطعة القماش الملتفة حول رأس الميت لتقيد فكه السفلي، تدلى فكه بسهولة، أخيراً، يتذكر نعيم أنه كشف وجه الميت، لم يدخل اللفافة بدون أن يرى الوجه

@3abeth

كما كان يظن، كما سجلت ذاكرته منذ مدة، بل رأى الوجه في ظلمة القبر، في غمامة الضوء الشحيح المنبعث من المصباح، خدعته الذاكرة وأغفلت الوجه حتى اليوم، لم تسجل وجه الميت، وظل يظهر كذكرى باهتة طوال حياته. يرتجف نعيم من فرط الإثارة، هاهو الوجه يبدأ في التحرك، يصعد مخترقاً جوف نعيم الخالي إلا من عطيات. يصعد رغماً عنه، رغماً عن عطيات المسيطرة على جوفه، تحركه إرادته المستقلة، هذه ذكرى أتت بدون رغبة منه، هذه علامة قدوم الموت، الذكريات المندفعة بلا إرادة، الشريط المار قهراً أمام عيني المحتضر. لا يرتعب، بل يتابع صعود وجه الميت بحماس، يحدق في الوجه المتسارع ويسترجع لحظة رؤياه لأول مرة. يندفع الوجه بضغط عنيف وارتجافات مزلزلة، تفك تشابك ساقي عطيات، وتدفع بها إلى الخارج في قسوة، تجرح عظام عطيات جوف نعيم أثناء الخروج، ثم يتبعها وجه الميت، تندفع عطيات في الثقب الأسود بصخب وجلبة، صراخ وشتائم وذراعان يلوحان بهيسترية، تحاول التمسك بالجدران لكنها لا تجد إلا فراغاً أسود، تختفي في الظلام، يتبعها فوراً وجه الميت، قناع رقيق من الجلد، كأنه مشدود على قالب، ينقلب حالما يدخل في فراغ الثقب، تظهر ملامحه بوضوح بالغ هذه المرة أمام عيني نعيم، العينان المحدقتان به إلى الأبد، اللحية النابتة، والفم المفتوح، تلوح اللفافة القماشية في آخر الحلق، مدفونة في جسد مدفون. تصبح تلك الملامح آخر ذكرى متجسدة لنعيم، آخر ما سيراه نعيم، وآخر ما سينساه إلى الأبد. الكل يستقر في الثقب الأسود، أخيراً، يظهر سطح متماوج رقيق بالقرب من

@3abeth

فوهة الثقب، أخيراً، يمتلئ الثقب.

يجف عرق نعيم تدريجياً، يرق جلده ويشف، يتحول إلى قشرة رقيقة حائلة اللون، كأنه هواء ذو ألوان طبيعية نصف شفافة، يظهر جوف نعيم خالياً، فراغ تام، يتحول نعيم إلى مجرد إطار للفراغ الذي كونه للتو. ثم في بطء وهدوء، يشع الإطار الذي كان هو نعيم نفسه نوراً هادئاً، ويطفو....

@3abeth

غـــايـة

يتحرك موكب النادمين متجهاً إلى ميدان التحرير، هو أول المواكب الضخمة والعديدة التي ستتجمع اليوم في الميدان. في المقدمة، يسير البرادعي حافياً، عارياً تماماً، منظره هكذا، يذكرنا بغاندي، يبكي بحرقة، نظارته مغطاة بالدموع، جسده مغطى بالدم، جرحٌ في كل سنتيمتر مربع من جسده، كأن أحدهم سلخ جلده وترك جسده قطعة لحم حمراء دامية، يمشي بخطوات مترنحة من شدة الإعياء، يمسك سوطاً قصيراً مرناً، يتفرع مقبضه لعدة أطراف مرنة، علق في كل منها موسى صغيرة، يضرب البرادعي ظهره بالسوط كلما خطا خطوتين، راح صوته من كثرة صراخه، وتحول كل ما يخرج من فمه إلى فحيح، تكسرت أسنانه من شدة ضرب الناس له، اعتدى عليه الكثيرون أثناء سيره في الموكب، قطع أحدهم أذنه، وأخذ يمضغها، ضربه آخر بسيفه ضربة غير دقيقة، لامس السيف فروة رأس البرادعي، ليسلخ جزءاً مستديراً من جانب رأسه، بينما ظل شريط دقيق من الجلد يصل الجزء المسلوخ بباقي الرأس. يتدلى الجزء المسلوخ دامياً إلى جانب رأسه، يهتز كلما تحرك أو ضرب نفسه بالسوط. يتمتم بفم تكسرت أسنانه: سامحني...سامحني.

@3abeth

يسير خلفه المئات، معارضون وسياسيون وأعضاء في أحزاب وحركات وجمعيات أهلية ومدنية وجمعيات حقوق الإنسان، وجمعيات ممولة من الخارج، يسير معهم الجواسيس والعملاء والخونة، كل واحد منهم علق لافتة على صدره العاري، علقوها بمسامير صغيرة، سمروها على أجسادهم، كتب كل واحد منهم على لافتته كلمة واحدة تصف ما فعل؛ خيانة؛ سمسرة؛ تسبيب؛ تجسس؛ إهانة الرئيس. يمرون بين صفوف الناس وهم عرايا، بلابيص لا يسترهم إلا لافتاتهم. يمشي الموكب ببطء بالغ، بضع مئات فقط، لا يتعدون الألف، هؤلاء البقية الباقية من المعارضين للرئيس مبارك، انتحر جزء كبير من المعارضين الباقين، وقتل المصريون الجزء الآخر. هؤلاء من عارضوا مبارك في أحد الأيام، هؤلاء من ظنوا أنهم أجدر من بقيادة البلاد، هؤلاء من تظاهروا ضده، وهتفوا معلنين أنهم معارضون. النادمون.

من الشمال الشرقي، أتى موكب المنتصرين، ارتدى الجميع ملابس كرنفالية تشي بالفرحة والسعادة، ارتدت السيدات والفتيات ملابس محتشمة وأنيقة، ملابس سهرة فاخرة، ملونة بمئات الألوان، مزركشة بالريش والخرز والجواهر. كن سعيدات، كل منهن تحكي عن ذكرياتها حينما قابلت السيدة الأولى، أو حينما تحدثت مع زوجة ولي العهد، يحتفظ الجميع هنا بذكريات مشرفة وفخمة للقاءات متعددة، بعضها قصير، بعضها طويل، الجميع قابلوا مبارك أو أحد أنجاله، أو واحدة من زوجات أنجاله، بعضهم يفخر بأنه حمل حفيداً من أحفاده، بعضهم يفخر بأنه كان يحرس أحد الأحفاد أثناء خدمته العسكرية في

@3abeth

القصر. أخذ أحدهم يحكي حكاية خاصة به، قال إنه سيعلنها لأول مرة، أقسم أن ما سيحكيه حدث، رد الجميع عليه: سادق! قال إنه قابل حسني مبارك في أحد الأندية بالصدفة، كان ذلك في التسعينيات، عندما كان يلعب الاسكواش، قال إن مبارك دخل إلى المصعد أثناء وجوده به، حياه تحية مقتضبة واثقة، وابتسم ابتسامة صغيرة، ثم استدار وضغط أحد أزرار المصعد، يقول الرجل إن دمه تجمد في عروقه، أخذ بما حدث، لكن القادم أكثر رعباً، قبل وصول المصعد إلى الطابق المطلوب، أطلق مبارك عطسة قوية، عطسة أسد هصور قضنفر، يصدر الرجل صوتاً مستخدماً فمه، عطسة مشبعة بزئير، ليشرح صوت عطسة مبارك، ثم يقسم بالله أن ما يحكيه حدث، فيرد السائرون حوله: سادق! يقول الرجل إن القادم أكثر رعباً، أصاب رذاذ العطسة يده، أصاب ظاهر الكف، شهق الجميع، حتى من كانوا يتعاملون مع الرجل بحكايته باستخفاف وتكذيب شهقوا أيضاً، الكثيرون يكذبون حينما يتحثون عن مقابلاتهم المختلفة مع الرئيس أو أحد أفراد العائلة، لكن لم يتجرأ أحدهم فيما يتعلق بالسوائل طبيعية الإفراز. ينظر الرجل بثقة لمن حوله، تغلب أخيراً عليهم، أصابه رذاذ عطسة مبارك وبارك يده. يقول الرجل وهو يتذكر: كولونيا والله كولونيا. يرفع الرجل كفيه، ليحدق الناس فيهما بحسد، يقول وقد رسم على وجهه الجدية: هذا وضوء مقدس، وضوء خالد، لم أغسل يدي حتى اليوم. لازالت آثار العطسة ملتصقة بها.

يتصدر الرجال بهاماتهم المرفوعة المشهد، هم أيضاً فخورون بمعارفهم وعلاقتهم واحتكاكهم بمبارك وعائلته، مشوا متقاربين مرفوعي

@3abeth

الرأس، منتصرين، بصدور منتفخة عالية، وهامات تتحرك بثقة وحماسة. ولأن درجة الحرارة في ارتفاع هذه الأيام، والجو لا يحتمل السترات الثقيلة وربطات العنق، فقد اتفقوا على ارتداء زي موحد، ياقة قميص بيضاء، تحيطها ربطة عنق صغيرة، وأساور قميص، ولباس داخلي أنيق، مطبوع على مؤخرته صورة لمبارك شاباً. طلب المنتصرون تصنيع هذا اللباس خصيصاً لهذا الحدث العظيم، لكن شباب المنتصرين حرصوا على الاختلاف، رحم الله أيام الشباب، أصروا على إضافة الترتر والخرز الملون والكتابات الفنية لأبلستهم، بعضهم أضاف أضواء صغيرة تومض كل عدة ثوان مكان عيني مبارك، يمشون جماعات ومؤخراتهم تتغامز بأنوار صغيرة؛ المنتصرون.

من الشمال يأتي الفلاحون وسكان الدلتا، ومن الجنوب يأتي المزارعون والصعايدة، يأتون في مواكب ضخمة، هؤلاء أهل الكرم والجود، يجودون بأشياء بسيطة رخيصة، لكنها عظيمة القيمة، كل منهم يحمل هدية إلى الملك وولي العهد، فطير، جبن قديم، جبن قريش، فسيخ، ترمس، حلبة خضراء، حب العزيز، حمص، دجاج بلدي، ديوك رومية، هؤلاء هم عماد الدولة المصرية منذ قديم الأزل، يعملون ويجتهدون ويعيشون على الكفاف، حتى يعيش سكان المدن في حضارة ورقي، إنكار للذات وتفان في العمل، يتعب الكثيرون لترتاح القلة.

تستقر المنصة في منتصف الميدان، هائلة الاتساع، بيضاء تماماً، عالية، ترتفع بمقدار تسعة وتسعين درجة فوق الميدان، ثم تضيق وترتفع درجة واحدة، فوقها يستقر العرش، بسيط، لكنه فخم يليق بما

@3abeth

سيحدث اليوم، ينتظر الملك ليجلس عليه أثناء التتويج، ليصبح رأس الملك أعلى رأس في البلاد.

أرّقت فكرة رأس الرئيس العالية رجال الحزب، من الضروري أن تظل رأس الرئيس أعلى رأس في الميدان، أعلى رأس في أي مكان. يتذكرون ما حدث لسكرتير الرئيس، كان الجميع يشعرون بالحرج حينما يمشي سكرتير الرئيس إلى جانبه، الرجل أطول من مبارك بسنتيمترات قليلة، لكن فرق الطول هذا كان ظاهراً في كل الصور الملتقطة لهما، في تسجيلات الفيديو، كلما ذكر أحدهم اسم سكرتير الرئيس، تذكر السامعون طوله الفارع. حاول الرجل طوال عمره الانحناء أمام الرئيس، كان ينحني حينما يحدثه، حينما يمر من جانبه، ثم صار ينحني وهو جالس على مكتبه، ينحي أثناء سيره في القصر، ثم أصبح ينحني أثناء قيادته للسيارة، أو أثناء استراحته على شاطيء الاسكندرية، ثم صار ينحني وهو نائم، وينحني عندما ينظر إلى الأعلى. وفي أحد الأيام بعد كل تلك المجهودات اكتشف حدبة في ظهره، تحدب ظهره أخيراً، وقل طوله سنتيمرات قليلة، ليصبح في النهاية أقصر من الرئيس بسنتيمتر واحد، فرح الجميع بهذا التطور الجسدي المحمود، هنأوه على ما حققه من إنجاز، وأشادوا بمثابرته واجتهاده وجهاده، كان يرد عليهم على كل المهنئين: أنا أنحت في الصخر، ويرفع يديه كأنهما مخلبان. صار لقبه: أحدب مبارك. كان الرجل يحمل اللقب بفخر بالغ، يسعد كثيراً حينما يخاطبه أحدهم بهذا اللقب، يطرق مبتسماً، ويتذكر سنوات الكفاح من أجل الحدبة.

استشار رجال الحزب بعض علماء الفلك، ناقشوهم في مسألة

@3abeth

الرأس العالية، يجب أن تظل رأس الرئيس أعلى من جميع الرؤوس، خاصة في لحظة التتويج. طمأنهم علماء الفلك، لا مشكلة على الإطلاق، أخبروهم بالحقيقة العلمية المؤكدة: نقطة منتصف ميدان تمثل أعلى نقطة على مستوى كوكب الأرض، لو مددنا مستوى أفقيا تخيليا مركزه هذه النقطة، لو مددناه إلى ما لا نهاية، لما وجدنا نقطة أخرى تعلوه على مستوى كوكب الأرض، ولو تم وضع العرش فوق منصة ترتفع مائة درجة عن الأرض، لأصبحت رأس الرئيس أعلى من أعلى نقطة على الإطلاق، أعلى من المباني المحيطة، وأعلى من المباني الأبعد.

رأى رجال الحزب أن كل المباني يجب أن تُخلى تماماً من قاطنيها، فقد يتواجد أحد السكان على السطح أثناء جلوس الرئيس على العرش، فيصبح رأسه أعلى من رأس الرئيس، ويفسد برأسه الغبية حفل التتويج. وحتى مع تأكيدات علماء الفلك، لا يمكن تجاهل موضوع رأس الرئيس أبداً، إذا استلزم الأمر، سيتم هدم مباني وسط البلد كلها. تم إخلاء كل المباني صباح اليوم، لا سكان، لا حراس، لا قناصة، لا رأس يعلو فوق رأس النظام، يجب أن يطبق النظام.

يقف مئات من أبناء الشعب المصري فوق الدرجات التسعة وتسعين للمنصة، ينتظرون لحظة التتويج، هؤلاء لهم وظيفة محددة، سيعرفها الشعب المصري بعد قليل، هؤلاء ليسوا مجرد حضور أو شهود، الكل شاهد على ما سيحدث اليوم، الشعب المصري سيشاهد حفل التتويج كاملاً، منقولاً على الهواء مباشرة، عبر القنوات الفضائية والأرضية والراديو والانترنت.

@3abeth

انتشر الآلاف من رجال الحراسة الخاصة بين الناس في الميدان، انتشروا على الأرصفة، في الطرقات والحواري والشوارع الصغيرة، أمام محلات عصير القصب والمقاهي، كانوا يرتدون ملابس مدنية، كنوع من أنواع التمويه، لكنهم كانوا معروفين للجميع، ما أن يمر الواحد أمام حارس مبارك الشخصي فيقول، اطمئن، نحن نحبه. أو يقول: اذهب إلى بيتك واسترح، لا داعي لتواجدك اليوم، سينتهي اليوم نهاية سعيدة. الحرس الشخصي لمبارك؛ رجال بمقاس واحد، أطوال ثابتة موحدة، أحجام وأوزان ثابتة، قالب واحد استمر ينتج هؤلاء البشر، يصنعهم من سبيكة بشرية ممتازة، صلبة، مرنة، مراوغة، حادة البصر، والأهم: غبيّة. الوجوه فقط هي ما تختلف من حارس لآخر، أما أطوال الأجساد وأقطار الخصور والصدور فموحدة، يقال إنهم يقيسون أعضاءهم، هناك مقاس مثالي للعضو، لا أقصر ولا أقل، لا أسمك ولا أخف. هذا المقاس المثالي يتيح لصاحبه استدارة سريعة وخطفة مفاجئة للسلاح وتسديد صائب وطلقة واحدة موفقة، يحدث ذلك في حال تعرض الرئيس للهجوم أو للاعتداء.

في كل دقيقة، يتلقى الجميع معلومة من خلال اللاسلكي، النسر قادم، النسر آت، النسر يحلق، النسر يستعد للهبوط، النسر آمن...النسر آمن...النسر آمن.

ظل سكان جمهورية مصر العربية يتوافدون على الميدان طوال اليوم، في النهاية وقبل أن يصل الموكب التشريفي ظهر المباركيون.

خلال الأيام القليلة الماضية، رفع هؤلاء دعوى أمام محكمة الأمور

@3abeth

المستعجلة، يطالبون حكما مستعجلاً يأمر بإضافة ديانة أخرى للديانات المعترف بها في مصر، وهي الديانة المباركية. هؤلاء كانوا يعبدون مبارك سراً، ينظمون الصلوات لمبارك في السر، قبلتهم كفر مصيلحة، ويحجون إلى مصر الجديدة في مايو من كل عام. أعلن هؤلاء أثناء نظر الدعوى أن المباركية ديانة مدنية تعددية متسامحة مع الديانات الأخرى، يمكن أن يعتنقها أي مؤمن بديانة أخرى، وأنه لا تعارض بين الديانات السماوية والمباركية، فالمباركية لا تنكر وجود الله، وهي لا تدعي أن مبارك خالق، حاشا لله، لكن مبارك مقدس، لا يموت، وإذا مات فإن روحه ستحل في جسد أكبر أولاده، الأمر الذي سبب أزمة بين الولدين. بعض المباركيين كان ينتهي من صلاة الظهر، ليتوضأ مرة أخرى ويصلي صلاة الضربة الجوية الأولى، وميعادها الساعة الثانية ظهراً. أو يصلي صلاة الجبنة النستو، وهذه في السابعة صباحاً، بعضهم كان يصلي صلاة الاسكواش، وهذه في الرابعة عصراً. كان بعضهم يعود من عمرة رمضان ليقوم فوراً بعمرة الكباري، وفيها يسعى المباركيون على أحد كباري مبارك سبعة أشواط، يفضل الجميع كوبري قصر النيل، حيث مشهد النيل الممتع، حدث هذا بعد دحض الادعاء السابق، وإزالة اللبس التاريخي الشهير، حيث كان المصريون يعتقدون أن الخديوي اسماعيل هو من أمر ببناء كوبري قصر النيل، لكن تم اكتشاف الحقيقة أخيراً، فقد أمر الرئيس مبارك ببناء كوبري قصر النيل عام ١٩٨٢، وتم الانتهاء من الكوبري في عام ١٩٨٥، يفضل المباركيون السعي بين الأسود الأربعة على طرفي كوبري قصر النيل، هذا الكوبري الذي استعادوه بعد بحث تاريخي مضني.

@3abeth

يأتي المباركيون بكل رزانة وثقل، يرتدون ملابس بيضاء دلالة على سعادتهم الغامرة، يأتون بوجوه محايدة، لا يبالغون في النفاق كما فعل الدلتاويون، لا يبالغون في الفرحة الساذجة كما فعل المنتصرون، وبالطبع لم يذرفوا دمعة واحدة كما فعل النادمون، هذا لأنهم كانوا واثقين من النجاح. قبل يوم واحد من التتويج، أعلن القاضي أن إيمان المصريين شأن خاص بهم فقط، وأن الدولة والدستور يكفلان لكل المواطنين حرية العقيدة. وأصدر حكماً تاريخياً بالاعتراف بالمباركية ديناً مصرياً مدنياً علمانياً يمينياً محافظاً حراً.

تلا دخول المباركيين صمت مهيب، كان دخولهم إشارة لقرب دخول الرئيس مبارك، الجميع في حال من الترقب، صمتوا لأن الموقف كان أكثر هولاً من يلوث بالكلام. ظهر أخيراً الرئيس محمد حسني مبارك متقدماً الموكب، النسر يتقدم.

في المقدمة، سار محمد حسني مبارك بخطوات واثقة، بدا عليه تأثره بالسن، لكن لم يبد عليه أي علامة من علامات الإجهاد. كانت الحركة المحمومة خلفه تنبئ بموكب بالغ الضخامة، مئات الحراس الشخصيين انتشروا حوله، أمامه وبجانبه، قريبون منه، بعيدون عنه، حريصون على التحديق في عين كل من يقترب من الرئيس، ينظرون نظرة من يقول: ماذا تريد؟ فيبتعد الناظر بعينه إلى الناحية الأخرى، مرتعباً. النسر يطغى.

كان نجلا الرئيس حاضرين بقوة خلفه، يسيران بخطوات واثقة وابتسامة منتصرة. تحير الناس؛ من سيرسم ولياً للعهد اليوم؟ ثم

@3abeth

ظهرت مجموعة ضخمة جداً من الوزراء السابقين، أربعة آلاف وزير، مشى بعضهم متماسكاً على قدمين، مشى الكثيرون وهم يتسندون على عصي، بينما استقر الأغلبية على كراسي متحركة، يدفعها آخرون، هؤلاء حماة مبارك وأكباش الفداء، أصر مبارك بإخلاصه الفريد أن يشاهد كل هؤلاء حفل تتويجه، لولاهم لما وصل إلى تلك الحال أبداً، نعم، فمبارك رجل يعترف بالجميل. النسر حنون.

يصعد الرئيس مبارك درجات المنصة، بتمهل وتثاقل، أيضاً ارتقاؤه للدرج لا يحمل تثاقل المريض المسن، بل تثاقل القوي الواثق من نفسه. النسر واثق.

في الأعلى، عند الدرجة التاسعة والتسعين، ينتظر رئيسا مجلسيّ الشعب والشورى، ينتظر البابا وشيخ الأزهر، ينتظر تاج مصر الجديدة فوق طاولة صغيرة مغطاة بالقطيفة الخضراء، نعم، الأخضر رمز الملكية المصرية. النسر أخضر.

وأخيراً سيساوم شيخ الأزهر على اللقب الآخر، سيطلب من الرئيس مبارك -بعد تتويجه- أن يمنحه لقب مفتي الديار المصرية، وبهذا سيحصل على اللقبين، وسيتساوى مع البابا في عدد الألقاب، وربما تفوق عليه أيضاً، إذا قبل الملك أن ينعم عليه بلقب ثالث، "إمام عموم القطر المصري". ها هو لقب فخم أخيراً. وبهذا سيصبح: شيخ الأزهر الشريف ومفتي الديار المصرية وإمام عموم القطر المصري. سطر كامل في الصحف وفي نشرات الأخبار. النسر كريم.

@3abeth

يقف الرئيس أمام الطاولة والرجال الأربعة الممثلين لشعب مصر العظيم، المحبوبين من كافة المصريين. محاط بمليون مصري، كلهم مؤيدون أقوياء شجعان، لا يهابون شيئاً، ومستعدون لفداء الرئيس بحياتهم. النسر آمن.

طبقاً للمراسم والتقاليد الملكية المصرية، التي ستصبح خالدة من اليوم فصاعداً، يبدأ البابا وشيخ الأزهر في تتويج الملك. النسر فرح.

يمسك البابا وشيخ الأزهر التاج بأكفهما، تحيط الأكف الأربعة بالتاج تماماً، الأكف التي ترعى دين المصريين ترعى تاج الملك وتحميه، وتضفي عليه قداسة وصلابة وشرعية. تعانق البابا والشيخ حتى يستطيعا القيام بهذه الحركة الماهرة، تقاطعت أذرعهما في عناق مقدس أثير لدى المصريين، وحدة وطنية، عنصرا الأمة المصرية. كفا البابا متقابلتان على التاج، وكذلك كفا الشيخ، إذا مر خطان وهميان بين باطنيّ كفيّ كل منهما، فسيكونان صليباً مربعاً مقدساً، بينما اتخذ جسداهما شكل هلال إسلامي صارم. الله، يا له من مشهد. تخيل الرجلان الصليب الذي رسماه للتو في وقت واحد، ابتسم البابا في خبث، بينما ذُعر شيخ الأزهر من مشهد الصليب المربع. وكأن تلك إشارة إلهية لترك التاج، لكنه تماسك فوراً، فالمهمة لا تحتمل التردد أو الاهتزاز. الآن، يرفع كلاهما التاج إلى مستوى بصريهما، مرة أخرى يفكر كل منهما تفكيراً خبيثاً للغاية "بسرعة، سأضع التاج على رأسي لأصبح ملكاً، ثم أقتل كل الواقفين أمامي الآن" الفكرة كانت بسيطة جداً، سهلة التنفيذ، لم كل هذا التردد إذن؟ الأكف الأربعة تعاني وهي تحمل التاج الخفيف،

@3abeth

كل كفين تحاول منع الكفين الآخرين من الفعل، من التتويج الذاتي وحكم مصر، حكم مصر مطمع لكل إنسان، لكن كهانة مصر لا يحصل عليها الواحد إلا بالعمل الدؤوب ولعق بطون الأقدام وما بين الأصابع. في النهاية قد يزول الملك، قد يتغير النظام السياسي، قد تنهار الدولة تماماً، لكن كهانة مصر باقية إلى الأبد. بل إن على الكهنة اختيار حاكم ليمنحوه الشرعية، كهنة مصر هم مانحو الشرعية لكل من حكمها، سيكونان أول الهاتفين: الله، المملكة، الملك.

يقتربان ببطء من الرئيس، وهما يحملان التاج، يوشكان على التعثر بسبب العناق الأزلي الذي يوحدهما. بينما يحبس الجميع أنفاسه، يتوقف مذيع التلفزيون عن الكلام، يتوقف مذيع الراديو عن الكلام، هناك في الشوارع المحيطة بميدان التحرير، تتوقف قلوب عديدة، يسقط أصحابها موتى من هول ما يشاهدون على الشاشات العملاقة، لكن لا أحد يلحظ سقوطهم، قلة مندسة من المعارضين ينتحون جانباً ولا يتابعون الشاشات أو الإذاعة أو التلفزيون، يحترقون من الداخل، هؤلاء لم يؤثر فيهم خطاب نعيم، هؤلاء قرأوه لكنه كان خطاباً ثقيلاً على نفوسهم، هؤلاء تمتعوا بمناعة طبيعية، فلم يؤثر فيهم هيكل قديماً، ولم يؤثر فيهم نعيم اليوم. أرواح ضالة، شراذم المجتمع المصري، مرضى نفسيون ويجب على المجتمع علاجهم، مختلفون وشواذ ويجب على المجتمع المصري أن يلغي هذا الاختلاف. حتى هؤلاء صمتوا وسكنوا في لحظة التتويج.

بفارغ صبر، اختطف الرئيس التاج من أكف الكهنة، أزاحه

@3abeth

بعيداً عنهم، غاضباً من تأخرهم وكسلهم، صرخ في وجهيهما: وسّع!

في الساعة الثالثة عصراً، واثنتي عشرة دقيقة، وثلاثين ثانية، خفض الرئيس محمد حسني مبارك رأسه قليلاً ورفع التاج حتى وصل إلى منسوب رأسه، في الساعة الثالثة عصراً واثنتي عشرة دقيقة وثلاث وثلاثين ثانية، رفع المليك محمد حسني مبارك رأسه المجلل بالتاج.

هتف البابا وشيخ الأزهر: عاش المليك!! ليرد الجمهور في صوت واحد هادر مكرراً الفعل والفاعل بحزم وثقة، ثلاث مرات متتالية. نغمة واحدة توحد المصريين الآن، شخص واحد يُجمع عليه المصريون، لا انتخابات بعد اليوم، لا صناديق اقتراع، كل هذا راح إلى غير رجعة.

يصعد المليك الدرجة الأخيرة، مائة درجة تفصله عن الشعب، درجة أخرى تبعده عن العامة، درجة واحدة تبعده عن الكهنة، وتقربه من الله، يفكر في لقب جديد؛ ظل الله على الأرض، عين الله الحارسة، الدرويش الإلهي.

أخيراً، يستقر المليك على العرش، يفرد ساعديه على ذراعي الكرسي، محدقاً في كاميرات التلفزيون الثابتة على المنصة المواجهة، أسفل منه يقف الكاهنان وقد غطيا رأسيهما بغطاء القداسة مثله، وأسفل منهم بدرجة واحدة يقف اثنان مقدسان أيضاً، لكنهم أقل منزلة، رئيس مجلس الشعب، ورئيس مجلس الشورى. ثم تمتلئ الدرجات الباقية بمئات المتشددين، صوفية، كاثوليك، أرثوذكس،

@3abeth

راب، خريجي معهد الموسيقى العربية، أوبرا، شعبي، أغاني شبابية، فرق مستقلة، نوبي، صعيدي، فلاحي. وتبدأ الأوركسترا في عزف النغمات الحماسية المشرقة لمسيح هاندل، الموسيقى الاحتفالية التقليدية لكل حفلات التتويج المصرية القادمة، ومع مرور الدقائق الأولى للعزف، يتأهب الجميع، وعند إشارة المايسترو، تنشد الأصوات فرحة كما لم تفرح من قبل:

يا حالولي... يا حالولي... يا حالولي... يا حليلاه

ثم بنبرة أكثر علواً، أكثر سعادة وأملاً، أكثر فرحاً، مرة أخرى:

يا حالولي... يا حالولي... يا حالولي... يا حليلاه

ظل الكورس ينشد لمدة ثلاث دقائق ونصف، حالما انتهى من الإنشاد، يبدأ الناس في التهليل، يرفع بعضهم صلباناً خشبية ويهزونها في الهواء، يرفع الباقي المصاحف، يرفع الكثيرون صوراً للمليك، وقد ركبوا فوتوشوبياً على رأسه تاجاً ملكياً أنيقاً، صور تعبيرية رائعة. تعبر عن آمال الشعب المصري العظيم.

يرفع الضباط والجنود أسلحتهم في الهواء، يرفع الفلاح منجله، يرفع العامل مفتاحه، يرفع الجزار سكينه، يرفع العربجي سوطه، يرفع سائق التاكسي فوطته الصفراء، يرفع الكاتب قلمه، كانت تلك لحظات عظيمة، أمة خالدة، أمة متحدة، المملكة المصرية مرة أخرى.

في سعادة غامرة، نقلت أجهزة الاتصال للمرة الأولى التمام الجديد للحرس الملكي: التنين آمن...التنين آمن...التنين آمن.

@3abeth

شكر خاص

شكر خاص لكل من أبدى ملاحظات قيمة، أو أشار إلى تناقض أو ترهل أو نقائص أو أخطاء لغوية، لولاهم لما صارت الرواية بهذا الشكل:

ياسر عبداللطيف، هلال شومان، فادي عوض، نائل الطوخي، أحمد ناجي، أحمد وائل، مراد تادغوت.

شكرا لكل من قرأ، وأبدى دعماً وتفهماً:

هيثم الورداني، عزة مغازي، مروة المليجي، كرم يوسف، عمر باز، محمود توفيق، بن كوربر، ماهر عبد الرحمن، فاروق عادل، دينا البدري، إيمان مرسال.

شكراً لكل من كتب مقالاً أو كتاباً:

د شريف يونس، د خالد فهمي، د حمادة حسني، وائل عبد الفتاح، هاني درويش، أحمد صبحي منصور، سيد قطب، محمد حسنين هيكل، نعوم تشومسكي، د أحمد عكاشة، ريتشارد كوندون، أبو الحسن الماوردي.

شكراً لكل من قدم معلومة أو ساعد في إيصالها:

ياسر عبد القوي، ملك لبيب، عمرو عزت، مصطفى حسين، محمد جابر.

شكراً لكل الملهمين:

فرج، عبد النعيم، ياسين، أميرة، مدحت، وهيب، أمجد.

@3abeth

عن المؤلف

- الكاتب محمد ربيع هو مهندس معماري شاب من جيل بدأ الكتابة من خلال مدونات الانترت. هذه هي روايته الثانية بعد رواية "كوكب عنبر" والتي حازت علي جائزة ساويرس -- أحسن رواية – لشباب الادباء سنة ٢٠١٢.

- صدرت رواية "كوكب عنبر" عن الكتب خان للنشر والتوزيع في ٢٠١٠.

3abbeth.blogspot.com
مكتبة عابث
@3abeth
@mjanen23

@3abeth

"نعيم أبو سبعة" مواطن بسيط يعمل في مهنة على وشك الانقراض. تعرض على مدار حياته العائلية والمهنية لكافة أشكال المحن حتى آل الأمر إلى أنه صار في عداد الموتى وهو على قيد الحياة.

ما هي علاقة نعيم بأعلى سلطة في البلاد؟ وكيف تنفذ السلطة بآلياتها المرعبة إلى أدق تفاصيل حياة المواطنين؟

في "عام التنين" ينسج محمد ربيع عالمًا من الفانتزيا السياسية التي لا تختلف كثيرًا عن الواقع كما عهدناه خلال الستين عامًا الماضية. مستندًا على وقائع وأماكن وأحيانًا شخصيات حقيقية. ويدخل إلى سراديب البيروقراطية المصرية. عالمه الأثير منذ "كوكب عنبر" وأقبية "الدولة العميقة" وعملائها المبثوثين في كل مفاصل الحياة.. عام التنين هو عام ٢٠١٢ وسيشهد وفقًا للرواية أحداثًا سياسية كبيرة..

والروائي محمد ربيع هو مهندس معماري شاب. بدأ ممارسة الكتابة على مدونات الإنترنت [illegible] هي روايته الثانية بعد روايته الأولى "كوكب عنبر" والتي أتم إنجازها في ورشة "الرواية الأولى" برعاية الكتب خان وإشراف الكاتب ياسر عبد [illegible] على الجائزة الأولى - فرع الرواية - لشباب الأدباء والمقدمة من مؤسسة [illegible] الثقافية ٢٠١١ بالإضافة إلى روايته "عطارد" الصادرة عن دار التنوير [illegible]

ISBN 978-977-6306-12-7
9 789776 306127

@3abeth